عـادل حمـوده

خريف هيكل

أسطورة شاخت فى موقعها

منشورات
البندقية

خريف هيكل

أسطورة شاخت في موقعها

خريف هيكل
أسطورة شاخت فى موقعها
المؤلف
عادل حمودة
الإشراف العام
ياسر رمضان
التنفيذ الإلكترونى
قسم الإخراج بالدار
مراجعة وتدقيق
عبد العزيز السباعى
التوزيع داخل جمهورية مصر العربية والخارج:
كنوز
للنشر والتوزيع
رقم الإيداع: 2014 / 13472
الطبعة الأولى: يوليو 2014
الطبعة الثانية: يوليو 2014

20 ش جواد حسنى متفرع من قصر النيل - القاهرة
tel & mo: 002023961698 - 00201227717795
E - mail: albondkia- press@yahoo.com

خريف هيكل

أسطورة شاخت في موقعها

عادل حمودة

تقرأ في هذا الكتاب

مرسى يخبر هيكل برغبته فى الاحتفال بعيد ميلاده ومكتب الإرشاد يرفض- هيكل يغير عادته ويزور قبر عبد الناصر فى ذكرى رحيله ليقابل السيسى- حوار مع هيكل عن محاولة اغتيال مبارك فى أديس أبابا يثير العواصف، والكاتب الكبير يرسل برقية تهنئة لمبارك بمناسبة نجاته- مبارك لم يكن يحب هيكل ولايكرهه... فقط كان يحذره - أسامة الباز ينقل لى رسالة من مبارك يحذرنى فيها من هيكل- أشاد بى بعد خروجى من روز اليوسف ثم استنكر أن يكون الأهرام ملجأ لكل طريد من الصحافة بعد أن انتقلت إليها- نشر معلومات مغلوطة عن زيارة أوباما إلى القاهرة، ولما صححتها وصفوا ما كتبته بأنه انقلاب عليه.

اتهمت خصوم هيكل بأنهم يصفُّون حساباتهم معه فردوا: الأيام ستثبت لك صدق ما نقول- رفض أن يلقى كلمة فى حفل تكريمى فخرجت الصحف تقول إنه شعر أن لقب الأستاذ الذى يحمله استحقه صحفى آخر- دور إبراهيم المعلم الغامض فى حياة محمد حسنين هيكل- الثمن الذى حصل عليه من ظهوره على قناة الجزيرة وأسرار علاقته الخاصة بأمير قطر حمد وشيختها موزة- تفاصيل بيزنس أحمد هيكل مع القطريين- هيكل يفتح بيوته لقيادات جماعة الإخوان المسلمين

له على مساندته لابنه حسن الهارب من مصر.

سيمور هيرش ينشر حوارا خاصا دار بينهما فى القاهرة يكشف أن الكاتب الكبير يحتقر الشعب المصرى- وهيرش بعد أن أغلق هيكل الهاتف فى وجهه: هيكل الذى كنت أحترمه اختفى بعد أن سقط القناع عن وجهه- هاجم المجلس العسكرى بضراوة لكن بعد سقوط مرسى ذهب إلى السيسى ليجدد ثقته فى الجيش ودوره فى السياسة.

هيكل يفتقد فى أحاديثه التليفزيونية دقة المعلومات وعمق التحليل- فقد حساسيته فلا يعرف ما الذى يدور فى كواليس السياسة الأمريكية ولا موقف أمريكا من دول الربيع العربى.

نشكركم على حسن تعاونكم

لم يؤمن بتجربة عبد الناصر لكنه اكتفى بالاستفادة منها- عاش فى بيته الريفى ببرقاش حياة مترفة وسط فقر مدقع- خرج على الناس بصور له فى ملعب الجولف وهى رياضة مكلفة لا يقدر على تحمل نفقاتها سوى نصف فى المائة من سكان العالم - هل ساهمت علاقات هيكل العربية وشهرته المصرية فى تنمية استثمارات وثروات أبنائه؟- كان يقدم نفسه على أنه معارض لنظام مبارك بينما أولاده شركاء لأبناء مبارك فى البيزنس والمكسب والمصلحة- أحمد هيكل دخل فى شراكة مع هيئة البترول فى مسطرد كانت مجالا للتحقيق فى النيابة -وحسن هرب إلى لندن على ذمة قضية جنائية هى بيع أسهم البنك الوطنى المصرى.

1

صديق ورفيق مشاكل لا تزال تجر أذيالها!

تنفس محمد حسنين هيكل نسمة الحياة أول مرة فى 21 سبتمبر 1923.. ويحرص أولاده الثلاثة (على وأحمد وحسن) وزوجته السيدة هدايت تيمور، على أن يكون الاحتفال السنوى بعيد ميلاده احتفالا عائليا.. قرب البيت يؤمن بأن توسيع دائرة المشاركين فى هذه المناسبة الخاصة نوع غير مستحب من «الوثنية».

وفى كل عيد ميلاد يجد أولاده أنفسهم فى حيرة.. ما هى الهدية التى يقدمونها إليه وهو يمتلك كل شىء؟. وغالبا.. ما يلجئون إلى محلات أوروبية وأمريكية متخصصة فى بيع هدايا لا تخطر على بال الأثرياء الذين لا يجدون فى المحلات الأخرى ما يغرى بالتوقف والفرجة والشراء.

فى تلك المحلات لن تجد أشياء ثمينة.. لكنك ستجد أشياء غريبة.. فرشاة ذات ذراع طويل تصل لمنتصف الظهر.. مصباح صغير يعلق فى الكتاب بمشبك، يتيح القراءة فى الظلام دون الحاجة لمصدر معتاد من الضوء يزعج شريك الغرفة.. قاطع سيجار غير معتاد.. مثلا.

واحتراما لتفسيره بوثنية عيد الميلاد فإن هيكل يذهب إلى ضريح جمال عبد الناصر فى ذكرى وفاته.. يوم 28 سبتمبر.. ويعتذر عن الذهاب فى ذكرى ميلاده.. يوم 15 يناير.

تعّود هيكل أن يذهب إلى الضريح مبكرا وينصرف مبكرا قبل أن تأتى عائلة جمال عبد الناصر ويأتى محبوه ومريدوه والمؤمنون به.. لكن عندما علم هيكل أن عبد الفتاح السيسى سيأتى ويقرأ الفاتحة على الزعيم الخالد، انتظره.. ووقف فى استقباله.. نافيا بذلك ما يقال عن حفاظه على عاداته مهما ضغطت ظروف.. وفرضت ضرورات.

ولو كان السيسى قد نجح بسهولة فى تغيير عاداته فإن محمد مرسى يكون قد نجح بنفس السهولة فى تغيير معتقداته.

قبل أسبوع تقريبا من عيد ميلاده التاسع والثمانين تلقى هيكل اتصالا من ياسر على المتحدث باسم رئاسة الجمهورية عارضا عليه قبول دعوة «الرئيس» للاحتفال بعيد ميلاده.. يوم 21 سبتمبر 2012.. وطلب منه اختيار ما بين 25 و30 شخصية من المقربين منه ليشاركوه الاحتفال الذى سيقام فى قصر الاتحادية.. وتقبل هيكل الدعوة شاكرا ومرحبا.. متناسيا فى الوقت نفسه أن الاحتفال بعيد الميلاد فى هذه الحالة وحسب معتقداته سيكون بالتأكيد احتفالا وثنيا.

وراح هيكل يعرض على صحفيين وروائيين وسياسيين بينه وبينهم مساحة عريضة من الود المتين أن يشاركوه هذا الاحتفال الفريد من نوعه وهو على وشك دخول عامه التسعين.. وبعد أن اختار القائمة بعناية انتظر مكالمة أخرى من الرئاسة لتحديد التوقيتات والترتيبات.. لكن.. المكالمة لم تأتِ.

حسب ما عرفت من أحد الأمناء فى القصر الجمهورى فإن نائب رئيس الديوان أسعد شيخة نقل الخبر إلى مكتب الإرشاد.

وعلى الفور رفضت الفكرة.. فقد اعتبرت نفاقا مخزيا لرمز بارز.. محسوب على الناصرية المعادية لتوجهات الجماعة.. «ولو كان على الرئاسة أن تتعامل معه وتستفيد منه فليكن ذلك بعيدا عن مثل هذه المناسبات التى تعتبرها التيارات السلفية والجماعات المتشددة المساندة للإخوان «وثنية» فعلا.. بما فى ذلك الاحتفال بالمولد النبوى الشريف».

كانت خشية مكتب الإرشاد أن يكسب الإخوان هيكل ويخسروا حلفاءهم الأقوياء من مطلقى اللحى.. ومتطرفى الفتاوى.. وحاملى السلاح.. ومفجرى القنابل.

وتجاوز هيكل عن وصف «الوثنية» مرة أخرى عندما دعاه السيسى بعد عدة أيام للاحتفال بعيد ميلاده فى مكتب من مكاتب القائد العام- وفى ساعات قليلة شعر سكان العمارة التى يسكنها هيكل على النيل، بالقرب من شيراتون القاهرة، بحركة أمنية غير عادية.. فقد جاء رجال السيسى ليصطحبوا هيكل إلى مكان الاحتفال بعيد ميلاده.. لكن.. بمفرده.. ودون صحبة من أتباعه ومريديه يختارهم للمشاركة.

ولا بد أن سكان العمارة أصابتهم الدهشة من تردد رجال السيسى على هيكل.. فقد سبق لهم أن شاهدوا قيادات من الجماعة تتردد عليه.. فكيف يجمع المتناقضات بكل هذه السهولة.. والبراعة؟

لكن.. لم تصب تلك الدهشة قدامى السكان.. فقد تعودوا منذ جاوروا هيكل أن يصادفوا شخصيات تعبر عن عصور سياسية مختلفة.. ومتصارعة.. ليكون السؤال عن موهبة هذا الرجل فى القفز من سلطة إلى سلطة.. ومن سفينة إلى سفينة دون أن يصاب ببلل أو بأذى.. إلا قليلا.

لكن.. تحولات هيكل من نظام إلى نظام لم تكن مكشوفة من قبل كما حدث مؤخرا.. وهناك أسباب متعددة تبرر ذلك الانكشاف.

إن الانتقالات التى كانت تجرى فى السلطة لم يكن يعرف عنها أحد إلا ما يسمح به فى البيانات الرسمية.. أو ما يكشفه هيكل فى مقالاته.. فيما بعد.. وهذا ما تلاشى الآن فى ظل وسائل إعلام يستحيل السيطرة عليها أو حجبها أو التحكم فيها.. فضائيات تبث من أقمار صناعية سابحة فى السماء بحرية.. شبكات للتواصل الاجتماعى تبادر وتسبق بما لديها من أخبار دون رقيب أو حسيب.. ومواقع إنترنت تسجل وتحتفظ بما يصل إليها من معلومات وشهادات وكتابات يصعب حذفها.. تظل ذاكرة حية إلى يوم الدين.

إن الانتقالات التى جرت فى السلطة فيما قبل كانت على فترات متباعدة.. فقد بقى عبد الناصر فى الحكم 16 سنة.. وبقى السادات فى الحكم 10 سنوات.. وبقى مبارك فى الحكم 30 سنة.. وهى مسافات زمنية عريضة إلى حد كبير.. تسمح لمن يريد أن يتحول من خدمة سلطة ذهبت إلى خدمة سلطة جاءت أن يتسلل خطوة خطوة.. بهدوء.. ودون انكشاف.. فالوقت فى صالحه.. لكن الانتقالات التى جرت فيما بعد لم تمنح المتحولين ميزة الوقت.. فانكشفوا بسرعة مذهلة.. لقد بقى محمد مرسى فى الحكم سنة واحدة.. سقط بعدها وأصبح سجينا بعد أن كان رئيسا.. ولم يمتلك من خدموه ثم انقلبوا عليه فرصة كافية لتبرير ما فعلوا.. من كانوا معه ثم أصبحوا مع السيسى الذى أطاح به وجدوا أنفسهم على مسرح مفتوح لم يقدروا وهم على خشبته ولضيق الوقت أن يغيروا الأدوار ويبدلوا الثياب ويبحثوا عن جمل حوار مختلفة وأمامهم جمهور يقظ.. فاهم.. يصعب «استغفاله» من جديد.

القائمة طويلة.. فيها التلفزيونى عمرو الليثى.. وصاحب قناة المحور حسن راتب.. ومدير دار الشروق إبراهيم المعلم.. ورجل الأعمال أحمد أبو هشيمة.. مثلا.. ويقف على الرأس فى أول الطابور هيكل نفسه.

لقد كان عمرو الليثى عضوا فى لجنة الإعلام بالحزب الوطنى قبل أن يعلن انسلاخه من نظام مبارك فاتحا برنامجه التلفزيونى فى انحياز واضح لرموز الإخوان فاختير مستشارا إعلاميا لرئيسهم محمد مرسى الذى خصه بالحوارات التلفزيونية بجانب زيارات شخصية وعائلية فى بيته.

وعندما راح بركان 30 يونيو يخرج لهيبه الساخن تمهيدا لانفجار حممه الحارقة كان الإعلامى المتقلب شديد الثقة فى أن النظام الذى راهن عليه لن يسقط.. وأن ما يظهر على السطح من أعراض ثورة جديدة هى أوهام عقلية تختلط بأحلام يقظة.

وحسب معلوماته فإن قيادات فى الجيش لا تزال تؤيد مرسى ببرقيات تهنئة أرسلت إليه بمناسبة مرور عام على توليه الحكم.. دون أن يدرك الفرق بين ما هو شكلى وما هو حقيقى.

كما أن مكالماته الهاتفية مع أبناء مرسى لو كشف عما ما دار فيها فإنه لن يجد من زملاء المهنة من يقبل عليه بترحاب.

وفى الوقت نفسه وجد من باب الحرص أن يترك مصر فى تلك الأيام الحرجة ليقضيها فى مكة والمدينة تحت جناح العمرة.. لكن العمرة التى لا تزيد عادة على أسبوع امتدت إلى شهر.. ظل هناك فى انتظار استقرار الحال.. أراد أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود قبل أن يعيد ضبط بوصلته على نظام الحكم الجديد.. أعطى لنفسه فرصة كافية للسباحة بين مركب تغرق ومركب تطفو فى انتظار اللحظة المناسبة لركوب المركب الجديدة.

وفى الوقت نفسه لم يورط نفسه فى الكتابة عن ما يحدث.. مكتفيا بالكتابة عن شخصيات مؤثرة فى التاريخ الإسلامى.. منتهى التقوى.. منح نفسه بمقالاته عن حكام مسلمين عادلين الفرصة للتفكير فى الطريقة المناسبة التى يقدم بها خدماته للسلطة الجديدة المنتصرة.

والمؤكد أنه بما يملك من مواهب شخصية متميزة ومعروفة ومختبرة نجح فى ذلك.. فقد وجدته مدعوا إلى حفل القوات المسلحة على مسرح الجلاء بمناسبة الذكرى الثالثة

لثورة 25 يناير.. بينما لم يُدعَ رجل مثل ممدوح حمزة ساهم بجدية وفاعلية فى تلك الثورة.. والثورة الأخرى التى صححتها فى 30 يونيو.. وكأننا ما زلنا مصابين بالحول السياسى.. لا نفرق بين من نجده وقت الشدة وبين من لا يتقرب إلينا إلا وقت النعمة.

نفس الدعوة إلى حفلات القوات المسلحة وجهت إلى حسن راتب الذى اكتشفنا وقت أن ركب الإخوان السلطة أن اسمه الأول حسن البنا..على اسم مؤسس الجماعة.. حسن البنا.. لكنه.. فى زمن مبارك حيث كون ثروته وشهرته ومكانته اكتفى بنصف الاسم.. حسن.. متجاهلا عن عمد اسم البنا.. ليعود وينفض التراب عنه فى زمن مرسى.. على أنه لم يستمتع به طويلا.. فقد سقط مرسى.. فأخفى البنا من اسمه الكامل من جديد.

وفى زمن مبارك كان حسن (البنا) راتب يقاتل بشدة من أجل أن تنقل شبكة قنواته التلفزيونية (المحور) جلسات مؤتمرات الحزب الوطنى.. ودفع مقابل ذلك الكثير من التبرعات السخية.

وأذكر أننى قبل سقوط مبارك هاجمت النظام على شاشة المحور فى حوار مع معتز الدمرداش فمنع الرجل إعادة البرنامج حسب المعتاد صباح اليوم التالى وتكلم بنفسه فى اليوم التالى بما يشبه الاعتذار عن ما قلت.

لكن.. ما أن ظهر الإخوان على السطح حتى أغدق عليهم بكرم زائد عن الحد ملايين الجنيهات أسفا.. وندما.. وفتح قصوره لقيادات الجماعة فى الداخل والخارج تاركا لهم الفرصة كاملة للتمتع بمباهج الحياة.. على حسابه.

وبعلاقته القوية بمرشد الجماعة السابق مهدى عاكف أصبح حسن راتب الوسيط المعتمد بين الجماعة ورجال الأعمال.. كل من يرضى عنه منهم يأخذه إليها.. وكل من يغضب عليه منهم يبعده عنها.

وبعد طول كتمان كشف حسن راتب أن والده كان عضوا فى تنظيم الإخوان.. وبعد أن قبض عليه تكفلت الجماعة بإطعام أسرته.. وتوفير الخبز والحليب لها.. وربما أيضا توفير العمل فى السعودية له.. وربما كذلك مشاركته فى البيزنس الذى عاد به إلى مصر دون أن نعرف مصدر «خميرة» رأس المال التى بدأ بها مشروعاته.

وما أن سقطت جماعته حتى تحول الرجل بسهولة وسلاسة إلى السلطة الجديدة.. السلطة التى كان يصفها قبل السقوط بالسلطة العسكرية.. أصبحت الآن سلطة شعبية.. ضرورية.. مدنية.. وديمقراطية لو شئنا.. أو لو لزم الأمر.

وأمام الأزمة التى تعانى منها قناة «المحور» التى يمتلكها وافق على مشاركة أحمد أبو هشيمة فى ملكيتها بنحو ثلاثين مليون جنيه.. لكن.. التخوف من الصلات الوثيقة بين أبو هشيمة وقطر جعله بضغوط ما يتراجع عن المشاركة.

وكان إبراهيم المعلم من رجال سوزان مبارك.. لعب لها الدور الأكبر والمباشر فى تحقيق مشاريعها الثقافية.. مشروع القراءة للجميع.. ومشروع كتب الأطفال.. وكل الجوائز التى حصلت عليها دار النشر التى يديرها دار الشروق أهداها إلى السيدة الأولى وحملها إليها وهو يكاد يطير فى الهواء فرحا ومنتشيا.. منتظرا اختياره وزيرا.. لكن.. أكبر منصب عرض عليه.. نائب وزير الشباب.. وقد رفضه.

وللتاريخ فإن علاقة المعلم بسوزان مبارك تعود إلى زمن كان فيه زوجها لا يزال نائبا للرئيس.. فقد كانت تدعى إلى بيت حماه الدكتور كمال أبو المجد بترحيب من زوجته السيدة سهير.. وفى تلك الدعوات كان المعلم بحكم أنه زوج أميرة ابنة أبو المجد موجودا ومرحبا.

وبعد وفاة حفيدها محمد كتبت سوزان مبارك كتابا تحدثت فيه إلى الصبى الذى ذاق الموت مبكرا وهو فى عالم آخر.. بعيد.. وسارعت دار نشر أمريكية بالتعاقد معها لنشر الكتاب.. وخصت تلك الدار الجامعة الأمريكية فى القاهرة بطبعة إنجليزية توزع فى مصر وما حولها.. على أن تكون الترجمة العربية من نصيب المعلم الذى سخر لها كل ما لديه من قدرات تحريرية.. وإمكانيات فنية.

وحسب ما سمعت من مدير النشر السابق فى الجامعة الأمريكية مارك لينز قبل وفاته وحرق رفاته ونثرها فى النيل حسب وصيته: إن سوزان مبارك دعته هو وإبراهيم المعلم ووزير الإعلام وقتها أنس الفقى إلى بيتها لمناقشة الترتيبات النهائية للكتاب.. جلست معهم فى غرفة الطعام.. وطلبت بأن يكون الغلاف وصفحات بداية الفصول من الذهب.. ونظرت إلى حائط الغرفة قائلة: «ذهب فى لون الحائط».. ثم استطردت:

«لا.. أريد ذهبا عيار 24 قيراط».. وانهت الطلب قائلة: «ولا أنا ما استحقش؟».. وهز إبراهيم المعلم رأسه مبتسما ومرحبا.

وأبدى أنس الفقى رغبته فى شراء نسخ من الكتاب بنحو 700 ألف جنيه، فتساءل مدير النشر الأمريكى: هل سيدفعها من جيبه أم من جيب وزارته؟

وقبل أن ينتهى الاجتماع روجعت ترتيبات حفل توقيع الكتاب الذى تقرر أن يكون يوم 27 يناير 2011.. ولكن.. الثورة التى اشتعلت قبل الموعد بيومين أجلت الحفل.. وبسقوط زوجها تأجل الكتاب.

بعد الثورة سارع إبراهيم المعلم بجمع كل ما يمت للكتاب بصلة وأخفاه فى مكان لا يعرفه غيره.. وربما حرقه.. وهو ما جعل فريد الديب محامى عائلة مبارك يطالبه قانونا بأصول الكتاب بعدما خفت حدة الانتقادات للرئيس الأسبق.

بسرعة نفض المعلم عن نفسه غبار النظام السابق.. وسارع بتشكيل لجنة حكماء الثورة.. وفتح قاعات مبنى صحيفته التى تحمل نفس الاسم (الشروق) لاجتماعاتها.. ومن سخرية القدر أنه تحدث فى برنامج تلفزيونى قائلا فى حدة وبراءة: «إن مشكلة نظام ما بعد الثورة أنه لم يتخلص من رجال ما قبل الثورة».. ولم يجد من يطالبه بأن يطبق ذلك على نفسه.

ولم يتردد فى التقرب من الإخوان.. بل يمكن القول إنه وجد فى تلك الجماعة ما لقى فى نفسه الكثير من الهوى بحكم التأثر بوالده محمد المعلم.

لكنه سرعان ما لفظ الإخوان وتقرب من جديد إلى السلطة التى أزاحتهم وفرضت وجودها بعد 30 يونيو.. والمذهل.. أنه نجح فى ذلك.. فقد وجدته ضيفا مرحبا به فى مناسبات متعددة دعت إليها تلك السلطة الرموز المختلفة لحضورها.

وفى بعض هذه المناسبات وجدت أيضا أحمد أبو هشيمة نموذج آخر للتحولات الحادة.. والانقلابات الحادة.. لقد خرج إلى سطح الثروة دون أن نجد فى الجذور ما يؤهله لذلك!. وبزواجه من النجمة اللبنانية هيفاء وهبى أصبح شهيرا.. وسرعان ما فتحت له هذه الشهرة أبواب النعيم.. فقد وجد جهات قطرية تشاركه فى استثمارات الحديد. والأخطر.. استثمارات الميديا.. وكانت الواجهة القطرية شخصًا يدعى محمد بن سحيم.

وخلال سنوات الحكم الأخيرة لمبارك ساند أبو هشيمة وجوده بشخصيات أمنية مؤثرة.. تخلص منها فور أن جاء الإخوان إلى السلطة.. فانتقل إلى الجماعة عارضا خدماته.. وتوثقت الصلة بينه وبين رموزها المالية.. مثل حسن مالك وخيرت الشاطر.. لكن.. أبو هشيمة سرعان ما أنكر صلته بها فى نفس لحظة سقوطها.. وسعى بتبرعات سخية إلى مد جسوره إلى شخصيات لها نفوذها فى السلطة الجديدة.

لقد سعى أبو هشيمة جاهدا للتقرب من جمال وعلاء مبارك.. وتفاخر بأنه يلعب كرة القدم معهما.. وكانت تمريرات الكرة بين أقدامهم دلالة على نفوذ يتمتع به نجم البيزنس الصاعد.

ولكن.. ما أن خرج خيرت الشاطر من السجن معبرا عن مرحلة جديدة حتى سارع أبو هشيمة بالذهاب إليه فى بيته عارضا عليه خططه الصناعية منتظرا إضفاء البركة عليها.

وبعلاقته بأبناء حسن مالك شهبندر تجار الإخوان نجح أبو هشيمة فى أن يضع اسمه فى قائمة رجال الأعمال المسافرين مع مرسى إلى الصين.. وعندما بدأت ترتيبات زيارة مرسى إلى نيويورك متحدثا أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة سبقه أبو هشيمة إلى هناك دون دعوة.

ومن باب الود العائلى سمح أبو هشيمة لقيادات إخوانية بدخول صالة الألعاب الرياضية فى بيته بالقاهرة الجديدة ليستمتعوا بفنون الاسترخاء والمساج.

وما لفت النظر فى مسيرته أنه فى ظل حكم الإخوان طلق هيفاء وهبى.. وفتح ذلك الطلاق المفاجئ الباب أمام تكهنات واجتهادات وصفت ذلك الطلاق بطلاق سياسى.. وتحدثت شائعات عن تسوية مالية بملايين من الدولارات جعلت الطلاق يقع دون خلافات.. لكن.. ذلك لم يكن صحيحا.

وفى كل مراحل صعوده غير المبرر كانت عينه على الإعلام.. فاشترى نسبة حاكمة فى «اليوم السابع».. وتسلل إلى قناة المحور.. لكن.. جرى تحذير صاحبها.. فأعاد إليه ثلاثين مليون جنيه كان قد دفعها.

وحاول أن يجد بديلا لقطر فسافر إلى الإمارات.. لكن.. لم يسمح له بدخولها عبر مطار دبى.. وأعيد على طائرة أخرى اتجهت إلى مطار «برج العرب» ليس عليها درجة سفر مميزة باعتباره شخصا غير مرغوب فيه.. وهو موقف واضح لا نجد له مثيلاً عند أصحاب التأثير فى بلادنا.

لكن.. كل هذه القائمة فى جانب.. وهيكل فى جانب آخر.

لقد ارتبطت بعلاقة صداقة قوية بينى وبينه.. امتدت أكثر من عشرين سنة.. ونشرت كتابا عنه بعنوان «هيكل: الحياة والحب والحرب».. وجمعت بعضا من حواراته معى فى كتاب آخر صدر بعنوان «لعبة السلطة فى مصر».. فما الذى يدفعنى الآن للاختلاف معه أو رؤية وجها آخر له؟. ما الذى جعلنى أراه بعيون أخرى غير التى رأيته بها؟. ما الذى حرضنى على التوقف طويلا عند تحولاته وانعطافاته وتغيراته؟

يبدأ هيكل كتابه الجذاب والممتع «زيارة جديدة للتاريخ» بإهداء شجعنى على ما فعلت: «إلى هؤلاء الذين يملكون الجرأة على مراجعة المألوف والمعروف.. وأنفسهم».. وتصورت أننى أمتلك الجرأة على مراجعة ما ألفت وعرفت عنه.. بجانب مراجعة النفس.. عملا بنصيحته المنشورة علنا.

وتشجعت أكثر عندما وجدته يقبل بدور الناصح لأصدقائه رغم صعوبة مثل هذا الدور.

فحسب ما كتب فى مقال نشره فى 4 نوفمبر 1996 فى صحيفة «يوميورى شيمبون» اليابانية عن الدكتور بطرس بطرس غالى فإن «من أصعب المواقف أن يتطوع رجل بنصيحة لرجل آخر لم يطلبها، والأصعب أكثر إذا كانت هذه النصيحة متعارضة مع هواه وربما مصلحته كما يراها، وتصبح الصعوبة بالغة إذا جاءت النصيحة فى ظرف معقد يتوقع فيه أى صديق من صديقه أن يقف بجانبه دون مساءلة فإذا لم يستطع فعلى الأقل يبتعد».

كانت نصيحة هيكل إلى صديقه بطرس غالى (الكبير) أن لا يعيد ترشح نفسه لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة.. وتوافقت النصيحة مع رغبة شديدة وملحة وضاغطة من

الولايات المتحدة.. ورغم تحفظ هيكل على توجيه النصيحة لصديق فإنه قدمها إليه بالفعل.. بل.. وأبعد من ذلك.. نشرها علنا.. ولم يتوجه بها إليه سرا.

وسيرا على خطى هيكل قررت أن تكون نصيحتى إليه بنفس الوسيلة.. النشر علنا.

يضاف إلى ذلك أن هيكل نفسه كتب مقدمة كتابى «لعبة السلطة فى مصر» متحمسا لفكرة السؤال وأهميته قائلا:

«إن (هذا) الكتاب حوار.. والعنصر الرئيسى فى أى حوار ليس الجواب وإنما السؤال وبالتالى فإن صاحب الحوار الحقيقى هو صاحب السؤال وليس هو صاحب الجواب.. فالسؤال هو الذى اختار الموضوع واختار التوقيت واختار أسلوب العرض بما فى ذلك مواقع التركيز ومواقع التفصيل».

ويستطرد هيكل: «إن كون هذا الكتاب سؤالا أو مجموعة أسئلة فخير ما تقدمه له استلهام تلك الحكمة القديمة التى تقول: «إن السؤال هو جوهر الفلسفة» وذلك تعريف دقيق، فالفلسفة بالفعل سؤال ملح فى طلب المعرفة وفى البحث عن الوجوه المختلفة للحقيقة».

«وأظن أن المجتمعات تظل بخير طالما هى متمسكة بـ «السؤال».. تسأل عن عالمها وزمانها وتسأل واقعها وظروفها وتسأل نفسها وغيرها ثم لا تفتر همتها أو ينثنى عزمها عن التفكير فى أسئلة جديدة بلا حدود أو قيود غير الحرص على أن تبقى الأسئلة موصولة بالحياة وغير معزولة عنها».

«وبما أن الميزة الأساسية فى الشخصية المهنية للصديق الأستاذ عادل حمودة أنه رجل يحمل «سؤاله» معه أينما ذهب.. والواقع أنه إذا كان السؤال «هو جوهر الفلسفة» فهو أيضا صميم مهنة الصحافة فى آخر طبعاتها.. فالصحافة - خصوصا فى الغرب أوروبا وأمريكا - تتجه فى معظمها الآن إلى ما يسمونه مدرسة «الصحافة السائلة».. وهى مدرسة تؤمن بأن الصحافة سؤال.. وهذا صحيح إلى أبعد مدى».

«والصحيح قبله أن الحياة سؤال وأن الفلسفة سؤال وأن الحقيقة سؤال. أما الإجابات فهى اجتهادات بعضها يصل إلى هدفه وبعضها سهام تطيش فى الفضاء».

واستجابة لما تفضل به وما تحمس له تصورت أننى يمكن أن أطرح ما فى داخلى من أسئلة عليه.. نشرتها فى صحيفة «الفجر» يوم الخميس 9 يناير 2014.. لماذا ذهب إلى محمد مرسى؟. ما مبررات حماسه لجماعة الإخوان رغم العداء القديم بينه وبينها؟. كيف طاوعته خبرته ليقوم بمبادرة صلح بين الجماعة الحاكمة والقوى المدنية المعارضة؟. كيف انتقل بسهولة ويسر ودون تفسير أو تبرير من مرسى إلى السيسى رغم ما بين الرجلين من اختلافات وخلافات؟. وأسئلة أخرى سنكشف عنها.. فيما بعد.

وفى كل كلمة كتبتها عنه لم أمسه بسوء.. بل.. على العكس.. اعترفت بقدرته وحفظت مكانته.. ومنحته أعذارا عن أخطاء ارتكبها لا يجوز لمثله الوقوع فيها.. لكن.. قبل أن أثبت ذلك.. أتوقف كثيرا عند رد فعل ما نشرت.

أكاد أجزم أنه كل من قرأ ما كتبت أصيب بدهشة غير مصدق أن هناك من تجرأ وهاجم هيكل.. واشترك فى ذلك من أعجبوا وتحمسوا.. ومن استنكروا واشمأنطوا.. فكل شخصية مهما ارتفع شأنها تعرضت للنقد.. دون تعجب.. بما فى ذلك الأنبياء والزعماء.. إلا هيكل.. كأنه الوحيد المحصن والمصون.. خاصة فى سنوات ما بعد مبارك.. إلا قليلا.

فى سنوات حكم مبارك فتحت عليه نيران مؤذية من كتّاب فى السلطة.. بطريقة مثيرة للاشمئزاز.. مما أجبر كل من أراد مناقشته مناقشة موضوعية ومحترمة على التراجع عن الكتابة.. خشية اتهامه بالمشاركة فى تلك الحملات المسيئة.. المتجاوزة.. ونظرا لطول المدة التى حكم فيها مبارك.. نحو 30 سنة.. فإن تعفف الكتاب المستقلين ولو كانوا أصدقاء له عن الاختلاف مع هيكل منحه تلك الحصانة.

بل.. أكثر من ذلك وجد الكتاب المستقلون أن عليهم لو كان باستطاعتهم منح هيكل فى ظل الحصار المفروض عليه فرصته للتعبير عن رأيه.. ولو دفعوا فى المقابل الثمن.. إنها قاعدة أخلاقية مهنية طبيعية.. لا نهاجم رجلا لا يملك فرصة الرد.. بل ساعده على أن يعبر عن نفسه.. لا تقتل فارسا سقط من على جواده.. امنحه الفرصة للعودة إليه.. وهو ما حدث.

فى فبراير عام 1992 توليت مسئولية تحرير روز اليوسف.. ويشهد كل من ساهم وتابع تلك المجلة السياسية العريقة منذ ذلك الوقت وحتى أجبرت على تركها فى إبريل عام 1998 أن التجربة التى خضتها سجلت لنفسها موقعا متميزا فى تاريخ الصحافة المصرية.

تأثرت بها مهنيا صحف أخرى خاصة وقومية.. كما أنها اقتحمت محرمات سياسية ودينية وتعاملت معها بجرأة قفزت بتوزيع المجلة من 6 آلاف نسخة إلى نحو 120 ألف نسخة.. والأهم.. أن التجربة خرَّجت دفعة جديدة من الصحفيين قادوا فيما بعد مؤسسات إعلامية (صحفية وتلفزيونية).. مثل إبراهيم عيسى ووائل الإبراشى وعمرو خفاجى ومحمد هانى وإبراهيم منصور وإبراهيم خليل وأسامة سلامة وجمال طايع وعصام عبد العزيز ومحمد الصباغ.. بل.. وعبد الله كمال.. وإن انحرف بعيدا عن ما تعلم.

فى ذلك العام مُنع هيكل من الحديث إلى رواد معرض الكتاب بعد أن تزاحم المئات على ندوته.. ودون تردد استضفته فى روز اليوسف.. فى حوارات متتالية.. تلك التى جمعتها فى كتاب «لعبة السلطة فى مصر».. أكثر من ذلك فتحت له أبواب قاعة الندوات ليتحدث وسط جمهور تزاحم بشدة لسماعه.

ومن بعيد جاءت التحذيرات.. «أنت تلعب بالنار».. «أنت تضع أصبعك فى عين النظام».. «إن مبارك لا يطيق هيكل فلا تستفزه محطما مستقبلك فى تولى رئاسة تحرير «روز اليوسف» أو غيرها».. «حرام أن تهدر فرص صعودك بسبب كاتب لن يتذكر ما فعلت عندما يسترد عافيته».. لكنى لم أستمع.. ولم أتراجع.. وهيكل يعرف ذلك جيدا.

وما أن نجا مبارك من محاولة اغتياله فى أديس أبابا (يوم الأحد 25 يونيو 1995) حتى استضفت هيكل فى حوار جرّ عليّ من المتاعب ما تجاوز مرحلة التحذير.

نشر الحوار تحت عنوان اعتبر «أجرأ مانشت صحفي» وضع على غلاف مطبوعة فى نصف قرن: «ماذا لو اغتيل مبارك فى أديس أبابا؟».. وأجاب هيكل على السؤال قائلا: «سيدخل الجيش ويأخذ السلطة.. فليس لدينا نائب رئيس.. والحكومة القائمة لا تتمتع بمصداقية.. الوضع المتوقع أن يمد الجيش ذراعه ويأخذ السلطة.. والجيش منطقة محرمة.. لا نتكلم عنها.. ولا نعرف ما فيها.. ومن ثم فصورة الحكم القادم فى هذه الحالة.. مجهولة.. وهذه هى الكارثة».

ووصف هيكل مبارك بالتردد بين الدولة المدنية والدولة الدينية.. واعتبر الموجة العاطفية التى عبرت بها فئات الشعب عن فرحها بنجاة الرئيس تعبيرا عن قلق من مجهول قادم لو حدث لرأس الدولة مكروه.

وطالب هيكل مبارك بالتغيير وفى الوقت نفسه قال عنه إنه يتمتع «بجاذبية ومصداقية».. «كما أنه الوحيد القادر على الفعل لأن التغيير بدونه مستحيل إلا بالعنف».

وكان هيكل قد أرسل لمبارك برقية قال له فيها: «إن أكثر الناس الذين يخالفونه هم أكثر الناس حرصا عليه».

وأضاف هيكل قائلا: «إن مبارك بالنسبة لى المفتاح الطبيعى للتطور السلمى.. لا طريق آخر (غيره) للتطور السلمى».

واعترض هيكل على دعوات الحرب ضد السودان باعتبارها الدولة التى آوت الإرهابيين الذين دبروا عملية اغتيال مبارك.. قائلا: «لقد دخلنا فى حروب لا مصالح لنا فيها.. مثل حرب أفغانستان.. وصراع القرن الإفريقى.. فلا مبرر لزيادة ما ترتب على تورطنا فى تلك الحروب الخاطئة بمزيد من المتاعب والخسائر».

وما أن نشر الحوار حتى لخصته ونشرت أهم ما فيه وكالة رويترز الشهيرة للأنباء.. وفى الوقت نفسه انتقلت مدافع النار من ناحية هيكل إلى ناحيتى.. وراح رئيس تحرير الجمهورية سمير رجب يكيل من السباب ما يتجاوز مواهبه المشهود بها فى مجالات السب والقذف.

واختار مبارك رئيس تحرير الأهرام إبراهيم نافع ليتحدث إليه فيما وصف بأنه رد على ما قاله هيكل فى «روز اليوسف».. وإن كان الخلاف هذه المرة محترما وراقيا.

وفى مجلة أكتوبر فتح الدكتور عبد العظيم رمضان النيران على هيكل فى أربعة مقالات نشرها تحت عنوان «هيكل والكهف الناصرى».. وتحمست هيئة الكتاب لنشرها فى كتاب ولكن حجم المقالات لم يكن يكفى فطلب من صاحبها أن يزيد ويتوسع لكنه كان فى طريقه إلى لندن فاعتذر.. غير أن طلب مبارك كان عاجلا لا ينتظر عودته.. فتقرر أن تكون الإضافة من كاتب آخر.

لكن.. فى الوقت نفسه حدث شىء لم يخرج إلى السطح.. دعانى الدكتور أسامة الباز مع مجموعة أخرى من الشخصيات السياسية والصحفية إلى حوار مع الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات اختار مكانا له مطعم «الكبابجى» فى شيراتون الجزيرة (سوفتيل فيما بعد) ثم انفرد بى قائلا:

«إن مبارك غاضب جدا من حماسك لهيكل وفتح صفحات روز اليوسف بكل هذا الاتساع لحواراته.. والأشد خطورة أنه يعتقد أن لهيكل تنظيمًا فى الصحافة المصرية أنت أهم أركانه».

وعندما وجدنى صامتا لا أجد ما أقول من الدهشة أضاف: «لكننى قلت له مدافعا عنك أن هيكل هو شيخ مهنة الصحافة يذهب إليه الصحفيون للاستفادة من خبرته.. وليس فى الأمر تنظيم أو مؤامرة».

وسألت المستشار السياسى للرئيس عن مصدر تلك التهمة فأجاب: «تقارير أمنية رفعت للرئاسة.. ووجدت هوى فى نفس مبارك».

وواصل الدكتور أسامة الباز قائلا: إن مبارك لا يحب هيكل ولا يكرهه.. لكنه.. بعد أن فوجئ بما كتب هيكل ناشرا عرض السادات (فى كتاب «خريف الغضب») بدأ يأخذ حذره منه.. مكررا المثل الشائع «يا نحلة لا تقرصينى ولا أريد عسلك».

وأنهى أسامة الباز كلامه الخاطف مضيفا: «إن الرئيس يخشى عليك من هيكل.. فهو يجيد استخدام كل ما حوله.. ثم ينفض يديه منه إذا ما تضاربت مصالحه أو انقضت حاجته».

وفى فورة التحدى لم أعبأ بما سمعت.. وواصلت حواراتى مع هيكل واستمرت زياراتى له.. ومناقشاتى معه.. واتصالاتى به إلى أن دفعنا معا الثمن.

على صفحة داخلية من الجزء الأول من كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» كتب هيكل إهداء لى لخص فيه ما تعرضنا إليه من متاعب ومشاكل.

«إلى عادل حمودة.. زميلا.. وصديقا.. ورفيق مشاكل.. ما زالت تجر أذيالها».

صدر الكتاب فى مارس 1996 متأخرا عن طبعته الإنجليزية بعدة شهور.. على خلاف العادة التى حرص عليها هيكل.. أن تخرج الطبعة العربية فى القاهرة قبل الطبعات الأخرى باللغات المختلفة فى العواصم الأخرى.

وتقدمت مؤسسة الأهرام بطلب للحصول على حقوق النشر العربية ووافق هيكل.. ولكن.. الأهرام ماطلت فى النشر بسبب ما قاله هيكل فى الحوارات التى أجريتها معه.. بتعليمات من مبارك.. أو بحرص زائد من رئيس مجلس إدارة الأهرام فى ذلك الوقت إبراهيم نافع الذى أبدى استعدادًا للتنازل عن العربون الذى قبضه هيكل.. ربع مليون جنيه.. تعويضا عن الوقت الذى ضاع.. والفرصة التى أهدرت.. لكن.. هيكل لم يقبل بالمبلغ.. ورد العربون فى شيك مرفق بخطاب إلى إبراهيم نافع.. تحدث فيه عن تقديره للدواعى التى جعلته يرفض تنفيذ العقد بينهما.. وما جاء فى الخطاب الذى أطلعنى هيكل عليه، وإن رفض نشره، كرر هيكل ما عناه فى مقدمة الكتاب قائلا:

«واجهت ما أشرت إليه من ظروف غير مألوفة أو على الأقل غير عادية وحاولت تقدير الدواعى وأظننى فعلت مستجيبا لمشاعر وولاءات تعلو فوق الحقوق والعقود وحافظا لصلات وصداقات تسبق فى حسابى أى حساب».

ومن جديد عادت إلى هيكل هواجس منع نشر كتبه فى القاهرة.. ليعود من جديد إلى بيروت التى كانت حانية عليه وعلى مؤلفاته.. لكن.. تلك الهواجس تبددت.. ودخل إبراهيم المعلم على الخط.. ناشرا.

كان عقاب هيكل بمنع نشر كتبه فى مؤسسة قومية أو حكومية فاتحة خير عليه.. فقد أعاد المعلم نشر كتبه القديمة.. وكتبه الجديدة.. كما اشتركا معا فى إصدار مجلة «وجهات نظر».. هيكل بما يكتب، ويشرف.. والمعلم بما يدير، وينشر.. وتطور البيزنس بينهما بدخول أحمد هيكل شريكا للمعلم فى دار الشروق وشريكا له فى الصحيفة اليومية التى حملت نفس الاسم وصدرت فيما بعد.

أما أنا فقد وصل عقابى إلى مداه بإخراجى من روز اليوسف فى إبريل 1998 ونقلى كاتبا متفرغا فى الأهرام.. تحت رقابة مشددة.. حرمتنى من تناول موضوعات سياسية تناسب طبيعتى المهنية.

وعقب خروجى من روز اليوسف قال هيكل متحدثا إلى محمد عبد القدوس فى صحيفة «الشعب»:

«إن عادل حمودة من ألمع الصحفيين المصريين الذين ظهروا فى الفترة الأخيرة بصرف النظر عن اختلاف البعض على أسلوبه وآرائه.. ومن مميزاته أنه أعطى هامشا من الحرية يزيد عن ما هو مألوف وهذه إيجابية لصالحه فمهمة الصحفى باستمرار أن يعمل على توسيع هامش الحرية المسموح له بها بحكم الظروف وواقع الحال الذى لا يمكن إنكاره».

لكن.. لم تمر سوى أسابيع قليلة حتى استنكر هيكل أن يكون الأهرام ملجأ لكل طريد فى الصحافة.. فقد سبق أن نقل عبد الرحمن الشرقاوى من روز اليوسف إليه.. وأنا لحقت به.. ولم أعاتب هيكل على ما قال.. فهو حر فى آرائه.. ولم تمنع هذه الآراء التى كانت ضدى أن أظل صديقا له.. فصداقة الكلمة لو كانت حقيقية تقبل الاختلاف.. بل تقوم على الاختلاف.

أكثر من ذلك.. سعيت للاقتراب منه أكثر.. مستمعا منه لسيرة حياته الشخصية والمهنية التى ترجمتها فى كتاب «هيكل: الحياة والحب والحرب».. حاولت فيه تفسير مشواره الطويل الذى انتقل خلاله من محرر حوادث إلى رئيس تحرير.. ومن كاتب متميز مصنف فى مرتبة دولية متقدمة إلى شخصية سياسية قادرة مؤثرة فى السلطة الحاكمة وهو ناصح لها أحيانا.. وناقد لها أحيانا أخرى.. خاصة عندما تعطيه ظهرها.

وفى كل المناقشات المغلقة التى جرت بيننا على مدى مئات الساعات فى شقته المطلة على نيل الجيزة أو فى عزبته الريفية فى برقاش أو فى بيته الصيفى فى قرية الرواد بالساحل الشمالى اختلفنا كثيرا.. لكن.. لم تتجاوز هذه الاختلافات حدود المناقشات.. فقد كنت أخشى من أن نشر بعض منها قد يمنح فرق الصيد المتربصة به أيام مبارك فرصة صيد فى مياه عكرة.. فتشمت.. وتسخر.. أو تتصور أننى انضممت إليها.. وأصبحت واحدا منها.

المرة الوحيدة التى نشرت فيها معلومات مخالفة لما ذكر كانت بمناسبة زيارة الرئيس الأمريكى باراك أوباما للقاهرة حيث ألقى خطابا تحت قبة جامعتها كان بمثابة رسالة سياسية وحضارية للعالمين العربى والإسلامى لم يعمل بها هو نفسه فيما بعد.

لم تكن معلومات هيكل التى منحها لصحيفة الشروق دقيقة.. معلوماتى كانت أدق.. لسبب بسيط إننى تناولت العشاء مع الشاب الذى كتب خطاب أوباما وعرفت منه أسرار الزيارة وما جرى فيها.. كما عرفت المزيد عنها من رئيس الديوان زكريا عزمى الذى تطوع وكشف الكثير مما جرى على مائدتى الإفطار والمباحثات.. ربما نكاية فى هيكل.

وبالرغم من أننى قدمت كلمة وأخرت كلمة حتى لا يفهم أحد مما كتبت أننى أشارك فى حملة على هيكل فإننى وجدت من يصطاد فى تلك المياه العكرة ويصف ما كتبت بأنه انقلاب على هيكل.

كان هيكل خارج الحدود فى رحلة أوروبية تعّود القيام بها كل سنة قبل أن يعود ليقضى شهرى يوليو وأغسطس فى الساحل الشمالى.. وعندما عاد التقينا.. وشرح وجهة نظره.. وأغلق الملف على ذلك.

لم أعبر عن اختلافى مع هيكل وهو محاصر فى نظام يكرهه.. ولا يجد منفذا للتعبير فى صحيفة.. أو نافذة تلفزيونية.. ولكن.. مؤخرا تغير الوضع تماما.. أصبح مؤثرا على صحيفة يومية بشراكة أحد أبنائه فيها.. وبنفس الكيفية أصبح مؤثرا على دار نشر كبرى تتحكم فى غالبية مثقفى مصر.. لو اختلف هيكل مع واحد منهم لن تنشر له ما يكتب.

وبتعدد الصحف المستقلة نجح هيكل فى مد جسور الود والمجاملة مع ملاكها ومحرريها فأصبحت فى خدمته.. تحتفل بما يقوله على شاشات التلفزيون.. وتتبارى فى نشر حوارات معه.. وتمنع ما يكتب ضده من النشر.. وهو أمر غريب.. أن يكون كاتبا فى ثقله وشهرته سببا فى تقليص حرية الصحافة.. وتقييدها.

لقد انقلبت الآية.. فى وقت سابق كان من الصعب أن يجد هيكل صحيفة تدافع عنه.. أما الآن.. فمن الصعب أن نجد صحيفة تختلف معه.

وبعد أن كان مكروها من السلطة التى جسدها مبارك أصبح مقربا من السلطة التى جسدها كل من جاء بعده.. محمد مرسى.. عبد الفتاح السيسى.. عدلى منصور.. كلهم مدوا الجسور معه.. واستقبلوه.. وسمعوه.

أصبح هيكل قويا.. مسنودا.. محميا.. يدور فى حلقة ذكره دراويش ومريدون يسبحون بمآثره.. ويتلمسون البركة بالقرب منه.. ويلقون بتهمة الكفر على كل من يعارضه.

وفى الوقت نفسه فإن أقواله وأفعاله توجب الاختلاف معه.. وتستحق المناقشة العلنية المثمرة.. خاصة فى هذه الفترة الحرجة التى تعيشها البلاد.. مؤامرات قادمة من الخارج.. صادقة وصادمة.. وتفجيرات فى الداخل ساخنة ومؤلمة.. ومتاعب مزمنة فى كافة مظاهر المعيشة لن ينقذنا منها من ينتمى إلى ماضى.. ولم تفلح نصائحه مع من ذهب فلماذا تفلح مع من جاء؟

وكان السؤال الأهم: هل على هيكل أن يتكلم وعلينا أن نقول «آمين»؟. ألم ينته عصر الرأى الواحد الذى لا شريك له؟. هل أصبحت جملة فولتير الشهيرة «قد أختلف معك فى الرأى لكنى على استعداد أن أموت دفاعا عن رأيك» مجرد كلمات فارغة لا تستحق سوى أن تطبع على ورق تواليت؟. هل تغيرت الجملة المقدسة إلى «قد أختلف معك فى الرأى لكنى لن أتردد فى قتلك لو اختلفت معى»؟!

لكن.. ما أن نشرت ما نشرت عنه من علامات استفهام سياسية ووطنية حتى وجدت من يسأل: «ما المقصود؟».

وكانت إجابتى على السؤال.. أن ما نشرت يفصح عن هدفه.. ويشرح نفسه بنفسه.. «ومن فضلكم ارجعوا إلى ما كتبت واقرأوا بعيون مجردة.. لا تحمل عاطفة عمياء.. أو تغطيها سحابة من التفسيرات الشخصية التى تضلل صاحبها قبل غيره».. وهو ما يمكن الوصول إليه بسهولة عند قراءة المقالات التى سنجدها فى فصول قادمة من الكتاب.

يضاف إلى ذلك.. أن البحث عن الحقيقة ليس له توقيت محدد.. كما أن مناقشة كاتب كبير شغل الدنيا مثل هيكل أمر محمود طالما التزمنا بأصول الحوار.. ولم نخرج عن حدود الأدب.. وإلا كنا نصنع آلهة من لحم ودم.. وهو شرك بالحرية قبل أن يكون شركا بالله.

على أننى أعترف أن جملة من مثقفى مصر كشفوا رغم ارتفاع سيطهم وعلو شأنهم عن آراء غير منزهة عن الهوى فيما يقرأون.. فإما إعجاب بلا حدود.. أو رفض بلا نقاش.. إما أن تجد من يقول «كفاية على هيكل ما فعل بنا» أو تجد من يقول «حرام عليك ما فعلت به».

وهناك من تدخل بالنصيحة قائلا: «ألم يكن من الأجدى حفاظا على صلتك بالرجل أن تنتقده بينك وبينه؟».

وكان ردى: «وما جدوى النقاش إذا أخطأ الرجل جهرا وعاتبناه سرا.. كما أن الهدف ليس نقده.. وإنما لفت نظر من يقرأ أو يسمع ما يقول إلى وجهة نظر أخرى.. وهو ما يتنافى مع نقاش الغرف المغلقة».

وشبهت طلبهم بديمقراطية النظم المركزية ذات التنظيم السياسى الواحد حيث يسمح أحيانا بنقد ذاتى داخل قاعات مغلقة.. وقد سقطت هذه النظم متتالية بفعل تأثير قانون «الدومينو».. كما أن الحرية تحتاج إلى هواء طلق لتؤتى ثمارها.. الحرية ليست من فصيلة نباتات الظل.

وسمعت من يقول منتشيا وكأنه وضع يده على حقيقة غائبة: إننى أريد أن أروج بما نشرت عن هيكل لصحيفة «الفجر» بحثا عن مزيد من القراء.

وكان ردى: ارجعوا إلى شركات توزيع الصحف لتعرفوا معلومة صادمة.. إن هيكل لم يعد عنصر جذب للقراء.. سواء بنشر ما يقول.. أو بنقد ما يقول.. فالبضاعة التى تزيد عن الحد فى الأسواق ينخفض الطلب عليها.. ويسرى ذلك للأسف على هيكل.. فما يقوله على شاشات التلفزيون يصبح موضوعا رئيسيا فى صحف اليوم التالى.. ومع ثورة «اليوتيوب» يستدعيه الناس بالصوت والصورة دون الحاجة إلى قراءة النص فى الصحف.

وما يلفت النظر فى هذه الظاهرة أن هيكل كان مستوعبا لها.. فأكثر من مرة قال لى:

«إننا مثل نجوم السينما.. سنظل فى مواقع الاهتمام طالما أن لنا جمهورًا يطلبنا».

فهل انصرف الجمهور عن هيكل؟ وهل رصد بنفسه تراجع الطلب عليه؟

وسمعت من يقول: إن هيكل رجل تجاوز التسعين ومن باب احترام الكبير لا يصح ولا يجوز نقده.

وكان ردى: إننى تعرضت لأفكاره ومواقفه ولم أتعرض لحياته وسلوكياته.. يضاف إلى ذلك أن الشيخوخة لو طالت العقل فإن من يعانى منها عليه البقاء فى بيته.. بجانب مدفأة.. مرتديا «روب دى شامبر».. وبجانبه كوب من الشيح البابونى الدافئ.

وسمعت من يقول مستنكرا: «ومال أولاده بالطعن فيه؟».

وكانت إجابتي: إن تعرضي لولديه أحمد وحسن كان محصورا في علاقات البيزنس التي ربطت بينهما وبين جمال مبارك.. وهو أمر لافت للنظر.. أن يختلف الآباء سياسيا إلى حد القطيعة ويتوافق الأبناء ماليا إلى حد المشاركة.

كما أن هيكل قال لي ذات مرة: «إنه حذر أولاده من الدخول في بيزنس تكون الحكومة طرفا فيه».. وما وقع تحت يدي من قضايا ينفي ذلك.. بل يؤكد مشاركتهم للحكومة في مشروعات حيوية.

وكان السؤال الأخير هو الأهم: لماذا الآن؟

وكانت إجابتي: إن حماس هيكل للرئيس مرسي انتهى بحماس مضاد للمشير السيسي.. في حالة مثيرة للدهشة.. تحتاج لتفسير منه.. كيف انتقل بهذه السهولة من النقيض إلى النقيض؟. وطلبت منه توضيحا.. وأتصور أن هذا إن لم يكن حقي فهو حق غيري.

يضاف إلى ذلك خوف يصل إلى حد الفزع من أن يفسد هيكل برغبته المزمنة في الارتباط بأي سلطة المعجزة التي وقعت في 30 يونيو.. ولولاها لكانت رقابنا معلقة في المشانق.. ولو كانت المؤامرات لا تزال تحيط بنا فإننا في حاجة لمن يساعد على تجاوزها مترفعا عن ما في النفس من أهواء.. بجانب أن هيكل هو هيكل.. لا يهمه سوى نفسه.

وقد كان عليّ أن أحذر بكشف ما أعرفه عنه شخصيات نعلق عليها آمالنا حتى لا تضلل بسحر كلامه ولا تتورط بتيه تحليلاته.. وهذا حقها علينا حتى لا يأتي يوم لا يكون لنا هدف سوى ذلك.. تاركين القرار لها.. أن تتحمل مسئوليتها لو سلمت نفسها للرجل.. أو تعاملت معه دون وعي بما فعل مع من سبقوها من حكام.

إن من كان سببا في المشكلة لا يمكن أن يكون طرفا في الحل.

كما أن هيكل بنفسه منحني تفسيرا إضافيا لما كتبت عنه باقتباس منسوب إلى مؤسس صحيفة نيويورك تايمز آرثر سالزبورجر نشره في بداية كتابه «بين الصحافة والسياسة»:

إن رأي أي إنسان في أي قضية لا يمكن أن يكون أفضل من نوع المعلومات التي تقدم إليه في شأنها.

«اعط أى إنسان معلومات صحيحة ثم اتركه وشأنه.. سيظل معرضا للخطأ فى رأيه.. ربما لبعض الوقت.. ولكن.. فرصة الصواب سوف تظل فى يده إلى الأبد.

احجب المعلومات الصحيحة عن أى إنسان أو قدمها إليه مشوهة أو ناقصة أو محشوة بالدعاية والزيف إذن فقد دمرت كل جهاز تفكيره ونزلت به إلى ما دون مستوى الإنسان».

وقد سعيت بنفسى إلى معرفة المعلومات الصحيحة عنه.. أو صححت ما التبس منها عندى.. لتكون فرصة الصواب فى يدى ويد غيرى إلى الأبد.. حتى لو كان رأيى تعرض لبعض الوقت إلى أخطاء.. فالبشر بشر.

وفى نفس الكتاب يقتبس هيكل قاعدة من القانون الرومانى ترجمتها:

«بنفسه قالها».

أو بنفسه اعترف.. وقد طبقت تلك القاعدة على هيكل نفسه.. فكل ما استندت إليه فى نقده اعترف به هو بنفسه من قبل.

وفى نفس الكتاب اقتباس ثالث مأخوذ من قصيدة للشاعر والمسرحى الإنجليزى وليم شكسبير:

«ضمير له ألف لسان.. وكل لسان عليه ألف حكاية»!

وسوف نعرف فى نهاية الكتاب من يستحق ذلك الاقتباس.

وفى نفس الكتاب يستعرض هيكل قصته مع الصحافة ويرد على الاتهامات التى لاحقته بعد رحيل عبد الناصر.. مثل إنه «كان الصحفى الأوحد».. والأهم إنه تسبب فى دخول مصطفى أمين السجن وتشريد توأمه على أمين فى خارج البلاد بين بيروت ولندن فيما يشبه النفى.. وحرص هيكل على أن ينشر الكتاب فى وقت «تكون فيه كل الأطراف على قيد الحياة وقبل أن ينزل صمت الأبدية» حتى «لا يقول قائل: لماذا لم يتكلم وكان فى مقدوره الكلام؟. أو يقول آخر: بعد فوات الأوان جاءوا يتكلمون؟؟».

وقد عملت بتلك النصيحة وقررت نشر الكتاب فى وجود هيكل.. متعه الله بطول العمر والصحة.. لكن.. القلوب على حد قوله ساعات دقاقة وحساباتها بالثوانى وأجلها فى يد ليس لبشر عليها سلطان.

حزم هيكل أمره قائلا: «ليكن ما يكون».. فقد كان يعرف مسبقا أنه أمام مهمة «دونها أهوال».. فلدى «الآخرين سلطة» وليس فى يده شئ.. ولدى الآخرين «منابر ضخمة كأنها الحصون».. وهو «فى الهواء الطلق أو فى العراء».. و«بالتالى فهى موازين غير متكافئة».

وأتصور أننى بكتابى عنه فى نفس الوضع الذى كان فيه وهو ينشر كتابه عن مصطفى أمين.. فليس لدىّ سلطة ولديه اتصالات قوية بالسلطة.. وليس فى يدى شىء.. ولديه منابر ضخمة «كأنها الحصون».. دار الشروق بصحيفتها.. وسيطرتها على غالبية مبدعى مصر وصحفييها ممن يرجون نشر كتاب سياسى أو روائى.. بجانب شاشات الفضائيات التى تتلمس منه كلمة أو لقطة.. ولكن.. وحسب ما قال هو بنفسه فإننى «اطلعت على نداء داخلى يهيب بى أنه الآن الكلام وإلا فلا كلام».

وقبل أن نترك هذه المقدمة التى طالت.. أسجل أن عنوان الكتاب «خريف هيكل» ليس من اختيارى.. وإنما من اختيار مجلس تحرير صحيفة «الفجر».. فقد وضعه على الصفحة الأولى فى إشارة بارزة إلى المقال الثانى الذى نشرته عن هيكل على صفحاتها.

وقد اقتبس العنوان من كتاب هيكل «خريف الغضب» الذى وجه فيه هيكل سهامه الحادة المدببة والشرسة إلى السادات بعد رحيله.. عاجزا عن الرد.. لكن.. «خريف هيكل» يواجه هيكل وهو على قيد الحياة.. قادرا على الرد بنفسه.. أو بواسطة مقربين منه يمنحهم من باب الكبرياء تفويضا ولو شفهيا منه.

وربما تعرضت إلى بعض المتاعب بسبب الكتاب.. لكن.. منذ متى منعت نفسى من الكتابة خوفا من المتاعب؟

كما أن من العار أن يخشى كبار الناشرين الاقتراب من هذا الكتاب خوفا من نفوذ هيكل واللوبى المحيط به.. لكن.. الناشر الذى لا يؤمن بقدسية مهنته عليه أن يتركها ليفتح «مقلة».. تبيع الفول السودانى للنسانيس قبل البشر.

القاهرة
يونيو 2014

2

الجرأة على مراجعة المألوف والمعروف والنفس!

«منذ أن برق نجم محمد حسنين هيكل ونحن نشعر أنه مسافر دائم فى أيامنا.. وضمائرنا.. ولغتنا.. وهزائمنا قبل انتصاراتنا.. وأحزاننا القومية قبل أفراحنا الشخصية».

هكذا.. بدأت مقالى الأول عن هيكل.. وأجد من المناسب أن أعيد نشره.. ليُقرأ فى هدوء تتيحه القراءة المتمهلة للكتاب.. ربما يعيد الغاضبون منى تقييمه بعيدا عن التعجل الذى تفرضه قراءة الصحف.

وقد وجدت من المناسب حذف جمل سبق ذكرها فى المقدمة.. أو توسيع أجزاء تحتاج لمزيد من الشرح والتدليل.. وهذا ما يمنحه الكتاب أيضا.. وتحرمنا منه الصحف.

أضفت فى المقال بحثا لهيكل عن مخرج مما يفعل: «والمؤكد أنه مثل غيره من الكتاب كثيرا ما وقع فى تناقضات.. وحاسب نفسه من باب المراجعات.. فهو من لحم ودم.. وليس «قالب عجين».. ليس «موتورا خاليا من المشاعر».

«عندما اقتربت منه وجدت نفسى مشدودا إليه.. معجبا به.. مدافعا عنه.. فقد نجح فى البقاء على القمة أكثر من ستين سنة.. واستهلك خلال عمره المهنى الطويل ملكا (فاروق الأول) وسبعة رؤساء (محمد نجيب وجمال عبد الناصر وأنور السادات وحسنى مبارك وحسين طنطاوى ومحمد مرسى وعدلى منصور)، بخلاف الرئيس عبدالفتاح السيسى.

«ذهبوا جميعا.. وبقى هو.. بل أكثر من ذلك تطور من محرر حوادث يفتش عن أسباب الضعف الإنسانى الذى ينتهى بجريمة إلى مفكر سياسى يفسر مظاهر ضعف النظم التى تنتهى بجرائم أكبر.. وأخطر: الحروب.. والتعذيب.. والنهب».

«وفى كل الأحوال يتابع الناس أحاديثه التلفزيونية بعد أن كف عن كتابة مقالاته الصحفية.. وأعلن انصرافه عنها».

وتعرضت فى المقال بعد ذلك إلى ما سبق أن ذكرت فى المقدمة عن أهمية السؤال حسب ما كتب هيكل فى تقديم كتابى «لعبة السلطة فى مصر».

وأضفت: «أكثر من عشرين سنة وأنا أرى فى كثير مما يقول هيكل حيوية متفجرة.. لا ترهل فى التفكير.. ولا تراجع فى المواجهة.. فكلماته تولد من جديد كلما قرأناها.. وتتوهج مثل خاتم سليمان كلما فركناها».. وأظن أننى بهذه العبارات منحته ما يستحق من تقدير واحترام.

استطردت: ولكن.. «ليس كل ما يبرق ذهبا».. هكذا سمعت كثيرا من مختلفين معه.. ومعترضين عليه.. بعضهم ينتمى إلى زمن عبد الناصر.. والبعض الآخر يترنح بين إيمانه بالسادات وانتمائه إلى مبارك.. كنت أرى الهجوم عليه نوعًا من تصفية الحسابات السياسية القديمة.. لا شأن لنا بها.. ولم أكن أتردد فى الدفاع عنه دون أن أنقل إليه ما أقول (خشية من شبهة نفاق أو رفضا لتعليق دين فى رقبته).

وكان ردهم (خصومه): «أنت شاهد ما شافش حاجة».. وكانوا يستطردون «أنت لم تكن طرفا فيما جرى وما كان».. وغالبا ما كانوا ينهون تعليقاتهم الحادة (الجادة) بجملة ثقيلة.. تشعرنى بالسذاجة قبل الحيرة:

«الأيام بيننا والزمن القادم كفيل بإثبات وجهة نظرنا فيما نرى وما نقول».. «حاول أن تختلف معه اختلافا موضوعيا وسوف ترى كيف يمسح كل ما بينكم من صداقة بأستيكة حادة».

والحقيقة.. لم تكن تقديراتهم صائبة.. فقد اختلفت مع هيكل دون أن يغضب أو ينقلب.. وكان ذلك كما سبق أن ذكرت فى المعلومات التى نشرت على لسانه عن زيارة اوباما إلى القاهرة.. وكان ذلك الخلاف فرصة استغلها صحفيو مبارك للوقيعة بينى وبين هيكل.. لكننا.. تجاوزناها بسرعة فى أول لقاء جمعنا فيما بعد.

وجرت محاولة أخرى للوقيعة بيننا عندما راح زملائى فى تجربة «روز اليوسف» يحتفلون بدخولى عامى الستين فى «نادى العاصمة».

كنت قد توليت مسئولية تحرير المجلة السياسية العريقة فى فبراير 1992 وهى تكاد تحتضر.. انهار توزيعها إلى نحو ستة آلاف نسخة.. وعجزت إدارتها عن الوصول إلى روشتة علاج تنقذها من سرطان الغلق.. لكن.. بنفس المحررين الشبان.. وبنفس التكلفة المالية نجحت المجلة حتى أصبحت الأكثر توزيعا وتأثيرا.. وكان كل ما فعلت.. فتح الأبواب أمام الموهوبين ليعبروا عن أنفسهم بحرية.. وجرأة.. ودون خوف من محرمات.. أو استجابة لتحذيرات.. ولم تتغير روز اليوسف وحدها بما فعلت.. تغيرت الصحافة المصرية معها.

قصرت دعوة الحفل على شركاء فى التجربة (إبراهيم عيسى وعمرو خفاجى ووائل الأبراشى وإبراهيم منصور) وأصدقاء مقربين (مصطفى الفقى وأحمد العزبى وممدوح حمزة وهانى عنان ومحمد الوحش وراوية راشد وعبد الله السناوى وأسامة خليل) بجانب أجيال صحفية شابة عملت معى فيما بعد (منال لاشين ويسرا زهران) وانضم إلينا صلاح دياب (ناشر المصرى اليوم) ومجدى الجلاد (رئيس تحرير الصحيفة وقتها) والسيد البدوى شحاتة (رئيس حزب الوفد) وليس الحديدى (الصحفية والتلفزيونية المعروفة) ووجدت أن الحفل لن يكتمل إلا بدعوة شيخنا وكبيرنا.. هيكل.

وقف إبراهيم عيسى ليلقى كلمة.. وتفضل بوصفى بـ «كبيرنا الذى علمنا السحر».

وأضاف: إننى «لم أكن مجرد صحفى أو رئيس تحرير أو كاتب كبير بقدر ما كنت معلما ماهرا».

واستطرد: «كطلبة فى رواق أزهر نجلس حول عمود شيخنا نتابع ونتبعه ونرقبه ونترقبه نشاكسه ونشاغبه نتقلده ونقلده يفكر فى تخليق فكرة أو لقطة فى زاوية موضوع يحفزنا ويستفزنا».

وتحدث وائل الابراشى وعمرو خفاجى وراوية راشد وهانى عنان ومصطفى الفقى وغيرهم وراحت كلماتهم تضغط من شدة رقتها على ما تحت جفونى من أعصاب.. فتفجرت ينابيع الدمع خجلا وامتنانا.

وطلب مصطفى الفقى من هيكل أن يتكلم.. أن يقول جملة.. أو كلمة.. أو ابتسامة.. لكنه.. أبى.. متعللا بأنه أرهق فى المشوار الطويل الذى قطعه من برقاش إلى وسط القاهرة.

لكن.. تفسيره لم يلق صدقا فى نفوس الحاضرين والمراقبين والمحررين المتابعين للحدث.. وأجمعوا بلا استثناء على أن هيكل وجد نفسه ربما لأول مرة فى تجمع صحفى وسياسى وثقافى دون أن يكون محوره ومحل اهتمامه وصائد الضوء فيه.

وربما شعر أن لقب «الأستاذ» الذى يحمله استحقه فى الحقيقة صحفى آخر.. حسب ما ذكرت صحف صدرت فى اليوم التالى.. ومنها «اليوم السابع».

لكننى لم أقبل بما سمعت أو قرأت.. واعتبرت ذلك نوعا من الوقيعة بيننا.

وكان ردى: «إن هيكل يمتلك من رصيد الضوء ما يجعله مترفعا عن مثل هذه المشاعر السلبية».. وكتبت ذلك فى المقال.

والحقيقة أن هيكل نوع من الصحفيين يعمل من أجل نفسه وحده.. يصرف كل وقت فى تنمية اسمه وحده.. وهو نوع شائع فى المهنة.. لا ينقص من قدر المؤمنين به.. بخلاف نوع آخر تعود بحكم طبيعته على تدريب وتعليم كل من يدخل فى دائرته.. مثل مصطفى وعلى أمين (فى أخبار اليوم) وإحسان عبد القدوس وأحمد بهاء الدين وحسن فؤاد وصلاح حافظ (فى روز اليوسف) وكنت امتدادا لهم.. وربما لهذا السبب لم تخرج المدارس الصحفية المصرية عن مؤسستين هما أخبار اليوم وروز اليوسف.. أما الأهرام فقد فضلت أن تأخذ الكاتب والصحفى بعد أن يصبح نجما.. وبعد أن يتخرج فى إحدى المدرستين.

إن المدارس الصحفية مثل المستشفيات الجامعية.. تعلم الأطباء وتدربهم وتصقلهم حتى يبرعوا فى تخصصاتهم فى انتظار المستشفيات أو العيادات الخاصة للتعاقد معهم.

ولقب «الأستاذ» الذى يحظى به هيكل لقب «شرفى».. حصل عليه بحكم ما حقق من إنجاز.. وبما منحه الله من طول فى العمر.. كما أنه والحق يقال لم يكن ليبخل على أحد إذا ما طرق أبوابه طالبا نصيحة مهنية.. لكنه.. لا يفعل ذلك إلا إذا كان لديه من الوقت ما يفيض عن مشاغله.

لم أصدق أن هيكل أصيب بحالة توتر عصبى مكتوم لمجرد أنه وجد المديح المنتظر يذهب إلى غيره.. وفى وجوده.. إن ثروته من الشهرة تتجاوز حجم شهرة من كانوا يجلسون حوله ويزيد.. فقد كان حتى وقت قريب مصنفًا واحدا من أهم ثلاثين كاتبا فى العالم.. ويحسب أجره فى الكتابة بالكلمة.. «جنيه إسترلينى على كل كلمة».. على حد قوله.. أو هكذا كان.

وقد منحته الشهرة ثقة فى النفس جعلت من الممكن الاختلاف معه بعد أن أزيح مبارك واسترد هيكل ملعبه وجمهوره ونفوذه.. يمكن الآن الاختلاف معه دون أن يعتبر ذلك موقفا سيئا تجاهه.. فهو فى تقديرنا أكبر من أن يغلب المشاعر على الحقائق.

كما أن كل كلمة يكتبها أو ينطقها أو يصرح بها تنشر فى كتاب.. يتحمس لطبعه إبراهيم المعلم.. أهم ناشر فى مصر.. وربما فى العالم العربى.

بعد ثورة يناير.. توقفت طويلا عند إبراهيم المعلم شريك أحمد وحسن هيكل وفى الوقت نفسه كان أحد رجال سوزان مبارك فى علاقة لم أستوعب تشابكها وتناقضها.. هيكل يعارض مبارك.. وأبناؤه شركاء الناشر المفضل لسوزان مبارك.. لكننى سرعان ما نفضت ذهنى من متاعب حل ذلك اللغز المعقد.. فكل شخص فى تلك العلاقة له إرادة مستقلة.. مهما كانت صلاته العائلية.. أو وصلاته السياسية.. كما أن للبيزنس أحكامه التى تتجاوز كل اعتبارات.. وتنفى كل الحسابات.. ولا تلتفت لكل التفسيرات.. «بيزنس إذ بيزنس».. حسب القول الشائع الذى يتضمن فى طياته نفيا لكل مبدأ.. طالبا فقط الربح دون سواه حتى لو كان تجارة فى الكتب والكتاب.

لكن.. من جانب آخر يعتبر المعلم شخصية محورية فى حياة هيكل.. فهو ناشر كتبه.. والواجهة التى يعمل من خلفها.. فقد أسس المعلم شركة وقعت نيابة عن هيكل عقدا مع الجزيرة ليتحدث على شاشتها أسبوعيا تحت عنوان «تجربة حياة».. بجانب أحاديث مباشرة يجريها فى أوقات مختلفة تفرضها سخونة الأحداث.. فحلقات الذكريات يمكن أن تصيب مشاهدها بالملل.. وفى الوقت نفسه تحقق للجزيرة هدفها «الخبيث» من ظهور هيكل على شاشتها: نقد نظام حكم مبارك.. والتسلل من خلال ثغراته للطعن فيه.

وقع المعلم مع الجزيرة.. ووقع هيكل مع المعلم.. تسلم هيكل ما يخصه من المال القطرى ليحمى نفسه من تهمة القبض المباشر.. يدا بيد من العائلة الحاكمة هناك.. تاركا عمولة مناسبة للوسيط.. منتهى الذكاء من هيكل.. ومنتهى الذكاء أيضا أنه توقف عن بث أحاديثه فى الجزيرة فور أن فقاطعت المصالح.. وتفجرت المتاعب.. وتفرقت السبل بين القاهرة والدوحة.

توقفت أحاديث هيكل فى الجزيرة قبل استكمالها.. فقد وصل فيها إلى حدود «حرب أكتوبر».. وما بعدها.. وفى أعماقه رغبة فى استكمالها بعيدا عن الجزيرة التى لم يعد مقبلا عليها بعد ثورة يونيو.. حين راحت تحرض على مصر وتحبذ إسقاط نظامها الجديد بالعنف.

وقد سعى هيكل لاستكمال عرض ما تبقى من مشوار حياته على شاشة فضائية مصرية.. لكنه.. لم يجد سوى عروض بالحديث فى الشأن الجارى.. بحثا عن إجابة على السؤال الصعب: «مصر أين ومصر إلى أين؟».

لقد قربت العائلة القطرية الحاكمة هيكل منها بعقد الجزيرة الذى يحسب بملايين الجنيهات.. كما فتحت الباب أمامه ليدخل عالم التلفزيون الساحر والمؤثر لجما متحدثا يشد الانتباه.. مسجلا مشواره بالصوت والصورة بوسيلة تضمن البقاء والخلود.

وحسب أصول اللياقة الغربية التى يجيدها هيكل كان لا بد أن يرد الجميل ولو على طريقة شعراء البلاط.. فعندما استضافه فرع «جامعة جورج تاون» فى الدوحة ليلقى محاضرة عن «ثورات الربيع العربى» أعرب فى البداية عن شدة امتنانه لوجود «صاحب السمو أمير قطر (حمد بن خليفة) وصاحبة السمو أميرة قطر (الشيخة موزة بن مسند)» فى الصف الأول.. واعتبر حضورهما «رغم مشاغلهما» أمرا يستحق الشكر.. بجانب وصفه للشيخة موزة بأنها «قائمة على رسالة علم وتنوير».

ولاحظت من الفيديو الذى يصور كلمة هيكل أنه يرتعش فى حضرة الشيخ وزوجته.. لقد قرأنا فى كتاباته عن ملوك وأمراء وحكام العالم الذين يخطبون وده ويشعلون سيجاره ويجرون خلفه.. لكنها المرة الأولى التى نراه فى حضرتهم.. ولم تكن صورته ملائمة.. ولم يكن صوته شامخا.

وفى نفس المحفل العلمى أضاف هيكل: إن «الأمير مشغول بقضايا أمته».. واستطرد: «ومحب لدرجة العشق لمصر».

وتوقفت عند انشغال «الأمير بأمته».. ووجدت فى العبارة تجاوزا من هيكل فى غير موضعه.. فتقديره للرجل فى غير محله.. وإلا شعرنا بالشك فى قدرة هيكل على أن يحكم على الحكام.. أو وجدنا أنفسنا نفكر فى أمور لا تجوز.. نربأ بهيكل عنها.

إننى صدمت عندما قابلت حمد بن خليفة.. بالضبط صدمت.

كنت فى الكويت فى نهاية عام 1996 لمتابعة قمة «مجلس التعاون الخليجي» عندما قابلته فى مقر إقامته فى قصر «بيان».. تصورت أننى سأحظى بحوار صحفى يناسب مساحة الصخب الذى تثيره بلاده بعد أن انقلب على والده.. واستولى على الحكم.. وتمرد على الكبار من حوله.. ليثبت أنه لا يقل أهمية عنهم حتى لو كانت دولته على الخريطة فى حجم رأس الدبوس.. ولكننى وجدت شخصا ساذجا.. ليس فيه من هيبة الملوك والأمراء والشيوخ سوى الحراسة والحاشية التى تنفخ فى صورته وتضاعف من شعوره الضعيف بذاته.

لم أسمع إجابة واحدة مباشرة منه على سؤال طرحته عليه.. كلها عامة.. عائمة.. بل أكثر من ذلك لم يقلها بنفسه.. وإنما قالها نيابة عنه من كانوا حوله.. وكأنهم يخشون بحكم معرفتهم به أن يورطهم فى أزمة.. لو نطق بكلمة.

ولاحظت أنه يدخن نوعا من السجائر القوية (مارلبورو العلبة الحمراء) فسألته:

كيف تجمع بين الرياضة والتدخين؟

وهنا اضطر للإجابة بنفسه.. فالسؤال شخصى.. لن تقبل إجابة غيره عليه.. قال وجسده الضخم يرتج من الشحم الكثيف:

«أرجو أن لا تنشر أننى أدخن حتى لا تكرشنى زوجتى».

عندما نشرت الحوار استعملت من باب اللياقة المهنية جملة «حتى لا تطردنى زوجتى» بدلا من جملة «حتى لا تكرشنى زوجتى».. وتصورت أن الجملة فى النهاية دعابة إنسانية كالتى يلجأ إليها «أهل السلطة» ليثبتوا أنهم مثل باقى البشر.. بسطاء..

يحسبون حساب زوجاتهم.. ولو من باب خفة الظل.. لكننى دون أن أقصد وضعت قلمى على لغم مشحون ببارود سرعان ما انفجر.

لنترك جانبا حملة الشتائم الصحفية التى تعرضت إليها متهما بأننى لا أعرف كيف أخاطب أصحاب القامات والهامات ولا كيف أكتب عنهم إلى ما هو أهم.. إن زوجة حمد.. الشيخة «موزة».. شخصية مسيطرة.. مؤثرة.. قادرة بالفعل على أن «تكرشه».. أو «تطرده» من الحكم.. فقد نجحت فى إقناعه بالتنازل عن العرش إلى ابنها تميم بعد أن أجبرت حمد على تطليق زوجة مغربية مغرية.. وضعها فى فراشه دون استئذانها.

فلا الرجل «مشغول بأمته» كما قال هيكل.. ولا هو يملك مقومات الإنشغال بما يتجاوز فراش غرفة نومه.

أما حكاية «الحب إلى درجة العشق لمصر» فإن هيكل أول من يعرف أنها وهم كبير روج له من باب المجاملة.

ذات يوم سمعت من هيكل أن حمد همس له، وهما فى قصر الحكم فى الدوحة، بما يمكن وصفه «بالسر المخاباراتى الكبير».. أنه قام بتمويل ثورة يناير فى مصر «دعما للديمقراطية».

ولم يسأله هيكل بالقطع عن مفهومه للديمقراطية.. خاصة أنه استولى على السلطة بانقلاب دبره ضد أبيه فور سفره لقضاء شهور الصيف فى أوروبا.. واستغل وجود شيوخ القبائل فى قصره للسلام عليه بعد وداع الأمير الأب والتقطت كاميرات التلفزيون صورهم وهم يصافحونه ليعرض الشريط صورة بلا صوت فى خلفية خبر يشير إلى أنهم يباركون انقلابه.. ويبايعونه أميرا.. على خلاف الحقيقة.. وسحبت الجنسية من قبيلة بأكملها كذبت المشهد.

وبنجاح تلك الخدعة اقتنع الأمير الجديد بأهمية التلفزيون.. فلم يتردد فى أن يخرج للنور قناة الجزيرة.. وأنفق عليها بسخاء.. واعتبر مديرها فى أهمية مدير المخابرات.. بل أكثر أهمية.. فمدير المخابرات لا يستطيع أن يحدثه فى أى وقت.. مدير الجزيرة يستطيع.

لكن.. هيكل نفى للأمير أن تكون أمواله وراء ثورة يناير قائلا: «إن المال الذى أرسله إلى الثوار ذهب فى الغالب إلى سماسرة ووسطاء، لا شأن لهم بتحريك التظاهرات..

أو تمديد الاعتصامات.. أو إشعال الاحتجاجات.. نافيا التهمة عن الشباب الذى قام بالثورة.. مؤكدا أن غالبيته برىء من «تهمة التمويل الخارجى».

على أن تلك القصة تؤكد بشهادة هيكل أن قطر تلقى أموالا فى مصر.. إما لمساندة الإخوان تحت زعم مساندة الديمقراطية أو لتخريب البلاد باسم إعادة الشرعية.. فى حالة غير مسبوقة لم يشأ هيكل تفسيرها رغم أنها ضاغطة وملحة وتحتاج رأيه ومشورته.

وما لا يعرفه هيكل أن شخصية خليجية حاكمة أبلغت مبارك يوم 4 فبراير عام 2011 قبل تنحيه بأيام قليلة أن حقائب قطرية متخمة بالدولارات ستدخل مصر متسللة عبر مطاراتها المختلفة.

وراح وزير الداخلية فى ذلك الوقت اللواء محمود وجدى يراقب ويتابع ويتربص.. لكنه لم يستطع منع الأموال التى قدرت بنحو مليار دولار وذهب نصفها على الأقل للإخوان من التسلل عبر مطار برج العرب.. حسب تقديره واعترافه.. كما سمعت منه مباشرة.

وفسر هيكل تدهور العلاقات بين القاهرة والدوحة بغيرة النساء التى دبت بين سوزان وموزة.. ولم يعترف هيكل بأننى أول من نشرت تلك الحقيقة على لسان عمر سليمان.. لكن الكبرياء المهنى يمنعه من التواضع والتنازل إقرارا لحقيقة أن هناك من سبقه فى نشر خبر جرت وقائعه فى كواليس الحكم التى كان بعيدا عنها.

كان الملك السعودى عبد الله بن عبد العزيز قد توسط بين مبارك وحمد.. واتفق على أن يلتقى الثلاثة فى الرياض لتصفية ما فى النفوس من شوائب.. واتفق على أن ينضم إليهم بشار الأسد فيما بعد.

لكن.. فجأة.. ودون مقدمات.. طلب مبارك من عمر سليمان السفر إلى الرياض والاعتذار للملك عبد الله عن لقاء حمد.. وشعر العاهل السعودى بالحرج.. وطلب أن يأتى مبارك مكتفيا بمصافحة حمد دون نقاش أو عتاب حفاظا على ماء الوجه.. لكن مبارك رفض.. فقرر وزير الخارجية السعودى سعود الفيصل أن لا يضيع وقتا.. واستأذن الملك فى السفر إلى الدوحة لشرح ما حدث لحمد.. وإبلاغه بما جرى.

وعندما سألت عمر سليمان عن السبب قال: «فتش عن المرأة».

فقد كانت كل الجسور النسائية بين سوزان وموزة محترقة.. وفي الوقت نفسه تطايرت شرارة الغيرة التي اشتعلت بينهما وأشعلت النار في باقي الجسور السياسية بين البلدين.. فأحرقتها.

«ولو كان هيكل قد توقف عن أحاديث الجزيرة فإنه على ما يبدو لم يقطع صلته بأصحابها. فقد ذكر في حوار تلفزيوني أجرته معه لميس الحديدي يوم 19 ديسمبر 2013:

إنه لا يخفى أن لديه «صلة صداقة مع أمير قطر والشيخة موزة».

وأضاف: «وأعتقد أنني لن أتغير معهم».

واستطرد: «أنا ناقد لسياسة قطر وقد تكلمت فيها ولم أخف رأيي مطلقا».

«مست العبارة أحزان وأوجاع الكثير ممن سمعوها.. بل وتعجبوا منها.. كيف يظل هيكل بكل تاريخه صديقا لدولة تتآمر على بلاده.. وتهددها.. وتهاجمها.. وتحرض عليها ليل نهار.. وتمول الإرهاب الذي يهدد شعبها وأمنها. كما أنها تؤوي رموز التطرف على أرضها؟. هل يكفي أن يبرر ذلك التواصل مع بيتها الحاكم بأنه «ينتقدها»؟. هل يقبل من كاتب يضعه المصريون في خانة الوطنية مثل هذا التصريح المستفز؟».

لقد أفسدت قطر الحياة السياسية في مصر.. بل وساعدت دون أن تقصد في إزاحة الإخوان من الحكم.

في فبراير 2013 طرح الاتحاد الأوروبي مبادرة لفض الاشتباك بين الإخوان وجبهة الإنقاذ المعارضة بأن تشكل حكومة جديدة برأسها محمد البرادعي وتضم عددا من الوزراء من خارج الجماعة منهم اثنان من حزب الوفد.. بجانب دور مباشر يقوم به عمرو موسى.. وليكن نائب الرئيس للشئون الخارجية ومبعوثه الخاص إلى العالم.. على أن يخرج حمدين صباحي وتياره الشعبي وتوجهه الناصري من المشهد تماما.

كان تنفيذ هذه المبادرة شرطا أساسيا ليقبل صندوق النقد الدولي بمنح مصر القرض الذي تطلبه والذي يصل إلى أربعة مليارات وثمانمائة مليون دولار.. والأهم من القرض أن منحه لمصر يعيد الثقة الائتمانية إليها.

توسط خيرت الشاطر بطريقة غير مباشرة عبر وسيط من رجاله هو الدكتور هشام المحمدى لجس نبض عمرو موسى.. من سخرية السياسة أن الوسيط وهو رجل أعمال غير مشهور كان عضوا سابقا فى الحزب الوطنى وكسب الكثير من بناء مستشفيات اليوم الواحد فى زمن وزير الصحة إسماعيل سلام دون أن نعرف هل كان إخوانيا مندسا؟. أم تغيرت بوصلته بتغير النظام؟

كان على هشام المحمدى أن ينقل شروط عمرو موسى للقاء الشاطر لمناقشة المبادرة.. ولكن.. موسى وافق على اللقاء دون شروط مسبقة.. على أن اللقاء لم يحدث.. فقد تدخلت قطر وقدمت وديعة بثلاثة مليارات دولار.. أغنت الإخوان عن الحاجة لقرض صندوق النقد.. وكان هدفها أن لا يشارك أحد الجماعة فى الحكم.. وتسبب ذلك فى مزيد من حالة الاحتقان السياسى والشعبى.. انتهت بثورة 30 يونيو.

ويتذكر هشام رامز رئيس البنك المركزى أننى التقيت به فى واشنطن شتاء 2013 وكشفت له أسرار المبادرة وتفاصيلها.. مؤكدا أن مهمته فى العاصمة الأمريكية لإقناع صندوق النقد بمنح القرض لن يكتب لها النجاح.. فالشروط السياسية للقرض وأهمها تشكيل حكومة وحدة وطنية لم تتحقق بعد.. وما أن انتهينا من تناول العشاء فى «كافيه ميلانو» بحى جورج تاون حتى انصرف عائدا إلى فندقه ليجهز حقيبة العودة إلى القاهرة.. حاملا من المعلومات ما لم يتح لغيره من أعضاء الوفد المرافق له معرفتها.

وفى تلك الفترة أيضا.. أبدت قطر استعدادها لمساندة السلطة القائمة لو غيرت الحكومة.. بشرط أن يوافق مرسى على اختيار الدكتور نبيل العربى ليكون رئيسا للحكومة الجديدة.

ونبيل العربى هو أمين عام الجامعة العربية.. ساهمت قطر بقوة فى وصوله إلى المنصب.. وقبل ذلك كان مستشارا لها.. وفى الوقت نفسه يرتبط مع هيكل بعلاقة مصاهرة.. فهو زوج شقيقة زوجته.. كما أن ابنته مى متزوجة من أحمد هيكل.

وفى رؤية مبطنة بالسخرية يتعجب هيكل من أن تواجه مصر بحجمها الكبير دولة صغيرة مثل قطر.. مشيرا دون إعلان لثقافة مصرية تحرم تعدى الكبير على الصغير.. وإن كانت فى الوقت نفسه ثقافة تجبر الصغير على احترام الكبير.. لكن هيكل اكتفى بنصف المعادلة فقط.

إن قطر تعانى من عقدة «الحجم الصغير».. بمعناها الجغرافى والسكانى.. ولا نقول الجنسى.. وإن كان فرويد رائد التحليل النفسى لا يرى فارقا فى التصرفات المرضية بين دولة فى حجم النقطة.. وعضو ذكرى فى حجم الأستيكة.. فكل منهما يعوض النقص الذى يعانى منه فى الحجم باستعمال أشياء ترمز للكبر.. سيجار ضخم.. سيارة فارهة.. أو سياسة عنيدة ضد حكومات كبيرة لمجرد إثبات الذات.. وهو ما تفعل قطر.

لقد عوضت قطر ضعف الحجم ببناء قواعد عسكرية أمريكية على حسابها الخاص.. ومدت جسور تحت الأرض وفوقها مع إسرائيل.. ومولت عمليات مخابراتية مشتركة معها.. واشترت شركات ونوادى وجزرًا وبنوكًا ومحلات تجارية شهيرة فى العالم باستثمارات تصل إلى 200 مليار دولار.. لتثبت أنها موجودة على سطح الأخبار.. أكثر من ذلك دفعت مليونى دولار رشوة إلى أعضاء مؤثرين فى الفيفا لاختيار قطر مكانا لكأس العالم بعد عدة سنوات.. وأبدت استعدادها لتكييف الملاعب لتقام البطولة على أرضها.

والأخطر أن قطر مولت بتشجيع من إسرائيل عمليات بريطانيا وفرنسا العسكرية لإسقاط النظام فى ليبيا مما أدى إلى تفتيتها إلى ثلاث دويلات كما حدث فيما بعد مع العراق التى تفتتت إلى ثلاث دول والرابعة فى الطريق.. والسودان الذى انقسم إلى دولتين تمهيدا لانقسامه إلى سبع دول.

وساعدت قطر الإخوان خلال حكمهم لمصر بعد أن اطمأنت إلى أنهم سيهدمون الدولة المركزية ويسرحون الجيش ويقضون على الأجهزة الأمنية ويتركون البلاد عرضة للإرهاب والتفتيت.

حسب ما سمعت من اللواء رأفت شحاتة، مدير المخابرات العامة خلال حكم مرسى: إن جماعته أرسلت شبابا إلى تركيا وقطر للتدريب على أعمال المخابرات تمهيدا لحل الجهاز.. كما أنها أرسلت مجموعة ثالثة إلى ألمانيا للتدريب على تفكيك الأجهزة الأمنية.. وفى كل الأحوال أنفقت قطر على كل هذه البعثات.

إن عقدة الصغر فرضت نفسها من جديد على سياسة قطر تجاه الدول العربية.. ما دامت هى دولة صغيرة بالمولد فليتم لا تتفتت الدول العربية الكبرى مثلها بالمؤامرت التى تمولها من فوائض الغاز الطبيعى؟

والشاهد أنها تأثرت بهذه الفكرة من إسرائيل.. فالدولة الصهيونية هى أيضا دولة صغيرة.. تريد أن تصبح الدول العربية من حولها مثلها.. وفى الوقت نفسه أضعف منها.

وهذا ما يفسر اللعب القطرى والإسرائيلى مع كل المنظمات المسلحة فى اليمن والعراق ومصر والسعودية وغيرها.. وهى سياسة تصب فى النهاية فى صالح إسرائيل.. المتحكم الوحيد فى المنطقة الآن.. حسب ما سنعرف فيما بعد من معلومات مصدرها البنتاجون نفسه.

وحسب ما نشر محمد الباز فى «الفجر» يوم الخميس 12 مارس 2014 فإن طارق حجى كان فى ضيافة حمد وموزة على مائدة طعام.. وسمع من موزة ما يؤكد عقدة الحجم التى تعانى منها بلادها.. قالت:

«لا أعرف لماذا تريد مصر أن تكون الكبيرة علينا طوال الوقت.. لدينا مال أكثر.. ولدينا كفاءات كثيرة.. ولابد أن يكون لنا دور.. وهو ما سنصنعه.. وعلى مصر أن تتخلى عن غرورها.. لأنه لن يفيدها فى شىء».

وحاول طارق حجى أن يفهمها أن مصر كبيرة بتاريخها ودورها وقدرها. لكن موزة لم تقتنع قائلة: «لقد انتهى زمن السمك الكبير الذى يأكل السمك الصغير.. وبدأ عصر السمك الصغير الأكثر سرعة ومهارة وهو ما يمنحه دورا فى تحريك الأحداث ليس فى المنطقة فقط وإنما فى العالم كله».

ولم ينس طارق حجى أن يشير إلى ما يثبت قوة موزة التى تمارسها حتى على زوجها علنا:

«لقد احتدت على حمد بشكل ملحوظ مما أحرج ضيوفهما».

ويتعامل هيكل مع قطر بخفة لا تتناسب مع عمق تحليلاته وربما كان السبب شعوره بالحرج من سوابق التعامل معها.

فقد طالب على سبيل المثال فى حوارتلفزيونى بث يوم 3 يناير 2014: أن نمنح قطر فرصة لمراجعة نفسها.

وأضاف: «وأنا أعتقد أنها مضطرة لمراجعة حساباتها فلا يمكنها الاستمرار فى ذلك».

لكن.. هيكل لم يذكر متى تضطر قطر إلى مراجعة حساباتها؟. بعد سنة.. بعد عشر سنوات.. بعد خراب العالم العربى؟

لقد تدخلت دول مجلس التعاون الخليجى لمد الجسور بين القاهرة والدوحة وقدمت مبادرة من عدة نقاط تخص الطرفين بجانب نقاط أخرى توسع من مساحة المبادرة لتمتد إلى دول عربية أخرى تتدخل قطر فى سياستها الداخلية بدعم منظمات مسلحة تقوض سلطتها وسلطانها.

تلخصت النقاط الخاصة بمصر فى إيقاف تحريض الجزيرة على نظام ما بعد يونيو فى مصر.. والكف عن دعم وتمويل الجماعات الإرهابية وعلى رأسها جماعة الإخوان.. بجانب تسليم الهاربين فى قطر على ذمة قضايا جنائية فى مصر.

أما الشروط التى تمتد إلى دول عربية أخرى فمنها إيقاف دعم جماعة الحوثيين فى اليمن.. وحزب الله فى لبنان.. وجماعات الشيعة فى البحرين والمنطقة الشرقية الغنية بالنفط فى السعودية.

ووافق حاكم قطر الجديد تميم بن حمد على تلك الشروط.. وطلب مهلة شهرين للتنفيذ.. وعندما التقى بوزير الخارجية السعودى سعود الفيصل فى باريس بعد أكثر من شهرين قال له فى نشوة وثقة:

أرأيت.. لقد نفذنا كل ما طلب منا!

وتعجب الوزير السعودى المخضرم من الإجابة.. فقطر لم تلتزم ببند واحد من بنود المبادرة.

لكن.. ما سد الطريق أمام أى أمل فى إعادة قطر إلى صوابها أنها طلبت لتسوية الأمور مع مصر أن يبادر السيسى بزيارتها.

وعلقت دول خليجية على الطلب قائلة: «لو كان القطريون ينظرون إلى مصر -الدولة الكبرى- بتلك النظرة فكيف ينظرون إلينا نحن؟».

وكانت النتيجة أن سحبت السعودية والإمارات والبحرين سفراءها من الدوحة وهددت السعودية بإجراءات إضافية.. مثل منع الطائرات القطرية من التحليق فوق مجالها الجوى بجانب إجراءات حصار أخرى.

إن التحدى الذى لا يستطيع هيكل مواجهته أو قبوله هو أن يخرج بشجاعة ويعلن رأيه فى قطر وسياستها وحكومتها وأسرتها الحاكمة.

لكنه.. لن يفعل ذلك.. فالمصالح تغلب المبادئ.

وهناك من يتصور أن مصالح هيكل مع قطر تتجاوز الجزيرة إلى بيزنس أحد أبنائه معها.. فقد كان أحمد هيكل عبر شركته «القلعة» ممن شاركوا فى مناقصة لاستيراد الغاز القطرى إلى مصر.. وبدا أن أحمد هيكل على وشك الفوز بها.. ولكن.. وزير البترول وقتها المهندس أسامة كمال قرر إعادة النظر فى المناقصة.. وبعدها ألغيت.. وكان رد فعل نظام الحكم الإخوانى.. إقالته.. وجاء وزير بترول آخر إخوانى متحمس لقطر.

وقرب أحمد هيكل رئيس الشركة القابضة للغاز منه المهندس محمد شعيب.. بل.. وعينه فى شركته فى اليوم التالى لخروجه من منصبه.. مستفيدا من قانون المعاش المبكر عند سن 55 عاما.. فى حالة تحتاج إلى فحص وإيضاح.. كيف ينتقل المسئول فى هيئة حكومية بكل ما يملك من معلومات إلى شركة خاصة ويصبح فى خدمتها؟

وعلى خلاف ما يقول هيكل انتقادا لعلاقة الثروة بالسلطة وجدنا تعاونا فى البيزنس بين أبنائه وأبناء مبارك بعيدا عن الصراعات والخلافات الحادة بين الآباء.. وكأن ما يقال من كلمات سياسية براقة لا يمت بصلة للصفقات السمينة.. المغرية.

«لكننى أتجاوز عن ذلك.. من باب أن الآباء لا يجوز محاسبتهم على تصرفات الأبناء.. وإن كنت لا أقبل شخصيا أن تتناقض مصالح عائلتى مع ما أؤمن به من أفكار وما أمشى فيه من طريق».. فلو كنت عاجزا عن إقناع عائلتى بما أدعو إليه من مبادئ.. فكيف اقنع به غيرها فى دائرة أوسع وأعرض؟

وهناك من قال تعليقا على هذا الجزء من المقال: «إن مسئولية هيكل عن أبنائه لا تختلف عن مسئولية جمال عبد الناصر عن أبنائه».. ولكن.. هناك فى الحقيقة أكثر من فرق.. إن لجوء أبناء عبد الناصر للبيزنس حدث بعد رحيله.. ودون استفادة من نفوذه.. أما لجوء أبناء هيكل إلى البيزنس فكان فى حياته وربما باستفادة من نفوذه ولو لم يتدخل فى ذلك مباشرة.. يضاف إلى ذلك أن تبريرات هيكل لما فعل أبناؤه لم تكن حقيقية.. والأفضل فتح فصل خاص فى الكتاب لذلك.

لقد تسامحت فى بيزنس أبناء هيكل وقدمت أعذارا لم اقتنع بها.. لكن.. ما أثار قلقى على هيكل وفجر خلافى معه ذهابه إلى مرسى فى قصر الاتحادية ليقضى ساعات طويلة معه هناك حسب ما قرأت فى الصحف.

كنت قد عرفت من هيكل مباشرة أن الزيارة سبقتها مكالمة تليفونية بينه وبين مرسى استمرت نحو الساعة قبيل سفر مرسى إلى طهران ليلقى كلمة مصر فى مؤتمر عدم الانحياز.. ويسلم قيادة المؤتمر إلى إيران.

وحسب ما قال لى هيكل فإن مرسى هو الذى اتصل به ليهنئه بالعيد فوجدها هيكل فرصة ليلخص له خبرته الطويلة والعميقة بإيران.. وراح يشرح له أهميتها.. وكيفية التعامل معها.. خاصة فى ظل صعود تركيا.. ورغبتها الحادة فى إعادة مجد الإمبراطورية العثمانية.

لكن.. على حد قول هيكل فإنه وجد مرسى «شخصا مسطحا لا يتسم تفكيره بالعمق».. ودلل على رأيه بأن رسم بسيف يده خطا مستقيما بالعرض.. تعبيرا عن السطحية.. ثم رسم بسيف يده خطا متقاطعا بالطول.. تعبيرا عن عدم العمق.

وسألت هيكل فى المقال (والمجتمعات بخير طالما تسأل حسب ما كتب بخط يده): لو كان مرسى مسطحا.. تافها.. ضحلا.. لا يستوعب شيئا مما يسمع.. فلماذا ذهبت إليه؟. ما الذى خرجت به بعد أن تكلمت معه واستمعت إليه؟. هل تحمست لتلك المقابلة حتى تضيف لسجلاتك عن الشخصيات التى عرفتها رئيسا إضافيا؟. هل ينقص السجل بعد عبد الناصر وديجول وخروتشوف وغيرهم رئيسا مثل مرسى؟. هى يشرفك ضمه إلى

سجلك وتعليق صورته معك على جدران مكتبك كما تفعل مع باقى الشخصيات التى التقيت بها؟

ولا أزايد على أحد لو قلت إننى رفضت لقاء مرسى ثلاث مرات.. مرة مع رؤساء التحرير.. ومرة ثانية مع الإعلاميين التلفزيونيين.. ومرة ثالثة بدعوة مباشرة من أحد المقربين من مرسى والمسيطرين عليه.. وقد سعى الرجل إلى مقابلتى متصورا أننى يمكن أن أؤثر فى الصحفيين والإعلاميين الذين عملوا معى من قبل متفضلا بالقول «إنهم تلاميذي».. «ولى كلمة عليهم».

وكان رأيى وكنت صادقا أننى تركت كل من عمل معى يتصرف بحرية كما يشاء.. وهو ما منح كلًا منهم شخصية مختلفة ومستقلة عن الآخرين.. ولو كنت فرضت عليهم نفسى لخرجوا جميعا نسخة مشوهة منى.

وأنهيت قائلا: «لم أضغط على صحفى وهو تحت رئاستى فكيف أضغط عليه وقد أصبح نجما مستقلا يسبح فى فضاء صنعه بنفسه وموهبته؟».

وتقبل الرجل على مضض تفسيرى.. واعتذارى.. لكنه.. لم يحتمل رأيى الصادم فى مرسى وقد أوصلته إلى مسامعه بلا تردد: «إننى أشعر بالعار من وجود مرسى فى الرئاسة».. «أخجل من نفسى وأمتى وبلدى التى وصلت إلى هذا الهوان».

وضغط الرجل على أعصابه كاتما غيظه متسائلا عن الحيثيات التى استندت عليها قبل البوح برأيى؟

قلت: أنت تعلم قبل غيرك بحكم موقعك المتميز فى الجماعة أن مرسى كان آخر شخص جرى التفكير من جانبكم فيه للترشح لمنصب الرئيس.. لم يكن خيرت الشاطر وحده المنافس الذى جرى استبعاده.. كان هناك أيضا أسامة ياسين ومحمد البلتاجى.. لكن.. فضلتم مرسى لأسباب خاصة بكم.. إنه ضعيف.. مريض.. يمكن السيطرة عليه.. فكان ما كان.

وأنهيت كلامى قائلا: «إن رأيكم فيه هو نفس رأيى.. أنه «استبن» لغيره منذ ظهر على سطح الحياة السياسية فى انتخابات برلمان 2005.. ولكن الحياء يمنعكم من الكشف عن ما فى صدوركم».

ونقل الرجل بعد أن فشل فى مهمته ما قلت إلى مرسى فطلب من مدير المخابرات وقتها رأفت شحاتة اعتقالى.. حسب ما سمعت من شحاتة تليفونيا بعد أن أصبح مستشارا أمنيا لرئيس الجمهورية فى أعقاب ثورة 30 يونيو.

كان شحاتة فى أبو ظبى عندما تلقى مكالمة من مرسى يطلب فيها اعتقال ثلاثة وصفهم برأس الفتنة (أنا وعمرو أديب وليس الحديدي) واستشار شحاتة أحد مساعديه فيما طلب منه.. لكن مساعده رفض وقدم لرئيسه مبررات مناسبة وقانونية للرفض.. أبسطها: إن المخابرات العامة جهاز معلومات وليس جهاز قبض واعتقال.

وقبل السعى إلى الاعتقال طلب أسعد شيخة نائب رئيس الديوان ومسئول الملفات الأمنية فى الرئاسة من تلك الأجهزة البحث عن فضيحة «تخرسني» وتهدم سمعة «الفجر» التى هاجمت مرسى على صفحاتها وسخرت منه منذ اليوم الأول لتوليه الحكم.

وكان الرد: «ليس لدينا ما يشين الصحفيين المعارضين.. كما أننا بحكم القانون ليس لنا الحق فى تجاوز دورنا وهو رفع تقارير المعلومات إلى ما هو أبعد».

واقترح وزير العدل وقتها أحمد مكى -وكان على رأس الحضور- اعتقال السياسيين المعارضين لتخويف الإعلاميين المتمردين فقيل له: «أصدر لنا أمرا باعتقال من تريد ونحن ننفذ».. لكنه.. تراجع.. وبقى صامتا إلى نهاية الاجتماع.

والمؤكد أن مرسى لم يستوعب نصائح هيكل التى أفرط فى شرحها.. فلم تمر عدة أيام على زيارة هيكل لقصر الاتحادية حتى حفر مرسى قبره بيده ووقع إعلانه الدستورى الديكتاتورى «المكمل» الذى منحه سلطات مطلقة.. وحرم الطعن عليها.. ومهد الطريق إلى أحداث الاتحادية الدامية.. الأحداث التى كشفت حجم العنف الكامن فى الجماعة.. وشطبت خدعة أنها جماعة سياسية بعيدة عن الإرهاب.

أكثر من ذلك.. جمع مرسى حلفاءه من مختلف التنظيمات الجهادية تحت قبة الصالة المغطاة وأعلن قطع العلاقات مع سوريا.. معلنا الحرب المقدسة على الشيعة.. ضاربا بنصيحة هيكل بالتقارب مع إيران عرض الحائط.. وعكس ذلك الحشد المتشدد أفكاره على الطبقات المتواضعة الثقافة فبدأ مسلسل قتل الشيعة وحرق بيوتهم وسحل جثثهم فى مصر.

وأتصور أن هيكل من القلائل الذين لم يفاجأوا بكل هذا العنف.. فقد عاش مؤامرة تنظيم الإخوان فى عام 1965 لحظة بلحظة.. وكانت المؤامرة تستهدف قتل جمال عبد الناصر.. وتفجير القناطر والسدود.. ونسف المنشآت العامة.. وإغراق مصر فى بحر من الدم قبل الدمع.. فى سيناريو شاهدناه فيما بعد.. عقب 30 يونيو.. «إما أن يحكمونا أو يقتلونا».. «إما نهب مصر أو حرقها».

ولا بد أن هيكل الذى يتمتع بذاكرة قوية تستدعى الأحداث والشخصيات لم ينس أن قائد تنظيم 1965 هو سيد قطب.. مؤسس تيار التكفير والتدمير الذى يسيطر أنصاره مثل محمد بديع وخيرت الشاطر ومحمود حسين على الجماعة الآن.. وقد جند القطبيون الهاربون إلى الولايات المتحدة محمد مرسى فى منتصف الثمانينات أثناء دراسته للدكتوراه.. فهو واحد منهم.. وأداة طيعة بين أيديهم.

ما الذى تصوره هيكل صاحب الخبرات الاستراتيجية العريضة والعميقة فى التحليل السياسى وهو يلتقى تلك القيادة القطبية الإرهابية؟. هل تصور أن فوج الذئاب سيصبح سربا من عصافير الكناريا؟. أم أن شظايا القنبلة ستتحول إلى أوراق قرنفلة؟

والأخطر.. أن هيكل تناسى بمزاجه، على ما يبدو، جملة مرسى الشهيرة التى أثارت غضب الناصريين وأساءت إلى جمال عبد الناصر مباشرة.. جملة: «الستينيات وما أدراك ما الستينيات».. ألم يكن هيكل رمزا للستينيات؟. ألم يكن هو تقريبا الوحيد الحى المؤثر من الستينيات؟. ألم يكن مقصودا بتلك الجملة العدائية المهينة لمرحلة تاريخية شارك هيكل فيها ويعتبرها ونحن معه ذروة الكرامة الوطنية.. والتنمية الحقيقية.. والعدالة الاجتماعية؟. هل نسى هيكل أنه كان على رأس القائمة السوداء للجماعة لعقود وسنوات؟. إن الذاكرة الحديدية أحيانا تكون ذاكرة اختيارية.. مزاجية.

ألم تكن القاهرة فى الستينات العاصمة الثالثة للعالم بعد واشنطن وموسكو لدورها فى التحرر الوطنى وعدم الانحياز حسب شهادة هيكل نفسه؟. ما الذى جعله يتجاوز عن تلك الإهانة الموجهة إليه مباشرة ويذهب ويلتقى بمن قذفها فى وجهه ووجوهنا؟

يضاف إلى ذلك.. أن هيكل فتح بيوته لقيادات الجماعة.. استقبلهم قبل الانتخابات وبعدها.. قبل أن يصلوا إلى السلطة وبعد أن غربت عنهم.. وربما تناول معهم «عيش وملح».. متصورا أنهم مصريون يحرصون على العيش والملح.. ويبكون على من يخونه.

وربما لا يتذكر أحد الآن أن هيكل مد جسوره مع قيادات الإخوان قبل سنوات من ثورة يناير.. فقد دعا الدكتور عصام العريان إلى بيته الريفى فى برقاش ضمن مجموعة من المثقفين والسياسيين المتنوعين لحضور لقاء مفتوح مع الرئيس الإيرانى وقتها محمد خاتمى.

ألم ينتبه هيكل إلى خيانات الإخوان المتكررة لكل من وقف بجانبهم وساندهم وتحمس لهم؟. هل اعتقد أنه مختلف.. سيضعونه بين رموش عيونهم فى مكانة مختلفة مميزة دون أن يمس هو وعائلته بسوء؟. هل هى جاذبية السلطة ولو كانت ملتحية أو متشددة أو متشنجة؟

لقد وقف عدد من السياسيين والإعلاميين والحقوقيين إلى جوار الجماعة فى الانتخابات الرئاسية بدعوى أن مرسى ثورى ومنافسه أحمد شفيق من بقايا نظام مبارك.. واتفقوا مع مرسى على مجموعة من المطالب ينفذها.. وقواعد يمشى عليها.. وعرف ذلك باتفاق «فيرمونت».. على اسم الفندق الذى حدث فيه اللقاء والاتفاق.. لكن.. ما أن وصل مرسى إلى الحكم حتى وضع كل ذلك تحت حذائه.. انتهت «المشاركة» بالمغالبة.. وعض الجانب غير الإخوانى أصابع الندم.. وحاولوا العودة إلى صفوف المعارضة ضد الإخوان.. لكن.. لم يكن من السهل قبولهم مرة أخرى.. أو الثقة فيهم من جديد.

سكب الإخوان القهوة على ثياب الحلفاء.. ولوثوا سمعتهم.. ويمكن القول ولو من باب المبالغة الأدبية أنهم اغتصبوهم.. وألحقوا بهم العار.. فى حالة غدر لم يستوعبها الضحايا.. فانسحب بعضهم بعيدا بعد أن شعر بالفضيحة قبل السذاجة.. وسعى البعض الآخر إلى المبالغة فى الهجوم على الإخوان.. لكن.. لا أحد سمعهم.

ولست أسخر عندما أقول: «إن شرف السياسى أو الإعلامى مثل عود الكبريت لا يشتعل إلا مرة واحدة».. ولا تصلح عملية الترقيع.. مهما كانت متقنة.. ومحكمة.

لماذا لا ينسحب الرجال عندما يسقط المسرح.فوق رؤوسهم؟. لماذا لا يعودون إلى غرف نومهم قبل أن يسمعوا لعنات الناس الحادة تطاردهم فى اليقظة والمنام؟

إن لا أحد مهما كان بارعا مخادعا مناورا يستطيع أن يستأجر بيتا فى كل العصور والأزمنة.. ومهما كانت الصبغات والمساحيق فإن الزمن كفيل بإبراز تجاعيد النفس قبل كرمشة الوجه.

لقد كان ذهاب هيكل إلى مرسى نقطة تحول فارقة فى رؤيتى وتقييمى له وإعجابى به.. لحظة وعى تفرض المحاسبة والمراجعة.. واستندت فى ذلك إلى ما قاله فى أولى سطور كتاب «زيارة جديدة للتاريخ».. حيث حرص من يجد الجرأة على مراجعة المألوف والمعروف.. ومراجعة نفسه.. هو واضع القانون ومشرعه فلماذا لا يطبق عليه؟

هل للكاتب شخصيتان.. شخصية للكتابة وشخصية للعلاقات العامة؟. هل هناك بدلة يلبسها للشغل.. وبدلة أخرى يلبسها للمقابلات الرسمية؟

وأشد ما يؤلم فى واقعة ذهاب هيكل إلى مرسى ما همس به البعض، وإن اختلفنا معه، بأن الزيارة لم تكن خالصة لوجه مصلحة عامة.. وإنما شابتها مصلحة خاصة.. تتعلق بابنه حسن الهارب على ذمة قضية جنائية ينظرها القضاء.. لكنى.. لا أعتقد أن هيكل فاتح مرسى فيها.. بل ولا أتصور أنه لمح إليها من قريب أو بعيد.. فهو رجل يحافظ على كرامته مهما كان الثمن الذى يدفعه.. وإن كان من الصعب عليه أن يكون الثمن حرية أحد أبنائه.. أعز ما يملك.

لكن.. أعتقد أن شبهة المصلحة المباشرة كانت عليها أن تمنعه من الذهاب خشية الضرب تحت الحزام.. كما حدث.

ولم أكن وحدى من محبى هيكل الذى غضب من تصرفاته السياسية المنحازة للإخوان.

كان الدكتور حسام عيسى وهو من مريدى هيكل، ضيفى على الهواء فى برنامج «آخر النهار» فى وقت أعلن فيه هيكل قبل 30 يونيو أنه مستعد للتوسط بين الجماعة وجبهة الإنقاذ بجانب القوى الوطنية الأخرى. فعلق حسام عيسى قائلا: «إنه يرفض هذه الدعوة».. بل أضاف أنه «سيقاطع أحاديث هيكل التلفزيونية».. لن يشاهد المزيد منها.

والمؤكد أن شجاعة حسام عيسى جعلته يصرح بما فى صدره علنا.. وهو ما يتحرج منه كثير من المقربين من هيكل.. فهم لا يريدون إغضابه.. ولا يريدون تعكير صفو العلاقة بينه وبينهم.. وإن كان بعضهم تجرأ وانتقده فى لقاءات محدودة بعيدة عن العيون والكاميرات فى إنذار جديد بالخطر يهدد حب الصفوة الثقافية والصحفية لشيخهم الجليل.

أنا شخصيا كتمت ما شعرت به تجاه مواقف هيكل فى زمن الإخوان ولم أفصح عنه.. لكننى فى الوقت نفسه قاطعت الاتصال به.. ولم أعد أتحمس للجلوس معه.. اكتفيت بموقف سلبى فى محاولة مؤقتة للبحث عن تفسير لا يصل إلى تبرير.. لكننى اتصلت به عندما حرقت مكتبته الأثرية فى برقاش.. كان ذلك استجابة لحضارة المشاطرة فى النكبات.. الحضارة التى ورثناها عن الفراعنة ونحتفظ بها فى جيناتنا.

على أن المشاطرة لم تحد من المفاجأة التى أعلنها هيكل متهما الإخوان بتنفيذ الجريمة.. وهو ما نفاه اثنان من قيادات الجماعة (الدكتور محمد على بشر والدكتور عمرو دراج) ذهبا بتكليف إلى زيارته.. فهل صحيح أنه كان على حق فى اتهامه؟. أم أنه وجدها فرصة للإنسلاخ من ارتباطه بالإخوان متنقلًا من الدفاع عنهم إلى الهجوم عليهم؟

ولم يتوقف أحد ليسأل هيكل: هل آمنت بأن الإخوان لا يثقون فى أحد من خارجهم؟. هل صدقت أنهم يستغلون الشخصيات المؤثرة.. ثم يتخلصون منها؟. هل تيقنت من أنهم لن ينسوا لك مواقفك القديمة ضدهم مهما طال الزمن؟

لقد تصور هيكل بحكم خبرته بخبايا السياسة الأمريكية أن الرهان على الإخوان هو رهان على مستقبل تدعمه وتؤيده وتسانده واشنطن التى تتصور أنها سيدة العالم والمتحكمة فيه.. لكنه.. خسر الرهان.. على أنه لم يتردد فى الانتقال بسرعة مذهلة إلى الجانب المضاد.. وأيد تدخل الجيش لتنفيذ مطالب الشعب الذى خرج يوم 30 يونيو.. انتقال مذهل.. يلفت النظر.. ويكشف عن موهبة مغناطيسية تتجه إلى كل سلطة بقوة الطبيعة.. حدث ذلك فى شهور قليلة.. فهل نثق فى انحيازه الأخير أم نتوقع منه انقلابات وتحولات وانعطافات أخرى ناحية سلطة جديدة مختلفة؟

ما الذى جعل نقطة الماء تفيض عن الكوب الممتلئ بها؟. ما الذى جعلنى أتجاوز صمتى وأفصح عن ما فى صدرى وأهدد علاقتى المتينة بهيكل؟. إنها رحلته الأخيرة إلى بيروت.. فى الشهر الأخير من عام 2013.

لقد التقى هيكل فى بيروت بالسفير السورى هناك على عبد الكريم على وتلقى منه رسالة تقدير من بشار الأسد.. الحاكم الدموى الذى أباد أعدادا يصعب حصرها من شعبه.. هل مثل هذا الرجل يقبل منه تقدير؟.. وهل يحتاج هيكل الذى يرفض التكريم مثل هذه الرسالة المكتوبة بدماء أبرياء لا ذنب لهم سوى أن القدر دفع إليهم برئيس قاتل وذابح ومدمر ولا يشعر بالذنب؟

لست بالقطع مع فصائل القتال المعارضة المنتمية للقاعدة.. لكننى لست أيضا مع استمرار النظام السورى.. هناك طريق ثالث.. نتخلص فيه من الفاشية الدينية والديكتاتورية السياسة.

ولو كان هيكل اعترف بأنه سبق أن توسط بين الولايات المتحدة وإيران فهل تأتى رحلته إلى بيروت للتوسط من جديد بين الدولتين عبر حزب الله بعد أن تغيرت سياسة واشنطن تجاه طهران؟

وهناك من يقول: إن زيارة هيكل وساطة بين القاهرة وطهران كلف بها هيكل وفاتح بها حسن نصر الله الذى التقاه مرتين فى أيام معدودة.. ربما.. لكن.. لو صح ذلك لكنا أمام أسئلة أشد حرجا.

لقد ساندنا حزب الله فى حربه ضد إسرائيل.. ولكنه ساهم مع حماس فى عملية اقتحام السجون وإخراج رجالهما منها.. وخلال ساعات كان سامى شهاب المقبوض عليه على ذمة قضية أمن دولة فى بيروت وسط احتفال بهروبه.. متقلدا من أمين عام الحزب النياشين والقبلات.. ضاربا بالقضية المتهم فيها عرض الحائط.

ويسجل أرشيف الصحف وتسجيلات اليوتيوب تصريحات معادية من نصر الله ضد الجيش المصرى.. وتضمنت تلك التصريحات تحريضا للضباط للانقلاب على قادتهم.

وتضم القضية (رقم 275 لسنة 2013) المتهم فيها مرسى بالتخابر اتصالات بين قيادات الجماعة وعناصر مقاتلة من حزب الله رصدتها المخابرات العامة.. حسب تقريرها المرفوع لقاضى التحقيق فيها.

لقد شارك فى اقتحام السجون ما بين 70 إلى 90 عضوا فى حزب الله جاءوا من قطاع غزة وانضموا إلى عناصر حماس.. كما رصدت اجتماعات بطلب من التنظيم الدولى للإخوان شارك فيها حزب الله والحرس الثورى الإيرانى المرتبط به.. وتكرر ذلك كثيرا.. بما يؤكد توحد التنظيمات الإسلامية المختلفة والمتناقضة عند الضرورة.

يضاف إلى ذلك أن أول خلية إرهابية فجرت خط الغاز الموصل إلى مصانع أسمنت فى وسط سيناء قبل أن يصل إلى إسرائيل والأردن كانت تحت إشراف خبير إيرانى جاء من السودان.

ومن الصعب أن تقبل القاهرة بمد جسورها رغم أهميتها إلى طهران فى الوقت الذى تشعر فيه دول الخليج المساندة والداعمة لمصر ماليا وسياسا ودبلوماسيا بالخطر من إيران.

ولو كان حوار هيكل ومرسى قد انتهى بإعلان «الطبخة» المسمومة فى الإعلان الدستورى المكمل فإن حوار هيكل مع نصر الله انتهى ببيانات إيرانية مستفزة اعتبرت تدخلا فى الشأن المصرى.

وفى حديثه إلى صحيفة «السفير» أعلن هيكل أن السيسى لن يترشح للانتخابات الرئاسية.. وأثار التصريح قلق بعض المقربين من هيكل فخرجوا يرفضون ما قال.. وعبروا عن ذلك فى برامج «التوك شو» الليلية.. فكان أن اتصل بهم شارحا.. ومبررا.. وخرج بتصريح يلقى فيه باللوم على الصحيفة التى فهمت كلامه خطأ.. قائلا: «إن السيسى لن يرشح نفسه وإنما يرشحه الناس».

وهنا أصاب كبد الحقيقة.. فالسيسى وضع شروطا لقبول الترشح.. منها أن يحظى الاستفتاء على الدستور بنسبة إقبال وتصويت مرتفعة.. وأن تخرج الحشود التى خرجت فى 30 يونيو فى 25 يناير (الذكرى الثالثة للثورة) لتطالب به.. أن يصوت الشعب الذى يريده ويطالب به فى الميادين قبل صناديق الانتخاب.

ويمكن القول إن السيسى عنده حق.. فعندما قرر الانحياز إلى الشعب مقصيا الإخوان عن الحكم لم يكن ليهدف إلى الوثوب إلى الرئاسة.. وخشى أن يفهم ترشحه من تلقاء نفسه بأنه فعل ما فعل من أجل منصب أعلى.

لقد أثار هيكل بما قال القلق بين المصريين المتحمسين للسيسى فى وقت تمر فيه البلاد بحالة من عدم الاستقرار لا ينقصها مزيد من البلبلة.. وكثير من الفتنة.

ولم يسكت هيكل بعد كل ما أثاره تصريحه البيروتى فقد عاد ليقول كلاما يشابه الرقص على الحبال.. «إن السيسى حائر».. مثلا.. أو «يعز عليه خلع سترته العسكرية».. مثلا.. أو «هو مرشح الضرورة».. مثلا.. أو متردد.. مثلا.. وأعادت هذه الجمل من جديد حالة الفتنة والبلبلة.

وفى تحليل العالم النفسى الشهير الدكتور أحمد عكاشة فإن «السيسى ليس مترددا».. وإنما هيكل بحكم السن «هو المتردد».

وبمزيد من التفسير أضاف: إن السيسى يتأنى فى اتخاذ قراره.. فالشخصية العسكرية لا تعرف التردد.. لكنها.. تعرف التروى.. وهيكل لا يعرف شيئا عن العسكرية».

واستطرد: «إن الشخص الذكى هو الذى يتخذ القرار بعد تفكير عميق ومدروس أما الغبى فهو الذى يقول إنه على يقين من الأشياء وإنه دائما على صواب».

وحسب رؤيتى للسيسى وقد شاءت الظروف أن ألتقى به أكثر من مرة فإنه رجل متدين بسماحة الصوفيين.. ابن بلد.. تربى فى الجمالية.. يمتلك موهبة تقييم الشخصيات.. لا يتكلم فى موضوع إلا بعد دراسته.. يفيض فى الشرح بأكثر من طريقة.. يعرف كيف ينتقل من النقاش إلى الحسم.. ويؤمن بأن الله سوف ينصره فى النهاية.

وحسب معلوماتى أيضا: فإنه التقى بقيادات مؤثرة وقادرة فى منتصف سبتمبر 2013 ليناقش معهم أمر ترشحه.. وبعد ثلاث ساعات من محاولات الإقناع تلاحقت فيها الشواهد والبراهين على أهمية الطلب فض الرجل الجلسة بجملة قصيرة خاطفة: «إننى لم أقل نعم بعد».. فأعاد الجميع إلى نقطة الصفر.. على أن الحضور اعتبروا النتيجة التى وصلوا إليها إيجابية.. فهو لم يقل «نعم».. لكنه أيضا لم يقل «لا».

والسيسى بحكم طبيعته الشخصية وخبرته فى المخابرات العسكرية لا يكشف بسهولة عما فى أعماقه.. ولا يوحى لمن يتحدثون إليه باتجاه القرار قبل اتخاذه.. لكنه.. «ليس حائرا».. حسب تفسير هيكل.. وإنما يحسب كل صغيرة وكبيرة قبل أن يكشف عن ما فى عقله قبل صدره.

ولو كانت «البدلة» العسكرية تعز عليه قيراطا فإن مصر تعز عليه مائة قيراط.. فقد وضع حياته قبل بدلته على كف الخطر قبل أن يقرر ما فعل فى 3 يوليو.

ولم يكن وصف «مرشح الضرورة» الذى أطلقه هيكل على السيسى وصفا ملائما.. فقد بدا من الوصف بأننا لا نجد غيره.. ومضطرون إليه.. وهذا غير صحيح.. ففى مصر غيره يصلحون لمنصب الرئيس.. لكنه.. قدم العربون قبل أن يتقدم للرئاسة.. تجاوز بما فعل حدود الكلام والوعود والتصريحات.. وأنقذ مصر من مصير مظلم قرر أن يكتم أنفاسها خمسة قرون على الأقل.. كما قال السيسى نفسه.

«إن أخطر ما فى هيكل أن تعبيراته الأدبية تؤخذ على أنها تحليلات سياسية.. كما أنها تقبل اجتهادات متناقضة معها فى وقت لا يحتمل مسك العصا من منتصفها.. وفى مرحلة لا تحتمل اللعب بالألفاظ.. البلاغة الحقيقية فى مثل هذه الظروف الحرجة هى الصراحة».

«لقد كنت أتوقع أن يكون هيكل أكثر حرصا وهو يتناول مثل هذا الموضوع الذى تترقبه مساحات عريضة من الشعب المصرى ترى فى السيسى أملا ورجاء.. بل ولا ترى غيره على الساحة يستحق أن يصعد إلى قمة السلطة والمسئولية».

إن هيكل هو الذى بدا حائرا.. ونقل ذلك إلى مستمعيه ومشاهديه وهم يشكلون حجما لا باس به.. مما جعل بعضهم يقاطع أحاديثه.. والبعض الآخر يسحب منه الثقة.

لقد تعود هيكل ألا يرد على منتقديه.. بل ويزعم أنه لم يقرأ ما كتبوه ضده.. لكننى لا أنتقده.. وإنما أسأله كما تعودت.. فى انتظار الإجابات التى هى حسب ما قال: «اجتهادات بعضها يصل إلى هدفه وبعضها سهام تطيش فى الفضاء».. خاصة أن الزمن تغير.. وأصبح للعالم ذاكرة عريضة.. عميقة.. دائمة.. لا تشيخ.. تسع الجيد والقبيح..

يصعب تجاهلها.. اسمها الإنترنت.. لا ترحم من يسكت عن حقه فى الدفاع عن نفسه.. ويفرط فى توضيح الحقيقة.. ليس فقط لأجيال تعرفه.. وربما تسامحه أو تجامله.. وإنما أيضا لأجيال قادمة.. لا تعرفه ولن تسامحه.

انتهى المقال الأول بعد أن حذفت منه ما يمكن أن يكون تكرارا.. وأضفت إليه ما يمكن أن يكون دعما.. وواضح أن الهدف منه كان السؤال منا.. وطلب إجابة من هيكل.. لكنه.. لم يقبل.. وتصرف بطريقة غير متوقعة فرضت على أن أكتب المقال الثانى وأنشره فى الفجر يوم 6 فبراير.. بعد أربعة أسابيع تقريبا انتظرت فيها ردا وتفسيرا وتبريرا.

3

حكايات وشائعات وخرافات بلا وثائق أو مستندات!

أعترف مسبقا أن المقال الثانى كان أصعب وأشد.

لم يكتف بأسئلة تنتظر إجابات.. وإنما سرد وقائع تثير أسئلة.. وهنا تكمن الصعوبة.

كما أنه رصد أدلة سجلها هيكل بنفسه تؤكد خطأ بعض ما ينشر من معلومات.. وهنا مربط الشدة.

وسوف أسرد المقال.. بنفس القاعدة التى سردت بها المقال الأول.. حذف ما يثير التكرار.. وإضافة ما يدعم الأفكار.

وفى كل الأحوال سيكون هيكل مصدرى وشاهدى.. أخذت منه.. وأعدت إليه.. مستندا على القاعدة الذهبية التى أرساها الدكتور طه حسين: «إن حرية القارئ تبدأ بعد أن تنتهى حرية الكاتب».. والمعنى أن ما أن ننشر ما كتبنا حتى نتقيد به.. وأصبح حق من يقرأ مفتوحا.. بلا حدود.

بدأت المقال بجمل تتحدث عن تصورى للكتابة قائلا:

لم أحم كتاباتى بقميص واقٍ من الرصاص.. ولم أضع فى جيبها بوليصة تأمين ضد الموت اغتيالا.. أو تشهيرا.

رفضت أن تكون الكتابات مضيفة فى مطعم وجبات سريعة تنفذ الطلبات فى انتظار البقشيش.. وآمنت بأن عليها أن تكون امرأة انتحارية تخطف الطائرات من دولة المغفلين لتهبط بها فى دولة المستنيرين.

حشوتها بالأعاصير.. ومسامير القلق.. وسكاكين الأسئلة.. وفرضت عليها كل ما فى رصيدى من علامات استفهام.

وأعترف بأننى تعلمت هذه القواعد من رجل شهدت له بموهبة التعبير.. وبراعة التفكير.. ورغبة التغيير.. هو محمد حسنين هيكل.. تصورت أنه مؤمن بها.. مُصرا عليها.. مستعدا لتنفيذ أحكامها.. لكننى عند أول اختبار وجدت أوهاما تتراقص أمامى.. وأشباحا تسخر منى.. وحقائق توقظنى من غفلتى وغفوتى.

كنت قد صدقته عندما كتب بخط يده عن أهمية السؤال فى حياة المجتمعات طلبا لمعرفة.. أو كشفا لحقيقة.. أو تفتيشا عن مستقبل أفضل.. فرُحت أسأله: لماذا يصر على صداقة العائلة المالكة فى قطر رغم أنه يعرف أكثر من غيره حجم المؤامرات التى تدبرها وتمولها ضد بلاده؟. كيف هاجم نظام مبارك بأشد ما يمكن بينما ولداه أحمد وحسن استفادا منه بأكثر مما نتخيل فى علاقة بيزنس مباشرة مع علاء وجمال مبارك؟. أليست هناك مسافة هائلة بين الصحافة والصرافة؟. كيف جمعت عائلته بين أب ينتقد السلطة وأبناء جمعوا من ورائها الثروة؟

وامتدت الأسئلة إلى مناطق شائكة أخرى.. حماسه لحزب الله رغم تحريض قائده حسن نصر الله على الجيش المصرى.. قبوله لشكر وتقدير وإعجاب من بشار الأسد متناسيا حجم الخراب الذى سببه لبلاده.. سوريا.. وحجم الضحايا الذين سقطوا من شعبه بكل ما فيه من فئات وطوائف.

وتوقفت الأسئلة طويلا عند سر اقترابه المعلن من جماعة الإخوان.. وانتقاله من موقف إلى موقف مضاد.. من دعم الدكتور محمد مرسى إلى تقديم النصائح للمشير عبد الفتاح السيسى.. مكررا نفس القفزة بين جمال عبد الناصر وأنور السادات.. متربصا بمبارك لأنه لم يتجاوز فى علاقته به ما تفرضه الاعتبارات الإنسانية.. سؤال من الرئيس الأسبق عن مرضه.. وعرض بتحمل تكاليف العلاج.. رفضه هيكل شاكرا.. مقدرا.

فرشت أمامه علنا بعض ما فى قلمى من أسئلة وصفتها بأنها حائرة.. وكما توقعت.. لم يجب عليها.. معتمدا على «آفة النسيان».. حسب تشخيص نجيب محفوظ.. معتمدا على أننا «أقدم حضارة وأضعف ذاكرة».. حسب تشخيص صلاح حافظ.. مرتكنا على أننا نهوى صناعة الأصنام من شواهد قبور الرخام.. وأننا شعب عاطفى يسهل التأثير على مشاعره.. ونغير تصوره بما يخالف الحقيقة.. على طريقة «اكذب اكذب حتى يصدق الناس أنك على حق».

والأمثلة حاضرة.. شاخصة.. الفاجر يصبح زاهدا.. المأجور يتقلد الأوسمة الوطنية.. اللص يوصف برجل أعمال.. ومن لم ينجب تلميذا واحدا نمنحه صفة المعلم.. ما أروع الخرافات عندنا.

إن الدعوة لذكر محاسن الموتى ثواب إلا لو كان الميت شخصية أفسدت فى الأرض.. والدعوة لتجنب نقد كبار السن لا تجوز على من يرتكب أخطاء بالقول أو الفعل ندفع ثمنها.. وينجو من عقابها.

ويعرف هيكل أكثر من غيره أن ما كتبت عنه وجد صدى فى أوساط مختلفة.. صفقت.. وشجعت.. وتحمست.. ودعمت بمستندات وملاحظات وحكايات.. وهذا متوقع.. كما تسبب ما كتبت فى جفاء بعض أنصاره إلى حد القطيعة والخصام.. وهذا متوقع أيضا.

لكن غير المتوقع وغير المصدق أن يصل إلى أسماعى أن هيكل رفع شكواه إلى جهات عليا.. عبر وسطاء.. لم يفصح عنها مباشرة.. حفاظا على هيبته.. فى إيحاء منه بأننى جزء من مؤامرة عليه دبرتها أجهزة خفية.. دون أن أسمع سببا وجيها للمؤامرة.. أو أجد مبررا مقنعا لتدبيرها وتنفيذها.

لكننى اعتبرت ما سمعت شائعة ما.. تنال من الرجل أكثر مما تثبت قوة اتصالاته.. كما أن السلطة فى مصر تغيرت.. ولم يعد فى مقدورها الاستجابة لتحريض كاتب على كاتب.. خاصة إذا كان الاثنان وصلا إلى سن التطهر.. حيث تبدأ تصفية الحسابات مع الدنيا.. قبل المثول أمام محكمة الآخرة.

فى سن التطهر تصبح الوطنية نوعا من الصوفية.. الصوفى يعبد الله دون خوف من عقاب.. ودون طمع فى ثواب.. والوطنى يذوب فى تراب بلاده دون خوف من سلطة باطشة.. ودون طمع فى مكانة مغرية.

ويزداد حب الوطن اشتعالا فى القلب عندما نلقى بأنفسنا فى النار لإنقاذه من سرطان يهدده.. أو حوت يبتلعه.. أو تنظيم يسحقه.. وهو ما حدث فى 30 يونيو.. الثورة التى اكتفى هيكل بمشاهدة تظاهراتها من شرفة مكتبه المطل على النيل وهو فى كامل أناقته.

وما أن نخرج حاملين الوطن على ظهورنا بعد انتشاله من الغرق حتى نجد أنفسنا فى حالة من التربص بكل من يقترب منه بسوء.. ولو وقع السوء بحسن نية.. فالطريق إلى جهنم مفروش بنيات طيبة.

ساعتها.. لا نقبل من أحد أن يتكلم بما لا نفهم.. وأن يتصرف بما لا نستوعب.. وأن يتردد بما لا يحسم.

ساعتها سنراه بمنظور آخر.. مهما كان تاريخه.. ونفوذه.. وسلطانه.. وتأثيره.

وذكرنى اتهامى بالمؤامرة على هيكل بما سبق أن سمعت نقلا عن مبارك باشتراكى فى مؤامرة عليه مع هيكل.. لقد تغيرت الظروف.. لكنى.. بقيت بما أكتب متآمرا.

إن الرأى حالة متحركة.. وليس مسمارا مدقوقا فى حائط.. أو تمثالا لا يبرح مكانه.. لكن.. تبقى الحقيقة سيدة كل عصر.. وتاج كل اجتهاد.

والحقيقة أن كثيرا من روايات هيكل المنشورة والمذاعة تفتقد الدقة.. وتتحامل على ما حدث.. وعند تأملها بحيدة سنجدها تكذب نفسها بنفسها.. وكأنها خيال روائى أكثر منها شهادة مراقب.

وقد منعت نفسى من التعرض لكثير من الأمثلة التاريخية القديمة التى وقعت من قبل خشية أن نجد أنفسنا فى صفوف حملات لم نقبلها.. استهدفته فى زمان مبارك.. لكن.. أما وقد عاد الرجل إلى نفوذه وقوته وتأثيره وسطانه فإن من حقنا تفنيد ما يقول ويكتب دون اتهام بتدبير من سلطة.. أو منافسة على شهرة.. فهو نفسه أصبح جزءا من السلطة.. كما أن شهرته يصعب انتقاصها.. ولا نحتاجها.

والشاهد أن كتابه الأخير «مبارك وزمانه.. من المنصة إلى الميدان» كتاب خفيف جدا.. متواضع جدا.. لا يليق به.. وليس فيه من هيكل القديم شىء.. لا من ذهنه.. ولا من توثيقه.. وفى كثير من حكاياته يكاد يكون ثرثرة متكررة لما قاله الناس فى الشوارع وعلى المقاهى وهم يستهلكون وقتهم فى التدخين وشرب الشاى.. ويحمل من الشائعات أكثر مما يحمل من مستندات.. وإذا لم يوافقنى هيكل الرأى أرجو أن يسامحنى عليه.

يروى هيكل فى الكتاب عن صدفة جمعت بينه وبين رجل الأعمال حسين سالم.. «صديق مبارك بالالتصاق».. حسب تعبير هيكل.. التقيا على متن طائرة «سويس أير» المتجهة إلى جنيف ذات يوم من عام 1988.. كان بصحبة حسين سالم زوجته الثانية الشابة.. «زوجة السفر والسياحة».. حسب وصف حسين سالم.

ما لم يقله هيكل أن حسين سالم فى حياته أكثر من زوجة.. نظيمة أم ابنه خالد وابنته ماجدة.. وهالة وكانت سكرتيرته.. وأغلب الظن أنها هى التى كانت معه فى تلك الرحلة.. وقد عاشت معه ثمانى سنوات ثم تنقبت.. ولوسى وهى مصرية من جذور أرمنية.. وأخيرا.. هيرمينا.. وهى مغنية رومانية.. عملت فى ملهى فندق «موفنبيك».. على خليج نعمة فى شرم الشيخ عام 1997 وتزوجها عام 2002 وشيد لها مركزا تجاريا فى بوخارست تكلف نحو مائتى مليون دولار.

استأذن حسين سالم زوجة هيكل السيدة هدايت فى أن يجلس بجوار زوجها مستفيدا من الصدفة التى جمعتهما.. ولأنها تعودت على مثل هذا الطلب استجابت دون تردد.. وراح هيكل معظم ساعات الرحلة يسأل حسين سالم عن مبارك وزوجته.. لكن.. الأسئلة فى معظمها دارت ولفت حول أمور شخصية «مثيرة».. بعيدا عن الخوض فى بحار عميقة.. وصلت إليها علاقة حسين سالم بمبارك.. مثل مشاركة الإسرائيليين فى مشروع «ميدور».. معمل التكرير الضخم الذى كان مقدمة لتصدير الغاز إلى إسرائيل.. بجانب شرم الشيخ التى أصبح عمدتها.. وسمى أهم شوارعها فى منطقة خليج نعمة باسمه.. وكانت المدينة المفضلة لمبارك.. يضاف إلى ذلك حقيقة علاقته بمدير المخابرات وقتها عمر سليمان.

اكتفى هيكل باتهامه بأنه كان يورد ملابس مبارك بترتيب مع بيت أزياء الرجال الإيطالى «بريونى».

ورد الرجل: إن تعامل مبارك مع «بريونى» جاء باقتراح من الشيخ زايد خلال زيارة إلى أبو ظبى وانتهى بتفصيل ثلاثين قطعة للرئيس الأسبق.

وبعيدا عن تلك الرواية فإن «بريوني» على ما يبدو هو مثار جذب لغالبية الشخصيات الحاكمة فى مصر.. فى عصور سياسية مختلفة.

وانتقل هيكل إلى الاتهام الثانى بأن حسين سالم كان يختار هدايا أمراء الخليج إلى قرينة مبارك.

واعترف الرجل بأن أمراء الخليج طلبوا منه أن يرى الهدايا قبل إرسالها حتى لا تكرر «الأطقم».

وقبل أن تهبط الطائرة وجه حسين سالم دعوة عشاء إلى هيكل.. وحسب إضافة هيكل فإنه وجد على مائدة العشاء زجاجة نبيذ مفتوحة.. «لاحظت أنها شاتولارتور 1949 لا يقل ثمنها عن عشرة آلاف دولار وعلقت عابرا عن نوع زجاجة النبيذ.. ثم.. أضفت: إنها خسارة لأنى لا أشرب وللإنصاف فقد رد (حسين سالم) قائلا: ولا أنا ايضا».

توقفت عند هذا الجزء من الرواية.. إذا كان هيكل لا يشرب فلماذا اهتم باستعراض خبرته فى مجال النبيذ.. فقد عرف من الوهلة الأولى أن زجاجة النبيذ «شاتولارتور 1949».. ونجح دون تردد فى تحديد ثمنها بسهولة.. «عشرة آلاف دولار».. والمعروف فى عالم الخمور أن أصعب خبرة.. خبرة النبيذ.. لا يصل إليها أحد إلا بعد طول تجريب واجتهاد.

ربما يكون الرد.. إن هيكل مهتم بالأشياء المترفة.. ويجيد الحديث عنها.. فعندما التقى مبارك واكتشف أنه يدخن السيجار لم يعجبه النوع الذى قدمه إليه الرئيس (روميو وجوليت).. واستأذن فى أن يأتوا إليهما بما ترك من سيجار أفضل فى سيارته.. مضيفا: «إن الشركة التى تنتج سيجار «روميو وجوليت» تنتج أكثر من 75 نوعا بعلامتها وكل نوع مختلف عن الآخر».

لكنه.. هنا يعترف بتدخين السيجار.. وهناك ينفى أنه يشرب الخمر.. دون أن يطلب أحد منه ذلك.. أو يجبره عليه.. لا أحد اتهمه بالشرب حتى يدافع عن نفسه.. وبدا أنه يتعسف فى إقحام القصة دون مبرر ليقرب منه على ما يبدو التيارات الإسلامية المحافظة

التى صعد نجمها فى تلك الفترة.. مزيلا ما قد يقف حائلا بينه وبينها من أمور مختلفة ولو كانت شخصية.. ليس من حق أحد أن يحاسبه عليها.

وعندما تطرق هيكل إلى الفضيحة الأكثر دويا التى نسبت إلى حسين سالم لم يأت بجديد.. والفضيحة معروفة باسم «أنسكو».. اسم الشركة التى تكونت فى الولايات المتحدة من حسين سالم ومنير ثابت ومحمد عبد الحليم أبو غزالة لنقل السلاح الأمريكى الممول من أموال المعونة الأمريكية إلى مصر.

وكان السؤال المهم فى رأيى الذى لم يطرحه هيكل: لماذا سكت الأمريكيون على هذه الشركة قبل فضحها؟

والإجابة: إن الأمريكيين فى البداية تركوا لوكالة مخابراتهم المركزية نصيبا من أرباح الشركة لتمويل عمليات لها لا يسمح القانون الأمريكى بتمويلها فى أمريكا اللاتينية.. ضد منظمات يسارية.. وما أن انتهت تلك المهمة حتى استداروا للشركة واكتشفوا عدم مشروعيتها.. ولم يستطع النظام المصرى أن يكشف عن هذه الحقيقة وتقبل الاتهامات دون دفاع معلن.

ولم يجد هيكل من حسين سالم تفسيرا مناسبا لما حدث بعد أن كشفت الصحف الأمريكية الفضيحة سوى أن الأمريكيين أرادوا ابتزاز السياسة المصرية والسيطرة على مسئولين مصريين.

وأضاف هيكل: «وانتقلت إلى بيع الغاز إلى إسرائيل ولم تكن الاتفاقات الكبرى قد عقدت بعد ولا خط الأنابيب قد امتد مساره عبر سيناء».

ونسب هيكل لحسين سالم أنه قال: «نعم عقدت صفقات غاز لإسرائيل».. وفيما بعد نفى حسين سالم أنه اعترف بذلك.. وكانت حجته أن الحوار بينهما جرى فى عام 1988.. وفى ذلك التاريخ لم يكن موضوع بيع الغاز إلى إسرائيل قيد بحث.. فكيف عقد الرجل صفقات غاز مع إسرائيل؟. وكيف نقلت الشحنات إليها؟

وينهى هيكل فصل حسين سالم فى الكتاب برواية شاعت وقتها دون أن يتوقف الصحفى المخضرم لفحصها.. أن حسين سالم بعد أيام من ثورة يناير أقلع بطائرته

الخاصة من شرم الشيخ ومعه مجموعة من صناديق تحتوى على 450 مليون يورو نقدا وجديدة ولا تزال مغلفة بنفس التغليف الذى صرفت به من البنك المركزى الأوروبى.

وحطت الطائرة فى مطار أبو ظبى ولاحظ مأمور المطار هذه الصناديق وأدرك على الفور أنها أوراق نقد وأخطر بالأمر سلطات مسئولة فى أبو ظبى وصدر قرار بالاتصال بالقاهرة لسؤالها فى الموضوع.

كان مبارك شبه معتزل فى شرم الشيخ لكنه لم يكن قد تخلى عن السلطة بعد.. وجرى الاتصال بنائبه السيد عمر سليمان وأشار النائب بالإفراج عن الرجل.. وعدم إثارة فضيحة فى الوقت الحاضر عن الموضوع لأن الظرف حرج.

وسأل بعض المسئولين فى الإمارات شخصيات مصرية عما يكون التصرف به حيال الموضوع.. وكان من بينهم نائب رئيس الوزراء السابق وزير التجارة والصناعة رشيد محمد رشيد.. وكانت نصيحته وغيره إيداع المبلغ مؤقتا فى البنك المركزى للإمارات والاتصال بالسلطات المصرية للبحث عن الأصل فى هذا الموضوع وكيفية التصرف حياله؟

ورغم أن هيكل استشهد برشيد محمد رشيد فإنه عندما سأله فيما بعد وقت أن التقاه فى عاصمة أوروبية عن صحة الرواية استأذن الرجل حسب اعتراف هيكل نفسه بأن يبقيه خارج هذا الموضوع.. فالشاهد الذى استند إليه هيكل لم يدل بشهادته.. لم يتكلم.

ولو كان الاتصال قد جرى بين مسئولين إماراتيين ونائب الرئيس وهو سلطة عليا فلماذا جرى البحث عن مسئولين أقل لاستشارتهم فى مصير تلك الأموال؟

سألت عمر سليمان قبل رحيله عن الواقعة فنفاها قائلا: «إن حسين سالم كان فى الأقصر يشرف على توسعات فندق موفنبيك الذى يملكه فى جزيرة التمساح عندما قرر السفر خارج مصر.. وفور ركوبه الطائرة اتصل بعائلته فى شرم الشيخ كى تذهب إلى المطار لتلحق به على متن الطائرة.. والطائرة من طراز فالكون 2000 لا تسع لأكثر من 13 راكبا ولا تحمل أكثر من سبع حقائب.. وقد طلب قائدها الإذن بالسفر من سلطات المطار.. فرجعت تلك السلطات إلى رئاسة الجمهورية للحصول على موافقتها قبل منح الإذن.. وبعد نصف ساعة تلقت سلطات المطار الموافقة من مدير مكتب مبارك جمال عبد العزيز».

وبسبب ضيق الطائرة فإن الزوج الثالث لماجدة ابنة حسين سالم لم يجد له مكانا بين من أقلعوا عليها.. كما أن مثل هذه الطائرات مهما كان حجمها ليست مصممة لحمل صناديق بضائع سواء كانت نقودا أو بصلا.. وهيكل يعرف ذلك جيدا.. فكثيرا ما ركب طائرات خاصة.. كما أن ابنه أحمد يمتلك واحدة منها.

وعرفت من مسئول بنكي معروف: أن حمل هذا المبلغ مستحيل فى طائرة صغيرة.. فوزن تلك الملايين لن يقل عن ثلاثة أطنان.. بل.. ربما تزيد إذا ما تذكرنا عملية شهيرة جرى فيها تهريب 210 ملايين دولار من المكسيك.. ونشر وقتها أن وزن الشحنة نحو أربعة أطنان.

وفيما بعد اتهم حسين سالم بعد أن هبط إسبانيا التى يحمل جنسيتها فى قضية غسيل أموال.. فقد وجد فى حسابه بأحد البنوك فى مدريد 27 مليون يورو.. وكشفت القضية لحظة أن ذهب ابنه خالد إلى البنك يسأل عن المال.. وقبض على حسين سالم وخالد وماجدة.. ولم تجد السلطات الإسبانية فى بيته سوى 127 ألف يورو لم تكف لسداد الكفالة المطلوبة (10 ملايين يورو) وبعد ثلاثة شهور فى السجن أفرج عن ماجدة وخالد بكفالة مليون يورو لكل منهما.

وأرسلت السلطات القضائية المصرية المستشار أحمد سعيد (هيئة قضايا الدولة) إلى أسبانيا لتعقب أموال حسين سالم.. ولكن.. بعد ثلاثة شهور لم يتوصل الرجل هو وزميل ذهب معه إلى شىء.

لا أدافع بالقطع عن حسين سالم.. فقد كنت الوحيد فى الصحافة المصرية الذى نشر عقد تصدير الغاز إلى إسرائيل الذى تولته شركته (شركة غاز شرق المتوسط).. كما نشرت قضية استيلائه على جزيرة التمساح فى الأقصر.

وطلب عمر سليمان أن يرانى.. وفى جلسة مسائية فى مكتبه قال لى: إن حسين سالم رجل أعمال «وطنى» مثله مثل غيره من رجال الأعمال لا يزيد ربحه فى كل عملية عن 15 %.

وأضاف: إن تصدير الغاز إلى إسرائيل جزء من خطة أكبر لتأمين حدود مصر.. فعندما تعتمد إسرائيل على الغاز المصرى فإننا نضمن سيطرة ما عليها.. تجنبنا كثيرا من المتاعب على الخطوط الفاصلة بيننا وبينها.

وعندما قابلت حسين سالم فى منتدى ديفوس الذى عقد فى شرم الشيخ رفضت أن يقدم لى أى تسهيلات فى الإقامة أو التنقلات.. كما رفضت أكثر من دعوة لتناول الطعام معه.

تكلمت عنه فى عز قوته وسلطانه واتصالاته.. وفضحته حين سكت الجميع بمن فيهم هيكل.. وكشفت ما كان يفعل فى وقت كان هناك من يتناول معه طعام العشاء فى أغلى فنادق جنيف.. وتفتح له زجاجة نبيذ بعشرة آلاف جنيه.. بل أكثر من ذلك كان الناصريون الذين أعتز بهم ينشرون له إعلانات تهنئة فى ذكرى ثورة يوليو.

إنها البطولات المؤجلة.. حيث يكون الحديث فى وقت يكون فيه الخصم عاجزا عن الرد.. بما يشبه وصول سيارة إسعاف بعد وفاة المريض.. أو فتح خراطيم سيارة إطفاء حريق بعد أن تكون النيران قد التهمت كل شىء.. كما أن لا أحد يأخذ ثواب الحج لو ذهب إلى الأراضى المقدسة بعد الموعد الشرعى.

ومن جانبه دافع حسين سالم عن نفسه قائلا: «إنه لو كان يعلم أن هيكل على متن الطائرة السويسرية لأخذ غيرها».

وأضاف: «إن هيكل يكره مبارك ونظر إليه على أنه فلاح بسيط سقط من السماء على عرش مصر».

واستطرد: «ومن جانبه شعر هيكل بالخطر من مبارك بالتهديد طوال الوقت حتى لا يفكر فى الكتابة عنه أو عن عائلته.. ونجح مبارك فى ذلك طيلة ثلاثين عاما.. ويرجع خوف هيكل من مبارك إلى علمه أن مبارك قد يصل فى غضبه إلى حد الهمجية».

وتوقع حسين سالم أن يكتب هيكل عنه «أقوى من ذلك».. «ولكننى فوجئت به يتحدث عن النبيذ والأزياء».. «مما يعنى أنه ليس لديه معلومات ثقيلة عنى».

لقد نشر هيكل كثيرا من الشائعات متخليا عن طريقته المدققة فى الفحص والتوثيق.. ومنح تلك الشائعات حصانة لا تستحقها.. ولو وضع عليها اسمه وخاتمه وتوقيعه .

فى يوم 23 مايو عام 2011 جلس هيكل أمام المستشار خالد سليم فى جهاز الكسب غير المشروع للتحقيق معه فيما نشر لبيب السباعى على لسانه فى الأهرام.. «أن ثروة مبارك تتراوح ما بين 9 و 11 مليار دولار».. ولم يستطع هيكل أن يثبت ما قال.. وراح يتحدث عن تقارير ومصادر خارجية دون أن يقدم نسخة منها.. وكاد المحقق أن يأمر بحبسه بتهمة نشر معلومات كاذبة لولا تدخل جهات عليا من القوات المسلحة.

إن تلك الجهات وعلى رأسها المشير حسين طنطاوى خشيت مما وصفته بـ «انتقام هيكل».. متحسبة مما فعل بالسادات فى كتاب «خريف الغضب».. حيث نشر عرضه.. وأباح سيرته.. وخلط بين العام والخاص فى حياته.

وما دعا طنطاوى للحذر من هيكل وصف هيكل لشرم الشيخ حين ذهب مبارك للإقامة فيها بعد تنحيه بالبؤرة، مما تسبب فى نقل حالة الغضب إليها.

ومما يسجله التحقيق الذى لم يزد عن ورقتين أن المستشار خالد سليم قال له باستنكار لا يخلو من الدهشة: «بسمعتك وكيانك واسمك كيف تستقى معلومات من وكالات أنباء وتذكرها على مسئوليتك فى تلك الظروف الصعبة؟».. فألقى هيكل اللوم بالمسئولية على «الأهرام» التى اتهمها بتضخيم تصريحاته والعبث بها.

وحسب معلوماتى فإن «الأهرام» عرضت الحوار على هيكل ليراجعه ويقره قبل النشر.. فهو يخشى من التعبير عن ما يقول خطأ.. خاصة أن التداخلات والتشابكات فى أحاديثه يصعب صياغتها أحيانا.. وهذه مشكلة أصحاب الثقافات العريضة المتنوعة ومنهم هيكل.. تأخذه الدروب الفرعية أحيانا بعيدا عن نهر الحديث.

وقد سبق أن حقق مع هيكل فى نفس المكان أيام السادات وقت أن كان المكان يشغله المدعى العام الاشتراكى.. وهو منصب اخترعه السادات لينال من خصومه سياسيا إذا ما فشل فى عقابهم جنائيا.. وكانت القضية الملحة التى دفعته إلى ذلك الاختراع.. قضية التخلص من رجال جمال عبد الناصر فى 15 مايو 1971.. فبعد أن برأتهم النيابة العامة من تهمة التآمر وقلب نظام الحكم لم يجد سوى المدعى الاشتراكى ليلقى بهم فى السجن.

وسكت هيكل وقت أن كان مقربا من السادات عن ذلك الكيان الغريب الذى أقحم دون سند إلى الهيئات القضائية.. لكنه.. فيما بعد.. وجد نفسه متهما أمامه اتهامات سياسية.. تفتش فى ضمير كلماته.. ومقاصد أفكاره.. وكأنه فى إحدى محاكم عصور الظلام الأوروبية.. واستمر التحقيق ثلاثة شهور.. يونيو ويوليو وأغسطس عام 1978.. وحرم هيكل من البرنامج الصيفى الذى تعود أن يقضيه بين مدن أوروبية وشواطئ مصرية.

فى الأيام التى تلت ثورة يناير ضاعف هيكل من عدد الجسور الممدودة بينه وبين تنظيم الإخوان.. وتعددت لقاءاته مع قيادات التنظيم فى برقاش.. وتناول معهم الطعام.. وشرب معهم الشاى والقهوة والقرفة والجنزبيل وعصير البرتقال.. متجنبا بطبيعة الحال الحديث عن خبرته فى النبيذ.. وربما تكلم عن خبرته فى الشيح البابونى.

كان عمر سليمان قد التقى قيادات من الإخوان فى 3 فبراير قبل رحيل مبارك عن الحكم بثمانية أيام.. واتفق الطرفان معا على انسحاب حشود الجماعة من الميادين مقابل القبول بتشكيل حزب سياسى للجماعة.

لكن.. هيكل انزعج.. واستدعى رموزا إخوانية قائلا: «لو انسحبتم من الميادين فإن مبارك سيشم نفسه ويعلق ألفا منكم فى نفس الميادين».

تحالف هيكل مع الجماعة بوضوح ودون تردد.. متصورا أنهم أقرب إليه من مبارك والمؤسسة العسكرية وباقى التيارات السياسية المدنية التى ينتسب إليها ويعبر عنها.. أحيانا.

كشف عن هذه الواقعة القيادى الإخوانى السابق خالد الزعفرانى.. كان الرجل ضيفا على برنامجى «آخر النهار» متحدثا فى مستقبل الجماعة بعد 30 يونيو.. وفى الفاصل الإعلانى قال أمام ضيفىّ الآخرين أحمد بهاء الدين شعبان وناصر عبد الحميد (وهما من قيادات ثورة يناير) ما قال.. وعندما اتصلت به فيما بعد طالبا المزيد من التفاصيل لم يتردد فى الاستجابة.

قال: إنه كان جالسا وسط قيادات إخوانية فى الإسكندرية أبلغهم مدحت الحداد (أمين حزب الحرية والعدالة فى الإسكندرية وشقيق عصام وهشام الحداد ويمتلك شركة

لتنظيم المعارض) فى بيته بحى جناكليس بنصيحة هيكل «المخلصة».. وكان بين الحضور عبد اللطيف آدم.. وهو ينتمى إلى تنظيم سيد قطب.. التنظيم الذى سعى إلى تفجير مصر وتخريبها عام 1965.. وقت أن كان هيكل أبرز مسئولى نظامها.

وحسب نفس الشهادة فإن هيكل كان متوترا وضاغطا إلى حد أن شعر من سمعوه بأنه كان أشد منهم عنفا فى إزاحة مبارك.. وكأن بينه وبين مبارك ثأرا شخصيا.. يبتعد كثيرا عن الخلاف السياسى المعلن من جانب هيكل.

لقد ارتكب مبارك جرائم سياسية كسرت ظهر مصر طوال سنوات حكمه.. وبقيت عائقا ومانعا يسد الطريق لتجاوز أزمانها.. لعل أبرزها سحق الكفاءات والإجهاز عليها.. تدمير الحياة الحزبية تاركا سرطان الإخوان يستشرى فى جسدها.. منشغلا بأغنياء نهبوا ثروات الفقراء.. فكانوا رصيدا للعنف والإرهاب فيما بعد.

ولكنه.. ظل محافظا على مدنية الدولة ولو تركها فى حالة يرثى لها.. وإن كان من الممكن بعد كثير من الإجراءات استرداد عافيتها.. أما الإخوان فقد خططوا لتغيير طبيعة الدولة.. والعودة بها إلى عصور الظلام.. بجانب مخططات خارجية أخرى لم تعد خافية على أحد.

ولو كان من الصعب على عاقل يستوعب طبيعة مصر الحضارية أن يقبل بالخراب الذى ألحقه مبارك بالدولة المدنية فإن الأشد صعوبة أن يقبل هيكل بالدولة الدينية التى سعى إليها الإخوان.

لكن.. هيكل.. على ما يبدو.. لم يكن يهمه سوى هيكل.. أن يصفى حساباته مع مبارك.. ويزيحه.. وينتصر عليه.. ولو.. تحالف مع الإخوان.. وساندهم.. وأرشدهم.. ونصحهم.. ووقف بكل خبراته إلى جانبهم.. هل يمكن تصور ذلك؟. هل يمكن قبوله؟. هل يمكن أن يكون ثمن خصومة بين صحفى وحاكم تدمير أمة.. وإلغاء دولة.. ونسف جسور الاتصال بالعصر؟

لقد واصل هيكل دعمه المفتوح للجماعة.. واستقبل مرشحها الرئاسى محمد مرسى.. وظل على اتصال به.. مما يبرر ذهابه إليه بعد فوزه فى قصر الاتحادية.. بل

إن هيكل بعد سقوط حكم مرسى فى 3 يوليو استقبل الدكتور محمد على بشر الذى تولى وزارة التنمية المحلية فى آخر حكومة إخوانية، والدكتور عمرو دراج وزير التعاون الدولى فى نفس الحكومة، ليستمع منهما إلى مبادرة الجماعة للتوافق مع السلطة الجديدة التى تحكم مصر.. وأسعد هيكل الإعلان عنها.

والنصيحة الغالية التى يجب أن يوجهها إلى هيكل المقربون منه والمؤمنون به والمقلدون له أن يكف عن الكلام.. فكلما تكلم كشف نفسه بنفسه.. وأشار دون ضغط من أحد إلى تناقضاته.. وتقلباته.. وانقلاباته.. خاصة أن ما تبقى من الزمن لن يمنحه فرصة جديدة للتراجع والتصحيح.. كما حدث كثيرا من قبل.

فى يوم الجمعة 3 يناير تحدث هيكل تلفزيونيا إلى لميس الحديدى عن استخدام الولايات المتحدة للإسلام فى محاربة الشيوعية خلال سنوات الحرب الباردة.. أشار هيكل إلى تقرير قدمه وزير الخارجية الأمريكية الأسبق جون فوستر دالاس إلى رئيسه فى البيت الأبيض دويت إيزنهاور محذرا من غارتين قادمتين على الرأسمالية.. غارة إسلامية.. وغارة شيوعية.. وكان الحل المناسب ضربهما ببعضهما البعض.

ويقفز هيكل من دالاس إلى السادات.. ويقول: بعد شهرين أو ثلاثة من رئاسته راح السادات يحكى عن خطته وخطوطه للمستقبل فى اجتماع جرى فى استراحة القناطر حضرته زوجته جيهان.

واستطرد هيكل:

إن السادات قال فى ذلك الاجتماع: «إن الإسلام ليس حليفا للشيوعية وليس عدوا بالضرورة لأمريكا.. «سياستى شىء آخر فأنا أرى أن لا حاجة إلى الاتحاد السوفيتى الآن ونهائيا وأنه لا يمكن الاعتماد عليه فى الحرب (ضد إسرائيل) لكن أنا أمامى أمريكا ستخرج فى الأغلب منتصرة فى الحرب الباردة.. وستقود العالم فى الأغلب.. وأريد أن يكون لنا علاقات معها».

وتساءل السادات: لماذا اكتسبت إسرائيل أمريكا فى صفها بهذا الشكل؟ وأجاب: «لأن أمريكا بحاجة إلى صديق يضبط إيقاع المنطقة فلجأت إلى إسرائيل».

وأضاف: «جمال عبد الناصر ناكف الأمريكان زيادة عن اللزوم ونحن لو قدمنا من حسن النية ما يجعلنا نحل محل إسرائيل تجاه أمريكا.. سنجعل أمريكا فى غير حاجة إلى إسرائيل».

«واستطرد: وأريد أن أحل محل السعودية فى العالم العربى.. نحن نستطيع أن نضمن البترول فى المنطقة بعلاقاتنا مع العالم العربى شريطة ألا تكون السعودية هى الحامية للدين».

وواصل هيكل حديثه: إن استخدام السادات للدين كان ضمن أشياء أخرى كثيرة ومهمة.. وكان رأيه أنه لا بد من عمل حلف أو تهدئة مع الإخوان المسلمين.. وهنا ساعده عثمان أحمد عثمان.. خصوصًا أنه فى «المقاولون العرب» كان وكيل (الجماعة) الدائم عبد المجيد حلمى.. وكان وقتها هو المرشد الخفى للجماعة فى فترات المحنة.

وأضاف: وعقد (السادات) وقتها اجتماعا قال فيه: «نريد صلحا مع الإخوان المسلمين والعداء السابق (معها) لا داعى له».

ويمكن القول إن السادات توصل إلى نظرية دالاس رغم أنه لم يطلع عليها.. استخدام الإسلام لمواجهة الشيوعية والتنظيمات اليسارية.. بما فيها العناصر الناصرية الباقية لديه (لدى السادات).

وما أثار الدهشة أن السادات من باب الخداع الذى اشتهر به لم يتردد فى وصف عبد الناصر بالأستاذ والمعلم.. مضيفا فى ذكرى أربعين وفاته: «إنه كان إلهاما لأمته وظل بعد رحيله إلهاما لها».

ووصل فى ذروة النفاق السياسى عندما قال: «وشأن القادة فى مراحل التطور الحاسم عبر مسار التاريخ لا تضيع مبادئهم بذهابهم ولكن تزداد قوة.. ولا تسقط أعلامهم برحيلهم ولكن تزداد علوا.. ولا ينفض الناس بعدهم وإنما يزدادون تضامنا واقترابا لأن إحساسهم بأهمية المبدأ يزداد بعد ابتعاد القائد الذى كان وجوده فى حد ذاته تجسيدا لهذا المبدأ».

وليس من الصعب تحسس كلمات هيكل فى خطاب السادات.. وليس من الصعب إدراك أن الكلمات التى كتبت ونطقت لم تكن نابعة من نفسيهما.. وإنما مجرد كلمات تموت لحظة ميلادها.

وبعيدا عن ذلك التناقض المؤلم.. نتوقف لوضع الحقائق فى سياقها المناسب لنصل إلى أخطر ما وقع فيه هيكل:

1 - إن السادات فكر فى التحالف مع الإخوان بعد شهرين أو ثلاثة شهور فقط من توليه السلطة.. أى فى شهر ديسمبر 1970 و يناير 1971.

2 - أنه قرر استخدامهم فى الحرب على الشيوعية والتنظيمات اليسارية بما فيها التنظيمات الناصرية.

3 - أنه قرر فى ذلك الوقت المبكر أن يتخلص من رجال عبد الناصر.. بل ويتخلص من كل ما يمت لسلفه بصلة.. يطرد السوفيت ويذهب إلى الأمريكان.. يضرب اليسار لحساب اليمين.. يتقرب من الأثرياء لدعم الفقراء.

4 - إن هيكل عرف بخطته.. وساهم فى تنفيذها.. بل وكان بطلها الأول.

لقد ظل هيكل يفخر بأنه «مهندس» 15 مايو 1971.. انقلاب السادات على رجال عبد الناصر.. والإطاحة بهم.. وسجنهم.. ووصفهم بمراكز القوى.. وكان هيكل فى صراع مع بعضهم فى سنوات حكم عبد الناصر الأخيرة.. مثل على صبرى الذى شعر هيكل أن بقاءه حرا يعنى القضاء عليه مباشرة.. فلم يتردد فى شن الحرب عليه دون أن يأخذ فى الاعتبار أن دعمه للسادات سينتهى بتدمير التجربة الناصرية.. لكن.. ذلك لا يهم.. فالمهم أن يبقى على القمة.. ولو كانت قمة فوق تلال الخراب.

وقد مهد هيكل للانقلاب بمقال نشره فى 6 نوفمبر 1970.. فى ذكرى أربعين عبد الناصر بعنوان «عبد الناصر ليس أسطورة».. كان بمثابة لكمة شديدة وجهت للزعيم الذى ساهم فى شهرته.. ولا نقول صناعته.. وكان تبرير هيكل: «خشيت من استغلال المستغلين لأغراضهم لقصة البطل فيه والرمز وعبرت عن مخاوفى من تحويل تراثه إلى كهنوت غيبى جامد بينما هو فى الحقيقة تجربة إنسانية زاخرة قابلة للحياة والنمو».

لكن.. ذلك التبرير جاء متأخرا فى مقدمة كتابه «لمصر لا لعبد الناصر» الذى نشره بعد أن أخرجه السادات من «الأهرام» وأبعده عنه.. فحاول أن ينسب إلى السادات مسئولية الهجوم على عبد الناصر مع أن هيكل هو الذى أطلق الرصاصة الأولى على عبد الناصر.

بل.. أكثر من ذلك شن هيكل حملة على رجال عبد الناصر يتهمهم فيها بالخرافة عندما نشر أنهم يستشيرون عبد الناصر عبر جلسات تحضير الأرواح.. تشكيكا فى قدراتهم.. ورجما لمواقفهم.. وعربونا للتفاهم مع السادات.

لقد كان هيكل يزهو بكونه أقرب رجل إلى عبد الناصر وأنه ساهم فى صياغة أفكاره وتوجهاته ومبادئه فى «فلسفة الثورة» و«الميثاق الوطنى» و«بيان 30 مارس» فلماذا قبل المشاركة فى الكفر بكل ما آمن به وانحاز إلى خصوم عبد الناصر وساهم فى ضرب تجربته؟

والأسوأ أنه لا يزال يبكى عليه.. فهل ينطبق عليه المثل القائل: «يقتل القتيل ويمشى فى جنازته»؟

إن شهادة هيكل عن مخططات السادات ضد الناصريين وتقريب الإخوان شهادة صادمة.. ولو جاءت متأخرة.. شهادة تؤكد مسئولية هيكل عن كل ما جرى فى مصر منذ مايو 1971 إلى يناير 2011.. فقد امتد عهد الردة أربعين سنة كاملة.

ما فائدة تأليف عشرات الكتب والمقالات وتضييع ملايين من الدقائق فى حوارات تتحدث عن وطنية عبد الناصر وسلامة تجربته وعبقرية استراتيجيته من كاتب شارك فى هدم ذلك كله؟

لو كان هيكل قد خرج من دائرة السلطة فور علمه بمخططات السادات لحصل على شهادة تبرئة من المشاركة فى أكبر جريمة تاريخية حاقت بمصر فى القرن العشرين.. لكنه.. لم يفعل.. بل أكثر منه أنه خاض المعركة مع السادات ناصحا.. مساندا.. مؤيدا.. مروجا.. متحمسا.. ولم ينقلب على السادات إلا بعد أن أبعده عن نعيم السلطة.. ومصادر القوة.

فى كتاباته حاسب هيكل الجميع على أخطائهم.. لكنه لم يتوقف دقيقة واحدة ليحاسب نفسه.. والمؤكد أن اعترافه الأخير يدينه تاريخيا وسياسيا.. فقد شارك عن علم ومعرفة فى تنفيذ كل ما خطط له السادات.. وما نعانى من تداعياته الآن.

كيف تتناقض أقوال كاتب مع أفعاله محدثا كل هذه الفجوة العميقة؟. هل دفاعه عن عبد الناصر نوع من التكفير عن ذنب المشاركة فيما ارتكب ضد عهده؟. ألم يكن من الأجدى ألا يشارك فى تلك الجريمة بدلا من البكاء على الأطلال فور أن تخلى السادات عنه بعد أن استنفد غرضه منه؟

لقد اخفقت «مجموعة مايو» فى التصدى لانقلاب السادات رغم كشفها نواياه.. لكنها.. لم تشارك فى نسف تجربة الزعيم الذى آمنت به.. قبلت بالسجن ولم تقبل بتفكيك الثورة.. لم تزرع فى رأس السادات أفكارا من عينة «تحييد أمريكا».. و«الحرب المحدودة».. و«صعوبة العبور».. تلك الأفكار التى روج لها هيكل ترجمة لمخطط السادات.

إن شهادة هيكل الأخيرة المسجلة بالصوت والصورة تلقى بظلال كثيفة من الشكوك حول الأدوار السياسية التى لعبها.. وتحدد بوضوح من الذى استفاد منها؟. وكيف انتهت بنا إلى المتاهات التى نعانى منها حاليا.

وتعليقا على هذا الجزء الفاضح فى مقالى المنشور عن هيكل أرسل الدكتور كمال خلف الطويل رسالة على بريدى الإلكترونى يعلق فيها بمعلومات أجهلها.. وبتحليلات أصدقها.

والدكتور الطويل طبيب أشعة عمل وعاش فى الولايات المتحدة.. سورى من أصل فلسطينى.. قومى عربى ناصرى.. «عضو المؤتمر القومى العربي».. مؤرخ.. يتمتع بذاكرة قوية.

قال فى رسالته الإكترونية: إنه أرسل إلى هيكل طالبا منه إيضاحا حول ما قال فى حديثه مع ليس الحديدى عن خطة السادات للخروج عن خط عبد الناصر.

ويضيف: «إن من مصلحة هيكل أن يرد ويوضح».. فهناك اعتقاد خاطئ أنه اختلف مع السادات فى خريف عام 1973.. وهو أمر غير منطقى.. فالنقاط التى ادعى أنها كانت سبب الخلاف كان هيكل شاهدا وباصما عليها منذ أن جاء السادات إلى الحكم.

فى ديسمبر الماضى وخلال زيارة هيكل الأخيرة لبيروت استضافه الصحفى اللبنانى المعروف طلال سلمان فى صالونه وكان الدكتور كمال خلف الطويل بين الحضور فقال هيكل عنه: «هو اللى بيصححلى وما أقدرش أجادله».

ويضيف الرجل فى رسالته: «لكن.. التاريخ الذى يحمله (هيكل) على ظهره لا يترك أمام المسكونين بالتاريخ إلا أن ينبشوه بأزاميل التحرى والتقصى.. بأمانة البحث وحدب الباحث».

وسأكتفى بهذا الجزء من الرسالة مؤجلا ما تبقى منها عند عرض موضوع آخر يتصل بهيكل سأتعرض له فيما بعد.

وحسب ما عرفت فإن هيكل فى جلسة صافية بينه وبين سامى شرف جرت على شاطئ بيته الصيفى فى قرية الرواد عام 1996 قال:

«آسف يا سامى ما تزعلش منى (يقصد ما فعل به وبباقى رجال عبد الناصر فى مايو 1971) لكن.. إذا التاريخ عاد من جديد.. سأقف نفس الموقف مرة أخرى».

ولم يسأله سامى شرف عن جدوى الأسف لو تكرر الموقف؟

وهناك من يعتقد بأن كراهية هيكل لرجال عبد الناصر ومساهمته فى التخلص منهم سببها ما يمكن تسميته بعقدة المخابرات.. إن سامى شرف وشعرواى جمعة ومحمد فائق خدموا جميعا فى المخابرات العامة.. بل إن بعضهم ساهم فى تأسيسها.. وكان هيكل يخشى أن يكون تحت مراقبتها.. لكن.. دون أن يفصح عن السبب.. تاركا لغيره هذه المهمة.

ويعترف هيكل بهذه العقدة.. فقد قال فى حواره التلفزيونى مع لميس الحديدى يوم الجمعة 27 ديسمبر 2013: «سأتحدث بصراحة: أنا خائف من أن وكالتنا (المخابراتية) المخصصة للعمل فى الخارج تحولت كلها للعمل فى الداخل».

وسبق أن نفى هيكل أن تكون المخابرات العامة قد نجحت فى عملية واحدة داخل إسرائيل.. مستكملا شعوره بالقلق من الجهاز.. وتطلب ذلك الرد عليه.. فخرج ضابط المخابرات السابق سامح سيف اليزل إلى شاشة التلفزيون ومعه كتاب إسرائيلى يثبت أن أهم ثلاثة عمليات نفذت ضد إسرائيل وفى قلبها قامت بها المخابرات المصرية.

إن هيكل ينجذب تلقائيا إلى قوة السلطة مهما كانت طبيعتها.. ملكية.. جمهورية.. إسلامية.. ناصرية.. ساداتية.. عسكرية.. إخوانية.. مدنية.. يذهب إليها عارضا خدماته ونصائحه ومواهبه فى صياغة ما تريد.. لا يهمه من فيها.. فكل عدو سابق هو بالمصلحة صديق لاحق.. وكل صديق حالى هو بانتفاء المصلحة عدو لاحق.

يتقرب هيكل من السلطة القائمة.. يصبح جزءا منها.. يستفيد من اندماجه فيها.. فإذا ما غربت أو أقصته انقلب عليها.. واستفاد من جديد من معارضتها.. حالة نادرة للبراجماتية الخالصة جعلته موجودا فى كل العصور.. قادرا على البقاء فى كل الأزمنة.

إن لا أحد سوى هيكل سكن بيت الحكم فى مصر أكثر من ستين سنة رغم تغير وكيل البيت.. الرئيس الذى يحكم ويدير باسم الشعب.

هيكل فى الحقيقة لا يعمل إلا لحساب هيكل.. دون تورط فى أيديولوجية.. أو انحياز لطريق بعينه.

ومنذ سنوات طوال أعلن استئذانه فى الانصراف.. لكنه.. لم ينصرف.. كل ما حدث أنه كف عن كتابة المقالات واكتفى بأحاديث الصحف والقنوات.

بل إنه تحايل على كتابة المقالات بكتابة الخطابات المفتوحة للصحف أو لمحرريها.. وهى مع التحايل نوع من المقالات.

إن الانصراف يعنى الاختفاء.. أو الغياب عن المشهد.. لكن.. المذهل أنه ظل حاضرا.. قائما.. وشاخصا.. بل وقابضا.

تحدث عن الانصراف.. لكنه فى الواقع أصبح أكثر حضورا.. فقد ترك مقالات الصحف المحدودة بقيود عدم الانتشار.. وتفرغ لأحاديث التلفزيون بكل ما فى تلك الوسيلة من شعبية واسعة بسبب الأمية.. كما أن كثيرًا من الصحف كانت تنشر فى اليوم التالى ما قال ليلتها على الشاشة.. فكسب جمهور الكلمة المطبوعة بعد أن شد انتباه الصورة المرئية.

وغالبا ما يبدو هيكل مترفعا عن الحديث.. بحجة أنه لا يريد شيئا.. فتاريخه وراءه.. وزهده أمامه.. لكن.. رغم ذلك لا يكف عن الحديث.. ويبرر ذلك بأنه مستعد أن يفيد بخبرته من يريدها.. فلن يبخل بها على أحد.

لقد أخذ الكثير دون أن يُشعر أحدًا بالطمع.. وظل على خشبة المسرح دون أن يوحى بأنه سعى إليها.

لقد قال بعد ثورة يناير: إنه لم يكن يريد أن يفتح فمه ويتكلم.. مضيفا: لقد «قلت ما فيه الكفاية».. لكنه.. استطرد فاتحا الباب مرة أخرى: «أو هكذا أعتقد».

وأضاف: «ولم أكن اريد لأحد من جيلى وربما جيل آخر بعدنا أن يفتح فمه هو الآخر وأن يتكلم فقد قالوا ما فيه الكفاية وزيادة.. كان من واجبنا جميعا أن نسكت وأن نتابع حوار التاريخ الجارى الآن فى مصر وهو حوار فى واقع الأمر بين طرفين: طرف يمثل الطموح وطرف يمثل القدرة».. وقصد بالطرف الأول جيل الشباب.. وقصد بالطرف الثانى القوات المسلحة.

لكن.. الرجل الذى لم يرد أن «يفتح فمه» لأنه قال «بما فيه الكفاية» تكلم بكثافة لم يتكلم بها من قبل.. وأفرط فى أحاديث كان يقيدها من قبل.. لقد تحدث عن السكوت الذى يجب فرضه على جيله بعد أن تكلم كثيرا ولم يفد إلا قليلا.. لكنه لم يتوقف عن الثرثرة.. فى حالة من الازدواجية بين تبرير الفعل بالقول اشتهر بها منذ سنوات بعيدة.

ولو لم يجد هيكل فى سلطة ما دسما أو شحما أو خيرا فإنه لا يتردد فى أن يقلب الحقائق للنيل منها.. ليظهر فى صورة البطل المعارض.. وبقدرته الفائقة على التعبير ينجح دائما فيما يريد.

والحقيقة أن هيكل بعد غياب ثلاثين سنة فترة حكم مبارك عن السلطة اشتاق إليها.. لقد أفقده الغياب عنها الكثير من التميز.. فلم يعد ينفرد بالحصول على الوثائق والخبايا.. ولم يعد يطلع على الخبر قبل نشره.. فتراجع إقبال الناشرين الدوليين على كتاباته وكتبه.. ولم يعد أمامه سوى السوق المحلى.

ويفسر ذلك ذهاب هيكل إلى مرسى والسيسى رغم تناقض الرجلين.. فهيكل يبحث عن سلطة دون وضع اشتراطات مسبقة قبل الذهاب إليها.

ولو كانت كتبه الأخيرة بنفس قيمة كتبه القديمة لتُرجمت.. ولو إلى لغة أجنبية واحدة.. غير اللغة العربية.

بل.. إن كتبه الأخيرة لا تزيد عن تجميع لحوارات صحفية أو تلفزيونية سبق أن أدلى بها.. قدمها بسرعة وخفة كما أوضحت من قبل.. وكما سأوضح فيما بعد.

جمعتنى رحلة سفر مع محمد عبد السلام المحجوب.. رجل المخابرات البارع الذى واصل بخبرته صعوده فى الجهاز حتى وصل إلى رئاسة هيئة الخدمة السرية.. الهيئة المسئولة عن العمليات الخارجية وتجنيد العملاء ووضعهم تحت سيطرته.. وتختلف هذه الهيئة عن هيئة الأمن القومى المسئولة فى الجهاز عن مواجهة نشاط التجسس الخارجى فى الداخل.

ظللت طوال ساعات السفر صامتا إلا قليلا أستمع منه لكثير من رواياته عن ما قام به من عمليات خطرة دون أن يكشف ما عليه كتمانه.. ودون أن أخفى انبهارى ليس فقط بما قال وإنما لقدرته المذهلة على كتمان ما أنجز لوطنه دون تجارة أو دعاية.. دون مكسب أو مغنم.. ولو قورن بما فعل غيره لدخل فى زمرة الأولياء والقديسين.

ولعلها فرصة أن نعرف من أسرار الرجل ما خفى عنا قبل أن نرصد مبرر إقحام هيكل طرفا فيها.

لقد كان المحجوب ملحقا شابا فى عمان عندما تلقى برقية مشفرة من جمال عبد الناصر يطالبه فيها بإحضار ياسر عرفات إلى القاهرة لحضور القمة الطارئة التى عقدت على أثر القتال الشرس الذى دار بين قوات المقاومة الفلسطينية والجيش الأردنى فيما يعرف بأحداث أيلول الأسود.. فى سبتمبر 1970.. قبيل رحيل عبد الناصر بأيام قليلة.

كانت القمة قد اختارت ثلاث شخصيات عربية (سعد العبد الله ولى عهد الكويت والباهى الأدهم رئيس وزراء تونس وجعفر نميرى رئيس السودان) للسفر إلى عمان والتفاوض مع ملكها لتهدئة الأمور.

فى ذلك الوقت قام المحجوب بنقل عرفات إلى بيت آمن (سيف هاوس) داخل حدود مبنى المكتب الثقافى المصرى.. ودعا المحجوب وفد الجامعة العربية لمقابلة أبو عمار بحجة زيارة المحجوب فى المكتب الثقافى.. وهناك.. طلب المحجوب من عرفات التخلص من

ملابسه المميزة التى اشتهر بها فى ذلك «الحطة» أوغطاء الرأس الفلسطينى- ونزع عنه مسدسه ليرتدى أبو عمار ملابس تشبه الملابس الخليجية.. واستأذن سعد العبد الله فى «غطرته».. وعندما نقلت السيارة الوفد إلى المطار لم يلحظ أحد أن من بين رجاله كان يمشى عرفات الذى صعد إلى الطائرة ووصل القاهرة وشارك فى القمة وسط ذهول الجميع الذين فوجئوا بأنه يدخل عليهم.. ولكن.. بعد أن استرد مسدسه وغطاء رأسه الفلسطينى.

لم يكن من السهل تقبل المخابرات الأردنية لما فعل المحجوب فاعتبره الملك حسين شخصا غير مرغوب فيه.. وغادر المحجوب عمان مع زوجته وطفلتيه بالسيارة إلى سوريا.. وفى الطريق تلقى اتصالا من شخصية مخابراتية شهيرة سمع منها أنه مرحب به فى الأردن دائما.. لكن.. كزائر فقط.. وأضاف: «ولو كان جلالة الملك فى عمان لقام بوداعك بنفسه».

هنا سألت المحجوب: هل يتعرض ضابط المخابرات للانتقام بعد قيامه بعمليه ناجحة ولو بعد حين؟

وكان مبرر السؤال ليس فقط ما حدث فى عمان ولكن الأهم ما حدث فى ميونخ.. وللتذكرة.. فإن الفلسطينيين هاجموا فرقًا رياضية إسرائيلية كانت تشارك فى دورة ألعاب فى ميونخ.. وأشير من بعيد إلى دور للمحجوب.. ومن هنا كان السؤال.

أجاب: إن هناك اتفاق «جنتلمان» بين أجهزة المخابرات المختلفة ولو كانت متصارعة بعدم تعريض ضباطها إلى تصفيات أو اغتيالات بسبب عملهم.. فلو فتح هذا الباب فلن نجد ضابط مخابرات واحدًا على قيد الحياة.

وسألته: هل بالخبرة أو بالغريزة يشم ضابط المخابرات منافسيه من ضباط مخابرات الأجهزة الأخرى؟

أجاب: بالتأكيد.

وروى أنه كان مرافقا للسادات فى رحلة إلى ألمانيا عندما التقى فى لوبى الفندق برجل من البرازيل عرف على الفور أنه رجل مخابرات.. لقد جاء مكلفا من المخابرات الأمريكية ليتابع الرحلة تحت غطاء جنسيته البعيدة عن الشك.. وهو أمر معتاد بين الأجهزة التى تتعاون مع بعضها البعض.

وفى نفس الفندق التقى المحجوب بتاجر سلاح ألمانى من أصل تركى سبق أن سمحوا له بتصوير السفارة السوفيتية فى القاهرة مقابل تسليمه وثيقة تؤكد أن ألمانيا ستمنح إسرائيل مليار فرنك بينما لن تعطى مصر سوى 250 مليون فرنك.. وحمل المحجوب الوثيقة إلى السادات.. وفى المفاوضات وضع السادات الوثيقة على المائدة المشتركة مع الألمان.. وخرج من الباب وقد حصل على 750 مليون فرنك.. ثلاثة أضعاف ما كان مقررا.

وامتدت رحلة السادات من ألمانيا إلى إيطاليا.. وقبل أن يهبط المحجوب إلى روما شاهد فى صحيفة إيطالية تصدر بالإنجليزية تصفحها فى الطائرة صورة للمهبط الذى ستنزل عليه طائرة السادات.. وكشفت الصورة عن ثغرات فى المكان المحاط بمساحات شاسعة من الخضرة يمكن منها «التنشين» على السادات وهو يغادر الطائرة.. وبعد التنبيه على السلطات المضيفة تغير مكان الهبوط.

ولعب المحجوب دورا مؤثرا فى قضايا عرفها المصريون عبر الدراما التلفزيونية.. مثل قضية رأفت الهجان.. وقضية جمعة الشوان.. وهنا يذكر بالفضل ضابط مخابرات أكبر وأهم هو محمد نسيم.

ونأتى إلى قضية مفصلية فجرت جدلًا لم يتنه حتى الآن.. قضية أشرف مروان.

لقد كنت أول من فجر هذه القضية فى الصحافة العربية فى «صوت الأمة» وقت أن كنت رئيسا لتحريرها.. واستندت إلى ما نشر عنها فى الخارج بداية من بريطانيا نهاية بإسرائيل مرورا بالولايات المتحدة.. وفشلت فى لقاء استمر ساعتين مع أشرف مروان جرى فى مكتبه بالقرب من بيت مبارك أن أقنعه بأن يتكلم.

ظل يراوغ عارضا على مستندات حصل عليها من الأرشيف القومى فى واشنطن فى محاولة بائسة لإبعادى بإغراء المستندات التى تكشف عن جوانب خفية فى العلاقات المصرية الإسرائيلية ولكنه فشل.

كما أنه ودون مبرر أضاف: «ألم يتهموا صديقك هيكل بالعمل مع المخابرات الأمريكية؟ هل صدقت ذلك؟».

أجبت: «لم أصدق.. ثم إن هيكل ليس موضوعنا.. موضوعنا التهمة التى تفجرت فى وجهك من الإسرائيليين.. وهو أمر يحتاج منك إلى توضيح».

وما أن شعر بأن الخناق يضيق عليه حتى قال: «إن ما نشر عن عملي مع الموساد قصة بوليسية رديئة ورخيصة».

وراحت الوثائق الإسرائيلية تطعن في وطنية الرجل إلى حد أنني بت مقتنعا بأنه كان جاسوسا خالصا للموساد.. خاصة أن المحكمة العليا في إسرائيل أقرت ذلك.. في حكم واضح.. انتهى بعد أسابيع قليلة بوفاة مروان سقوطا من شرفة بيته في لندن.. وأثارت الواقعة لبسا بين انتحاره أو اغتياله؟. وراحت الاجتهادات تتوالى دون حسم.. وهذه طبيعة مثل هذه الجرائم.

والأخطر.. أننا لم نجد من الجانب المصري من يبرئه أو يدافع عنه إلا بيانا من مبارك يتحدث عن خدمات قدمها مروان لوطنه.. دون أن يذكر متى قدم بالتحديد هذه الخدمات؟. قبل أو بعد تجنيده لخدمة الموساد؟

وسألت هيكل مباشرة عن تصوره.. وكان أميل إلى الشك في مروان بما يجنح إلى إدانته.

ودعم ذلك أن منى عبد الناصر ذهبت إلى سامي شرف تطلب منه شهادة بأن والدها كان على علم بتجنيد الموساد لزوجها.. وعندما رفض سامي شرف طلبها تصرفت معه بما لا يليق.

وما ضاعف من قناعتي بالإدانة أن مروان لم يكن ليتردد في اللجوء إلى القضاء عند أول إهانة توجه إليه ولو كانت عابرة من عضو في مجلس إدارة رابطة الجالية المصرية في لندن فكيف يسكت على تهمة بكل هذا الثقل التعويض فيها يكون بالملايين؟

ومن جانبي.. كنت مستعدا لتغيير وجهة نظري لو وجدت ما يفندها.. ويرد عليها.. فليس بيني وبين الرجل ما يدفعني إلى التعسف في اتهامه رغم أنه لم يكن فوق مستوى الشبهات منذ أن انحاز إلى السادات بعد انقلاب مايو إلى أن تورط في تجارة السلاح مرورا بوصف «الطفل المعجزة» الذي أطلق عليه.

سألت المحجوب عن مروان ففاجأني بما يشبه الصدمة:

«لقد تعرض أشرف مروان إلى ظلم في تهمة العمالة للموساد دون أن يجد من ينصفه».

سكتّ غير مصدق!

أضاف المحجوب:

«الإسرائيليون حاولوا تجنيده أيام عبد الناصر ولكن عبد الناصر رفض.. وعندما اقترب مروان من السادات تكرر العرض الإسرائيلي ووافق السادات.. يعني.. عمله مع الموساد كان بعلم رئيس الدولة».

قلت: «لكن.. الإسرائيليون يقولون إن تجنيده بدأ في عام 1968.. قبل رحيل عبد الناصر».

قال: «الأدق أنهم عرضوا عليه العمل معهم في ذلك الوقت ولكن عبد الناصر رفض أن يكون زوج ابنته عميلا مزدوجا».

قلت: والسادات وافق؟

قال: نعم.

سألت: لماذا؟

قال: كان كل هم السادات تضليل الإسرائيليين.. فيما يعرف بخطة الخداع الاستراتيجي.. خاصة في تحديد ساعة صفر الحرب.. فقد أبلغ مروان الموساد بأن موعد الحرب في السادسة مساء يوم 6 أكتوبر.. ولكنها بدأت في الثانية ظهرا.. كان السادات في حاجة لتلك الساعات الستة ما بين إعلان الحرب وتعبئة الاحتياط في إسرائيل لضمان العبور بنجاح.

قلت: لكن.. السادسة مساء كان الموعد الأصلي للحرب ثم جرى تعديله إلى الثانية ظهرا.

قال: هذا صحيح.. لكن.. مع السادات كان كل شيء قابلًا للتعديل.

ويعترف المحجوب بأنه هو من قام بتدريب وتشغيل مروان.. لكن.. ليست هناك كما أضاف وثائق في المخابرات المصرية أو في رئاسة الجمهورية تدل على ذلك.

إن شهادة المحجوب.. الشهادة الوحيدة التي تسند أشرف مروان.. وتثبت أنه لم يكن جاسوسا خالصا وإنما عميل مزدوج «دبل إيجنت».. وأنا أسجل هذه الشهادة وأنشرها

لأول مرة رغم أنها تعارض كل ما تصورت.. على أن الحقيقة المجردة عندى تعلو فوق كل حسابات أو شبهات.

وأضاف المحجوب: لقد عرفت اسم ضابط التشغيل الذى كان مسئولا عن أشرف مروان من أحد أصدقائى فى المخابرات المركزية.. اسم الضابط الإسرائيلى هو راف إيتان.

وفيما بعد.. قابل المحجوب مروان صدفة فى لوبى فندق شيراتون الجزيرة.. فندق سوفتيل حاليا.. ساعتها نصحه بأن يكف عن تجارة السلاح حتى لا يلقى مصير على شفيق فى لندن.. ولكنه.. على ما يبدو كان متورطا فى تلك التجارة حتى الموت.

فى كتابه الأخير تناول هيكل «مسألة أشرف مروان».. واستند مثلى على وثائق جهات خارجية.. لكن.. لا أعرف هل سأل هيكل المحجوب عن تلك القضية أم تغافلها؟. هل أقر المحجوب لهيكل بما سمعت منه وتجاهل هيكل شهادة المحجوب أم لم يتصور أن المحجوب كان طرفا مباشرا فى المسألة.. وتلك الأسئلة سببها أن هيكل سأل المحجوب فى عملية مخابرات أخرى.. سمعها منه بالتفصيل.. وإن كنت فى النهاية لا أتصور أن الحوار الممتد بينهما فى مكتب هيكل لم يتطرق إلى حقيقة قضية مروان.

كان رأى هيكل فى قضية مروان كما كتب: «إن كرامة البلد وسمعة أشرف مروان نفسه تتطلب تحقيقا رسميا مصريا فى الموضوع بواسطة هيئة رفيعة المستوى تضم عناصر قضائية وبرلمانية على أن تمثل فيها المخابرات العسكرية والمخابرات العامة فى مصر وظنى أنه بدون ذلك لا تستقيم الأمور».. وكان عند هيكل كل الحق فيما اقترح.

على أن هيكل على ما يبدو اهتم بقضية مروان ليستخدمها من جانب آخر فى طعن مبارك.. فحسب ما كتب فإنه التقى مروان فى لندن الغائب عن مصر أكثر من سنة ونصف السنة.. وقال له:

أنت لم تأت إلى القاهرة طوال هذه المدة ولا أعرف إذا كنت ممنوعا من المجيء لها بطلب من مبارك الذى نصحك بالسفر منها أثناء لقاء معه فى ضريح عبد الناصر؟

وكان رد فعل مروان عنيفا:

هو (مبارك) لم يطلب منى أن أسافر كما يشيعون فى القاهرة وهو لا يستطيع أن يمنعنى.

وسأله هيكل:

ولماذا لا يستطيع.. ألا يملك سلطة؟

هو لا يملك أى سلطة وهو لا يستطيع.. أقولها لك لأنه يعرف أنى أستطيع أن أدمره.

ولم يقل مروان كيف يستطيع أن يدمر مبارك.. ولم يسأله هيكل.. بل إن هيكل ظل محتفظا بتلك الرواية لم يهمس بها إلى أحد حتى نشرها بعد رحيل مبارك عن الحكم ورحيل مروان عن الحياة.. فى حالة إضافية من حالات البطولة المؤجلة.. ولم تخل القصة بالقطع من الإيحاء بعلاقة ما خفية بين مبارك ومروان فى دائرة تجارة السلاح.. فما الذى يستطيع به مروان تدمير مبارك سوى تلك التجارة؟

ونأتى إلى القصة التى سأل فيها هيكل المحجوب عن تفصيلها قبل نشرها فى الكتاب.

لقد وضعت خطة لغزو إيران شاركت فيها أجهزة مخابرات عربية مع جماعات إيرانية لاجئة فى باريس بعضها تابع لآخر رئيس وزراء فى عهد الشاه وهو شاهبور بختيار ومعهم جماعة مشايعة للأميرة أشرف.. الشقيقة التوأم للشاه.

كانت الخطة تحديد مكان ما على ساحل عمان يجرى منه غزو إيران.. وسافر المحجوب إلى عمان وقصد شواطئها الشمالية للرصد والاستطلاع وتحديد أصلح نقطة للغزو.. لكنه.. بعد أن درس كل شىء توصل إلى أن تنفيذ الخطة مستحيل لأنه ليس هناك على الجانب الإيرانى استعدادات كتلك التى تتحدث عنها «جماعة باريس».

وصدرت الأوامر إلى المحجوب بالسفر إلى واشنطن ليلتقى بخبراء وكالة المخابرات المركزية «بغرض التنسيق وتذليل العقبات».

وبالفعل حضر المحجوب اجتماعات فى الوكالة رأسها مدير الوكالة بنفسه.. وهناك أبدى المحجوب شكوكه فى نجاح العملية.

وسأله مدير الوكالة: «هل اعتراضك على العملية سياسى أم فنى؟».

فأجاب المحجوب بما يؤكد أن العملية ليست لديها فرصة للنجاح على الأرض.. فليس على الشاطئ الإيرانى من ينتظر من الرجال القادمين للمساعدة ولا السلاح المكدس للقتال وليست لدى قبائل بختيار نية للمشاركة.

هذا هو ملخص العملية كما رواها هيكل على لسان المحجوب.. لكن.. هيكل أضاف إليها: «وكتب عبد السلام المحجوب تقريره وكان الرد نقله محافظا للإسكندرية».

لكن.. ذلك حسب ما سمعت من المحجوب فيما بعد لم يكن صحيحا.. فهو لم يترك مكانه فى الخدمة السرية بسبب تقريره الفنى الذى يؤكد فشل العملية.. بل على العكس حصل على ترقية أعلى.. أما تركه للخدمة فهو أمر معتاد تفرضه طبيعة الجهاز وقواعد العمل فيه عند وصول قياداتها إلى سن التقاعد.. خاصة أن مبارك لم يكن قد أوصى بطلب من عمر سليمان تعديل قانون المخابرات بما يسمح ببقاء بعض القيادات فى الخدمة بعد سن المعاش.

لقد أراد هيكل الانتقام من مبارك ولو على حساب الحقيقة.. كما أن هيكل لم يتحرّ الدقة فيما جرى للمحجوب.. فهو لم ينقل محافظا للإسكندرية بل عين محافظا للإسماعيلية قبل أن يتولى المسئولية فى الإسكندرية.

ولو شاء الطعن فى مبارك فإن الواقعة المناسبة واقعة نقل المحجوب من الإسكندرية رغم نجاحه فيها إلى وزارة التنمية المحلية وهى وزارة بلا اختصاصات واضحة.

لقد رفض المحجوب هدم مستشفى الشاطبى تنفيذا لرغبة سوزان مبارك لاستخدام أرضه فى إنشاء مبان ملحقة بمكتبة الإسكندرية.. وهو ما أثار غضب السيدة الأولى فلم يهدأ لها بال إلا بعد إخراجه من الإسكندرية.

وكانت هناك واقعة أخرى أشد.. أن المحجوب رفض تزوير الانتخابات البرلمانية فى عام 2005.. وهدد مدير مباحث أمن الدولة فى الإسكندرية بأنه لو تدخل بالتزوير فإنه سيكشف الجريمة عبر وسائل الإعلام.

وأتصور أن الواقعتين كانتا السبب فى نقله من الإسكندرية.. لكن.. هيكل كان متعجلا فى التنشين على مبارك برصاصات صوت بينما بالقرب منه رصاصات قاتلة.

تعرضت فى المقال الثانى بعد ذلك إلى القضايا الجنائية التى اتهم فيها أحمد وحسن هيكل مستندا إلى وثائق قضائية يصعب الطعن فيها.. وأتصور أن المساحة العريضة التى يتيحها الكتاب تسمح لنا بعرض هذا الجزء فى فصل مستقل.. عارضا المستندات.. وشارحا المبررات.

أنهيت المقال قائلا:

«لست أقصد بما كتبت الطعن فى هيكل.. ولا أن أنال منه.. بل العكس.. أردت أن يراجع نفسه.. ويحتفظ دون مساس بما حقق من مكاسب أدبية وغيرها.. دون أن يفتح فيها بنفسه ثغرات صعب سدها.. فربما لا يمنحه الزمن -كما قلت- فرصة أخرى.

وربما جرأة منى أن اتطوع بذلك.. لكننى أخشى أن يجد من يستمع إلى هيكل.. ويأخذ بنصائحه التى لم يستفد منها سواه.. ودفعت مصر فيها ثمنا غاليا.. لا تقدر أن تدفع المزيد منه فى ظروفها الحالية.. فنحن نمشى على سلك رفيع معلق فى الهواء.. لن يوصلنا إلى بر الأمان إلا بأفكار متطورة.. تنفض عن نفسها ما علق بها من تجارب سيئة تسبب فيها الكبار.. حسب القاعدة الإدارية الشهيرة: إن من كان سببا فى المشكلة لا يمكن أن يكون جزءا من الحل.

بصراحة أكثر أخشى أن تقع قيادة ما بعد 30 يونيو فى براثن هيكل.. وتؤثر بسحره.. لتجد نفسها بعد طول تجارب مع هيكل تكرر نفس الأخطاء التى وقع فيها من سبقوها.

وربما.. وجهت لنا تلك القيادة اللوم بعد أن تقع الفأس فى الرأس قائلة: إننا السبب.. فنحن نحب هيكل.. ولم نتعرض له من قبل بالنقد.. وأنها على هذا الأساس قربته واستمعت لنصائحه.. وربما أضافت: أننا لم نحذرها فى الوقت المناسب.. أو نضئ لها إشارة حمراء واحدة.. ولو من بعيد.

لقد ضحيت بعلاقتى بهيكل من أجل أن ننقذ الوطن مما قد يصيبه.. كان من الممكن أن أسكت.. وأواصل حياتى بسلام.. دون اتهامات.. لكننى أعرف أن الثمن الباهظ الذى دفع فى إزاحة الإخوان لا يزال يدفع.. ولست مستعدا مهما نالنى من أذى أن تترك

الأمور لنصائح قديمة فى وقت نحتاج فيه إلى ابتكارات متجددة ربما تنجينا مما نحن فيه.

ولا يعنى ذلك أننى أفرض وصاية على أحد.. فلست أملك سوى كلمات قد تصيب أو قد تطيش.. لست أملك سوى رأيى.. أما القرار فهو ملك غيرى.. يتحمل مسئوليته وتبعاته اليوم أو بعد ألف سنة.

فى مسرحيات شكسبير الخالدة عبارات فرضت نفسها علىّ بقوة وأنا أرسو بما أكتب على بر نهاية المقال.

الحقيقة تطهرنا.. الخيال والواقع أكثر قربا معا مما نتصور.. لكنهما لا يلتقيان.. كلنا نختار.. خياراتنا حياتنا.. هل يتقبل كل منا حياته.. ربما تكبر.. ربما تنجح.. لكن.. هل تصدق نفسك؟. حين تكون وحدك هل تعرف النوم بضمير مستريح؟

4

سيارة خربة تائهة في الصحراء

السندباد المغامر الذى شغل خيال طفولتنا كثيرا ليس فى تصور شاعر جمع حروف كلماته من اللؤلؤ والفل وشرائح المانجو مثل نزار قبانى، ليس شخصية أسطورية اخترعها الفلكلولور العربى.. ليس مادة روائية صيغت للتسلية.. ليس ممثلا محترفا على مسرح ألف ليلة وليلة.

السندباد فى تصوره رمز هام لانعتاق الإنسان العربى من حدود الزمان والمكان ونزوعه نحو آفاق بعيدة عن واقع مؤلم ومظلم يحلم بتغييره.

السندباد هو اقتحام ووثوب وإبحار فى المدهش والمستحيل.. هو ثورة على المعلوم والمحدد والمستهلك.. هو السفر نحو المستقبل.. لا البقاء فى مرافئ الماضى.

بهذه المعانى تحتاج مصر بعد خروجها من النفق الإخوانى المظلم إلى سندباد.. يعرف كيف يدير دفة السفينة ناحية شاطئ الأمان.. يجيد تحفيز البحارة على مواجهة العواصف والأنواء والأمواج.. يعرف كيف يبعد كل من يبث اليأس والإحباط فى نفوس الركاب لكى لا تسقط السفينة فى يد أقرب قرصان.. أو تترك للتحطم عند أول صخرة.

فى اليوم التالى لنشر المقال الثانى افتتح الكاتب الصحفى عبد الله السناوى صالونه السياسى على قناة التحرير باستضافة هيكل ليطرح سؤال اللحظة: المستقبل الآن؟

بدا أن استضافة هيكل بهذه السرعة نوع من رد الفعل العاجل على ما كتبت عنه.. حسب ما سمعت من بعض أصحاب نظرية المؤامرة.. وكان رأيهم أن هيكل لم يشأ أن يرد على ما كتبت.. وهذا متوقع.. والبديل.. أن يظهر علنا ويتكلم فى الشأن الجارى ليبدو وكأنه لم يتأثر بما نشر.. ولكنى لم أجد ما يدل على واقعية ذلك السيناريو فاستبعدته من تصورى.

والسناوي جريء.. سبق غيره في التعرض لكارثة توريث الحكم عندما كان رئيسا لتحرير صحيفة «العربي» الناصري.. وقد اقترب من هيكل أكثر من غيره.. وتمثله في كثير من الأمور.. ووصل إيمانه به إلى حد مقاطعة كل من يختلف معه.. متناسيا أن الاختلاف لو كان سنة بين البشر العاديين فإنه فرض بين الكتاب والصحفيين.

فرضت معطيات الواقع المعقد والمتشابك على السناوي أن يبدأ صالونه التلفزيوني بهذا السؤال الصعب عن المستقبل.. وهو سؤال قليل الكلمات.. كثير الاجتهادات.

في خلفية المشهد الذي فرض السؤال.. قائد أنقذ أمته من براثن التنين مطالب بأن «يكمل جميله».. هو عبد الفتاح السيسي.. تنظيم إرهابي شرس تغلغل في جسد الدولة ينسف ويقتل ويدمر ويصر على تخريبها هو تنظيم الإخوان المحلي والدولي.. دائرة محلية متوترة وقلقة ومنقسمة تحاول أن تصل إلى صيغة مناسبة للنجاة.. دائرة إقليمية أوسع تضم دولا تسترد عافيتها القديمة للهيمنة والسيطرة.. فوج من الذئاب يبرز أنيابه ومخالبه.. يرقب ما يجرى على أرضنا.. في انتظار لحظة مناسبة ينقض فيها على فريسة حائرة.. وقوى عظمى تختلف على ما يحدث.. وتتحسس خطواتها لكي تخرج في النهاية بالغنيمة الكبرى.. لكن.. الأهم من ذلك كله شعب حقق معجزة سياسية ساندتها عناية إلهية.. لا يمكن تجاهله بعد أن فرض على الجميع معادلاته وقراراته.

شارك في الصالون شخصيات سياسية وأدبية وصحفية لها وزنها.. مصطفى حجازي.. يوسف القعيد.. ياسر رزق.. بهاء طاهر.. عماد جاد.. فريدة الشوباشي.. ومحمد عبد الهادي.

سأل السناوي: كيف يفكر هيكل في المستقبل؟

لكن.. هيكل ابتعد عن السؤال تماما.. بل ويمكن القول بأنه رفضه.. قائلا: «قبل الحديث عن المستقبل لا بد أن تكون متأكدا أنك على طريق المستقبل».. وحسم الموقف مضيفا: «أعتقد أننا بعيدون جدا جدا عن طريق المستقبل».. «في هذه اللحظة نحن في حالة تيه في الصحراء».

بل أكثر من ذلك وصف مصر بأنها سيارة كبيرة خربت.. أتلف السادات إحدى إطاراتها.. وتصور مبارك أنها طائرة لا سيارة.. وتعامل مرسى معها على أنها «توكتوك».

ويستطرد هيكل: «فى هذه اللحظة التى نحن فيها الآن يقف كل اصحاب السيارة سيارة الوطن أمام أعطالها وهى تسير بطريقة خاطئة.. فتجد العواجيز «اللى زيي» يقولون: يا جماعة ليس بهذه الطريقة.. فى حين يواصل الشباب الدفع بالسيارة من الخلف فى مشهد غريب جدا.

سيارة خربة.. تيه فى الصحراء.. مسيرة لا تعرف لنفسها اتجاهًا.. مجهود ضائع تبذله الأجيال الجديدة.. وصراخ فى البرية لا يسمعه أحد من «العواجيز اللى زيه».. انتهت الإجابة على السؤال فى الدقائق الخمس الأولى من الصالون.. إجابة سوداء.. يائسة.. محطمة.. تصل بنا إلى جملة صغيرة شائعة «مفيش فايدة».. أو حسب الإضافة الشعبية: «غطونا وصوتوا».

إن أخطر ما فى التحليل السياسى التورط فى تشبيه أدبى.. يأخذنا بعيدا عن رصد الواقع.. وتشخيصه.. وتحديد مراكز ضعفه.. ومناطق قوته.

التحليل السياسى مثل التحليل الطبى.. لا بد أن يعتمد على صور دم وأفلام أشعة وتقارير للرنين المغناطيسى لمعرفة الداء قبل تحديد الدواء.

تصور أن مريضا ذهب إلى طبيب يشكو إليه أوجاعا ما فإذا بالطبيب يترك السماعة ويمسك برواية لنجيب محفوظ أو يوسف إدريس أو جارسيا ماركيز ليشخص الحالة.. لا يكشف عليه.. لا يقيس الضغط أو السكر.. لا يطلب منه تحاليل عاجلة.. ويكتفى بالقول: «إنك مثل سيارة خربة بلا إطارات.. لا أمل فى دفعها إلى الأمام.. بل ويصعب بيعها خردة».. هل هناك طريق آخر أمام المريض سوى الانتحار؟

وطالما أن «الأستاذ» وصف الحالة بسيارة خربة فلابد أنه على أول من دعى للحديث بعده الدكتور مصطفى حجازى أن يصدق على التوصيف دون تردد قائلا: إنه توصيف دقيق جدا.

بل.. أكثر من ذلك.. ضاعف مصطفى حجازى -وهو بالمناسبة مستشار استراتيجى لرئيس الجمهورية من مساحة السواد.. مضيفا: «أستطيع أن أقول بكل صدق إن مصر بلا عقل».. أفادكم الله يا دكتور.

مسرح محطم.. وفرقة فنية مريضة.. ومخرج لا وجود له.. وصالة بلا مقاعد ليجلس عليها الجمهور.. والنص محترق.. وقاطع التذاكر ينام فى بيته.. طب «قاعدين ليه ما تقوموا تروحوا».

ولو كان هيكل قد ركز على القضايا الرئيسية التى تعانى منها مصر: الغذاء والمياه والطاقة؛ لكان الحوار قد أخذ مسلكا علميا.. مناسبا.. لكن.. تشبيه السيارة الخربة وضع الجميع فى ورطة صعب على أغلبهم الخروج منها.

ومن جانبه سعى السناوى للخروج من تلك الورطة طارحا إشكالية الأمن والحرية.. «كيف يمكن أن نحافظ على أمن الوطن دون التغول على أمن المواطن؟».

أجاب بهاء طاهر شارحا ما فعل الإخوان بمصر منذ أن عادوا إلى البلاد فى منتصف السبعينات.

حاول السناوى أن ينهى تعليقه قائلا: «يعنى السيارة ما زالت خربة»؟

ضحك بهاء طاهر معلقا: نعم «بناء على التشبيه الجميل «بتاع الأستاذ هيكل».

لكن.. بهاء طاهر واصل تقديم ما عنده فاتحا نافذة من الأمل وسط كل ما يحيط به من ظلام.. أشعل شمعة.. ليكف من حوله عن أن يلعنوا العتمة.. وأضاف:

أنا متفائل لسبب.. أننا مررنا فى تاريخنا بظروف أشد سوادا من التى نجابهها الآن.. واستطاعت القوة المصرية التى تحدث عنها (أرنولد) توينبى (مؤرخ شهير) مواجهة التحدى.

السيارة كانت خربة جدا وكانت تجرها أحصنة مريضة لكن استطاع المصرى بهذه القدرة الهائلة على قبول التحدى أن يسير بها.

ونستطيع ضرب أمثلة عديدة من التاريخ.. نكسة 1967.. وكيف تمكن الشعب من التغلب عليها.. ونضرب مثالا آخر بحكاية حكم الإخوان الذى كاد يدمر الوطن واستطاع الناس فى 30 يونيو وغيره أن يتغلبوا عليه.

هنا نتوقف طويلا.. لنرصد موقف هيكل من المثالين اللذين ضربهما بهاء طاهر.. الخروج من هزيمة يونيو.. والتخلص من حكم الإخوان.. إن الرابط المشترك بينهما

هو المخزون الحضارى للشعب المصرى.. كيف يخرج من حيث لا يحتسب أحد.. ليحقق معجزات لا تخطر على بال أحد.. ولا تدخل عادة فى حسابات هيكل وإن لم تنقص كلماته.

لقد كتب هيكل كثيرا عن أن الشعب هو المعلم والقائد.. لكنه.. على ما يبدو.. لم يكن ليصدق ما يكتب.. لم يكن مؤمنا به.. وسأدلل على ذلك بسرد الكثير من التفاصيل عن المثالين اللذين ضربهما بهاء طاهر.

فى 4 فبراير 1971 أعلن السادات عن مبادرة سلمية يتوقف بمقتضاها إطلاق النار لمدة شهر.. مقابل انسحاب جزئى لإسرائيل من الضفة الأخرى للقناة.. لتفتح القناة بعد ذلك للملاحة البحرية الدولية.. تمهيدا لانسحاب إسرائيلى تدريجى تنفيذا لقرارات الأمم المتحدة.

وحسب ما ذكر حافظ غانم مستشار السادات للأمن القومى وقتها فإن المبادرة تنتهى فى آخر المطاف إلى اتفاقية سلام بين مصر وإسرائيل.. تنص على إنهاء حالة الحرب.. واعتراف بوجود الدولة الصهيونية.. وتبادل السفراء معها.

كانت هذه المبادرة بمثابة كامب ديفيد مبكرة.. لكنها لم تنل اهتماما مناسبا من المحللين والمؤرخين الذين تناولوا سيرة السادات.. أما السبب فهو أن المبادرة لم تحظ بتشجيع من أحد.. لا الجيش وافق عليها.. ولا الشعب تحمس لها.. فقد كان لا بد من الحرب.. ليس فقط لاسترداد الأرض وإنما لاسترداد الكرامة.

ومن هنا خرجت نظرية «الحرب المحدودة».. حرب يعبر فيها الجيش.. ويفرح بها الشعب.. وتمهد لصلح ولو متأخر مع العدو.. وفى تصور البعض فإن شرط الحرب المحدودة توفر فى الأيام الأولى من معارك أكتوبر 6 أكتوبر 1973.. تمهيدا لاختيار الوقت المناسب لمبادرة صلح جديدة.. وهو ما حدث فى 19 نوفمبر 1977 حين سافر السادات إلى إسرائيل.

الحقيقة المذهلة فى قصة المبادرة أن الذى صاغها فى خطاب السادات هو هيكل.. حسب شهادة سامى شرف وزير شئون رئاسة الجمهورية.

كان سامى شرف يراجع الخطاب على الماكينة الكاتبة قبل إرساله إلى السادات.. ولما قرأ سطور المبادرة طلب شعراوى جمعة (وزير الداخلية) قائلا: «تعال حالا إلى مكتبى».

عندما حضر شعراوى جمعة طلب منه سامى شرف أن يقرأ الفقرة الخاصة بالمبادرة قائلا: «هذه مؤامرة لا يجب السكوت عليها».. وطلب منه أن يكلم الفريق أول محمد فوزى (وزير الحربية) ليتفقوا على موقف محدد.

لكن.. شعراوى جمعة تمهل قائلا: «لننتظر سبتمبر عندما آجىء رئيس وزراء.. ساعتها يمكن أن نأخذ إجراء عنيفا».

احتد عليه سامى شرف قائلا: «ممن عرفت أنك ستأتى رئيس وزراء فى سبتمبر ولماذا لم تقل لى هذا الخبر من قبل؟».

أجاب: «هيكل هو الذى اخبرنى بذلك».

تضاعفت حدة سامى شرف واستطرد: «هل جاء الزمن الذى يعينك فيه هيكل ويرفدك».

وسكت شعراوى جمعة.. فطلب منه سامى شرف أن يذهبا معا إلى مجلس الأمة ليلحقا الجلسة.. وتوجها بالفعل إلى مجلس الأمة.. ودخلا على محمود رياض (وزير الخارجية) وعلى صبرى (الشخصية المؤثرة فى الاتحاد الاشتراكى) ومحمد فوزى.. وعندما قرأوا الفقرة التى تتحدث عن المبادرة أصيبوا هم أيضا بحالة عصبية.

وقاموا لعرض الفقرة على الدكتور محمود فوزى الذى بدا وكأنه يقرأها لأول مرة.. ولو أنهم تشككوا فى أن يكون على علم مسبق بها من طريقة تعليقه.. حيث قال كلاما وصفوه بأنه «مائع» بدا فيه معترضًا وموافقًا.. فى نفس الوقت.

وسلمت أوراق الخطاب إلى السادات الذى حضر بصحبة شخصية كويتية معروفة.. ولم يستطع على صبرى أو محمود فوزى أن يقولا له شيئا إلا كلاما مبهما لوجود الشخصية الكويتية.

ونزل سامى شرف ومحمد فوزى وشعراوى جمعة إلى الجلسة.. وسارت الأيام بعد ذلك وكلها شكوك متبادلة بين أفراد تلك المجموعة.. ليس فى الفكر المشترك.. ولكن.. فى القرار الموحد.

ونجح السادات فى تخدير على صبرى بمقابلته فى استراحة القناطر وتكليفه ببعض التحضيرات المطلوبة للمعركة «القريبة».. لكن.. السادات سرعان ما تخلص منه.

وذرًا للرماد سارع السادات بتكليف محمد رياض بتعديل المبادرة.. نوعا من تفويت الفرصة على رجال عبد الناصر.. وخوفا منهم أن يستغلوا المبادرة فى تبرير الإطاحة به ولم يكن قد تمكن من السلطة بعد.. كما أن شعبيته كانت مثار سخرية.

لكن.. ذلك لا ينفى حقيقة صارخة.. صادمة.. أن هيكل هو صائغ هذه المبادرة التى سبقت مبادرة زيارة القدس بأكثر من ست سنوات.

وحسب رسالة الدكتور كمال خلف الطويل التى سبق أن أشرت إليها وإليه: فإن مسودة المبادرة التى كتبها هيكل كانت هزيلة.. وسارع بتعديلها بعد أن لاقت اعتراضات كثيرة من «أهل النظام».. وما يدعم ذلك أن هيكل أيد فى نفس السنة مبادرة سيسكو ستيرنر.. المنبثقة من مبادرة روجرز.. وفى الوقت نفسه لم يتوقف هيكل عن تحريض السادات على عدم الإنصات إلى شركائه فى الحكم الذين وصفهم فيما بعد بمراكز القوى.

ولم يتردد هيكل فى دعم قرار طرد الخبراء السوفيت فى 8 يوليو 1972.. بل مهد له بندوة أقامها للسفير إسماعيل فهمى والسفير تحسين بشير فى الأهرام فى مايو من نفس السنة.

ويعتقد الدكتور كمال خلف أن ما حرك هيكل لاتخاذ تلك المواقف المتناقضة مع خط عبد الناصر دافعان.

الأول: ذاتى.. كراهيته لعلى صبرى.

والثانى موضوعى: عدم ثقته فى الضباط المصريين.

الدافع الأول جعله ينحاز إلى السادات «رغم احتقاره له سابقا ولاحقا».

والدافع الثانى أخذه إلى البحث عن حل سلمى.. وصياغة مبادرة سبق بها غيره نحو الصلح مع إسرائيل.

إن أخطر ما فى ذلك التحليل.. أن هيكل أمام مصلحة شخصية يتحالف مع من لا يطيق.. ويقبل بما لا يمكن تصوره.. وفى كل الحالات.. يكسب هو.. ويخسر الوطن.. يطفو هو.. ويغرق الوطن.. لا يهم.

ولدعم مبادرته السلمية كتب هيكل مقاله الشهير «تحية للرجال» الذى أثار ضجة فى أوساط العسكريين المقاتلين واعتبر حائطا من اليأس الصلب يقف حائلا بينهم وبين العبور.

نشر هيكل المقال فى 12 مارس التالى.. بعد نحو الشهر من مبادرة الصلح مع إسرائيل.. ورغم رقة العنوان ورومانسيته فإن ما جاء فى المقال من معلومات سردت متتالية تنتهى إلى استنتاج واحد ووحيد.. أن الدخول فى حرب مع إسرائيل مسألة مستحيلة.. وأن الحل السلمى الذى طرح قبل أسابيع قليلة ربما يكون المنفذ والمخرج الوحيد والمناسب.

كتب هيكل المقال فور عودته من رحلة أوروبية التقى فيها بمراكز أبحاث سياسية وعسكرية تهتم بالصراع الساخن فى الشرق الأوسط.. وقبل أن ينقل إلينا ما حصل عليه من تقارير ودراسات وجه التحية للرجال «الذين يحملون الآن أغلى أمانة فى تاريخ مصر».. «هؤلاء الذين يصلون الليل بالنهار فى انتظار الأوامر لكى ينطلقوا إلى تحرير الأرض مع عواصف النار والدخان والرعود الدامية والبراكين الهادرة والصواعق الطائرة فى السماء».

تستمر كلماته الأدبية البديعة مترنحة بين التقدير والتخويف ليصل إلى بيت القصيد: «إن القوات المسلحة تواجه معركة من أصعب معارك التاريخ وليست هذه صيغة مبالغة وإنما هى وصف حقيقة».

ثم راح يرصد الموانع والمصاعب والمتاعب بما يوصل إلى النتيجة نفسها.. استحالة الفوز فى الحرب.

1 - مانع مائى خطير هو قناة السويس.. عرضه 200 متر.. وعمقه 11 مترا.. يمتد على خط مستقيم بين بحر وبحر.. مما يجعله «واحدا من أهم الخطوط الدفاعية

فى العالم من حيث كونه مانعا ضخما أمام المدافع.. عائقا ضخما بنفس المقدار أمام المهاجم».

2 - كثبان رملية على شاطئ القناة الشرقى مباشرة.. تجمعت وتركزت بالظروف الطبيعية ثم أضافت إليها عمليات التطهير المستمرة فى القناة وكانت دائما تلقى بقاياها فوق الناحية الأخرى.. وعلى هذه الكثبان أقام العدو خطه الدفاعى الأمامى على حافة الماء مباشرة».

يوصف هذا الخط الدفاعى بخط بارليف وقد أعيد بناؤه ليحسم المعركة على حافة الماء مباشرة لصالح إسرائيل.. و«معنى ذلك أن الجيش المصرى فى تقدمه سوف يواجه ما لم يواجهه جيش من قبل».

3 - منطقة رمال مفتوحة بعد ذلك ولكنها محاصرة بين شاطئ القناة وبين بداية المرتفعات نحو منطقة المضايق الحاكمة فى سيناء والتى لا تبعد عن القناة نفسها أكثر من ثلاثين كيلومترا.

4 - منطقة المضايق ذاتها وهى تفرض على المقاتلين طبيعة صخرية شديدة الوعورة.. «سلاسل جبال تتشابك وتدور حول بعضها».. وهى فى تقدير كل المهتمين بدراسة سيناء المفتاح الرئيسى للسيطرة على هذه الصحراء المقدسة.. وعليها أقام العدو خط دفاعه الثانى.

وعلى الناحية الأخرى فإن الجيش المصرى سيخوض وحده الحرب.. فالكلام عن انضمام جيوش عربية أخرى للمعركة لن يتجاوز فى حقيقته البيانات والتصريحات.

وحسب ميزان القوة فإن للجيش المصرى فرقتان من المشاة الميكانيكى تضم نحو 35 ألف جندى وفرقة مدرعة بها 400 دبابة ولواء من قوات الكوماندوز المحمولين بالهليكوبتر (70 طائرة و3 آلاف مقاتل) و100 قاذفة ومقاتلة وما بين 800 إلى ألف مدفع ثقيل.. بينما الجيش الإسرائيلى مكون من 3 فرق مدرعة (1300 دبابة) وخمس فرق من المشاه الميكانيكى وقوة السلاح الجوى الإسرائيلى كلها (حوالى 600 طائرة).

وفى انتظار ساعة الصفر «يتعرض الجيش المصرى منذ يونيو 1967 إلى 150 غارة يومية بمعدل قصف متوسطه 1200 طن متفجرات يوميا».

وفى الاستعداد للحرب كان على الجيش المصرى «أن ينتقل من عصر إلى عصر.. من عصر الحروب التقليدية إلى عصر الحروب الإلكترونية.. ومن عصر الرؤية النهارية بالمنظارات المكبرة إلى عصر الرؤية الليلية بالأشعة تحت الحمراء».

يضاف إلى ذلك «أن عملية إعادة بناء الجيش المصرى بعد الهزيمة أصيبت بصدمة نفسية برحيل قائده الأعلى جمال عبد الناصر».. وكان وقع الصدمة أشد فى الجبهة.

ولم يخف هيكل ما يريد من وراء رصد كل هذه الحقائق المفزعة: إن الجيش فى النهاية «مطالب بأن ينتظر السياسة».. «تحل الأزمة بالسلم إذا لاح للسلم طريق.. أو تصدر إليه الأوامر بالقتال إذا استحال طريق السلم.. ونكون على الأقل مهدت له الأجواء كى يؤدى مسئوليته فى أكثر الظروف السياسية ملاءمة لإنجاح المهمة ومع المراعاة الكاملة لإطار التوزان الدولى الراهن وهو إطار لا يستطيع أحد أن يتجاوزه بسهولة أو بيسر».

جاء المقال فى أعقاب رفض مبادرة الصلح مع إسرائيل.. فهل كتبه هيكل بكل ما يملك من براعة لكى يدعم رغبة السادات فى المبادرة؟. أم كتبه ردا على مجموعة عبد الناصر فى السلطة التى رفضت المبادرة؟

لكن.. مهما كانت النيات فإن الغضب من المقال اجتاح قيادة الجيش المصرى.. كما انضم إلى عواصف الغضب سياسيون كبار وصفوا هيكل بالانهزامية.. وتحطيم الروح المعنوية.

وفيما بعد.. كان المقال محل تحقيق سياسى مع هيكل أمام المدعى الاشتراكى.. استمر التحقيق ثلاثة شهور.. فى الفترة ما بين الأربعاء 21 يونيو 1978 إلى الثلاثاء أول أغسطس من نفس العام.. ونجح هيكل فى إقناع المحقق أنه على حق.. أما السبب فهو أن المحقق لم ينظر خارج المقال مستدعيا المبادرة السلمية التى سبقت نشره.. لو فعل المحقق ذلك فإن مسار التحقيق كان سيتغير تماما.. فهناك علاقة سببية مباشرة بين الخطاب الذى عرض فيه السادات مبادرة الصلح مع إسرائيل ومقال هيكل الذى سود الدنيا فى وجوه المقاتلين واضعا موانع وصعابًا يستحيل معها محاربة نفس العدو أو الانتصار عليه.

ولكن.. كل عناصر السواد التى وضعها هيكل جنبا إلى جنب حتى أصبحت جبلا هائلا لم تمنع المقاتل المصرى من عبور القناة فى أكتوبر 1973 فى معجزة تجاوزت كل نظريات الحروب وقتها.

ولم يتردد هيكل بعد أن حدث ما حدث فى أن يفخر بأنه هو الذى كتب التوجيه الاستراتيجى للحرب.

كل شىء جاهز عنده.. لو وقعت هزيمة جديدة فقد سبق أن حذر.. ولو حدث انتصار فإنه شريك فيه.

لكن.. لماذا رفض هيكل مبادرة السادات السلمية فى نوفمبر 1977 رغم قبوله مبادرة السادات السلمية فى فبراير 1971 بل شارك فى صياغتها؟

السبب فى رأيى أن هيكل كان حاضرا فى مشهد الحكم وقت مبادرة فبراير وكان غائبا عن المشهد وقت مبادرة نوفمبر.. فانتقل من المؤيد إلى المعارض.. من المشارك إلى المخالف.. من فصيلة الحمام الزاجل إلى فصيلة الصقور الجارحة.

لقد تحمس هيكل لما يفعل السادات عندما كان قريبا منه.. ورفض ما فعل السادات بعد أن تفرقت بينهما السبل.. وقطعت بينهما الصلات والوصلات.. وكأن ما يحرك الكاتب أهواء شخصية.. لا تمت للحقائق المجردة بصلة حتى لو بدت موضوعية ومنطقية.

ولو كان هيكل قبل إخراجه من المشهد تورط مع السادات فيما يستحق محاكمة سياسية فإن السادات بما فعل بهيكل فيما بعد أنقذه من تلك المحاكمة وحوله من متهم إلى شاهد ملك.

فى شتاء 1974 أخرجه السادات من رئاسة تحرير الأهرام.. فتفرغ هيكل لتأليف كتب مستعينا بوثائق وشهادات وسجلات حصل عليها بسبب وجوده فى السلطة.. ووجدت هذه الكتب ناشرين مهمين فى العالم يتسابقون عليها.. فخرج هيكل من المحيط الإقليمى إلى المدار الدولى فتضاعفت قوته.. وقويت شوكته.

وفى صيف 1978 أحاله السادات إلى المدعى الاشتراكى فكسب هيكل من حيث أراده السادات أن يخسر.. فقد ضمت نفس الإحالة شخصيات سياسية وصحفية معارضة مثل أحمد حمروش وصلاح عيسى، استفاد هيكل من وجوده بينها رغم أن هيكل سبق أن وقف ضد مواقفها ومبادئها وقت أن كان منحازا للسادات.

وعندما قبض عليه السادات فى خريف 1981 ضمت قائمة الاعتقالات شخصيات أخرى لم تكن على وفاق سياسى مع هيكل من أقصى اليمين مثل فؤاد سراج الدين

إلى أقصى اليسار مثل صلاح عيسى.. وفى أيام السجن التى تجاوزت الشهر بقليل غفر الخصوم لهيكل ما سبق أن فعل بهم.

لكن.. الأكثر أهمية هنا.. أن كل العتمة التى دهن بها هيكل سماء الأمل فى العبور قد تبددت بالمخزون الحضارى الكامن فى الشعب المصرى الذى لا يضعه هيكل فى حساباته.. إن طاقات التحدى التى تخرج فى أصعب الأزمات من صدور المصريين كالبركان المكبوت تحقق من المعجزات ما لا تتوقع وما لا تنتظر مراكز الدراسات السياسية والاستراتيجية رغم أهميتها.

لقد توصل نقيب فى سلاح المهندسين يعمل تحت مسئولية أحمد حمدى إلى فكرة سهلة يمكن أن تذيب خط برليف الحصين.. أولى مناطق الدفاع الإسرائيلى.. كانت ابنته تهدم برشاش مائى صغير قصور الرمال التى تبنيها على الشاطئ.. ففكر فى استخدام مضخات الماء فى هدم الساتر الترابى.. وجربت الفكرة ونجحت.. واستوردت مصر عشرات المضخات القوية من ألمانيا الشرقية.. وحققت المعجزة رغم أنف كل الحسابات المستحيلة.

وعكست طاقة التحمل نفسها على الجندى المصرى فحمل على ظهره من الأحمال والمعدات ثلاثة أضعاف ما يحمله الجندى الآخر فى جيوش أخرى.. ولم تكن هذه النقطة فى الحسبان.

كما أن قدرة السادات على الخداع وفرت له ست ساعات كان فى حاجة إليها ليفاجئ إسرائيل قبل أن تنتبه وتعبئ الاحتياطى الذى تعتمد عليه فى تطوير الحرب.

إن وصف السيارة الخربة لو طبق بأثر رجعى على الحالة التى كانت عليها مصر قبل قرار الحرب كان سيجد هوى وصدى لدى الكثيرين الذين لم يثقوا فى شعب يعرف كيف يبعث من جديد فى وقت تنصب له فيه سرادقات جماعية للعزاء.

وما يثير الدهشة هنا أن غالبية الناصريين يدافعون عن هيكل رغم كل ما فعل بهم.. وبتجربة عبد الناصر.. فى حالة من حالات التمتع بتعذيب الذات لم نشهد مثلها فى تجارب أخرى.

أما الأقلية الناصرية التى تكره هيكل فقد كتمت مشاعرها فى صدرها وخشيت من التعبير عنها.

هذه مجرد ملاحظة عابرة لا أتوقف عندها طويلا.

وقبل أن نتحدث عن المعجزة الثانية التى تحققت فى 30 يونيو نعود إلى صالون السناوى.. حيث حاول البعض إثناء هيكل عن تشبيه السيارة الخربة التى بلا زيت أو بنزين ولا إطارات ولا تعرف خريطة للسير ولا تملك تأشيرة سفر.

قال ياسر رزق: إن «المستقبل حدده الشعب فى ثورتين ملخصا أهدافه فى المعيشة الكريمة والحرية والعدالة الاجتماعية».

وأضاف: «ليست قصة سيارة خربة.. قد نهدر وقتنا فى دفعها.. فى حين أن من الأسهل أن نمضى سيرا على الأقدام».

وقالت فريدة الشوباشى: «نحن حين خرجنا فى 30 يونيو حققنا إرادتنا وانتزعنا وطننا من براثن الخيانة».

إن 30 يونيو هو المثال الثانى الذى يؤكد وجود المخزون احضارى للشعب المصرى.. ويؤكد أنه قادر بأسلوب بسيط وسهل أن يسقط مخططات.. وينسف مؤامرات.

كل ما فعل الشعب المصرى أنه خرج إلى عرض الطريق رافعا علم بلاده.. نقطة مياه رافضة أصبحت بحيرة غاضبة.. شجرة وحيدة من الاحتجاج أصبحت غابة كثيفة من التمرد والعصيان.. كلمة وحيدة هادئة تحولت إلى صرخات هادرة.

لم يخش الشعب المصرى تهديدات العنف التى روجت لها الجماعة الحاكمة.. بل فيما بعد.. كان رد فعله مثيرا للدهشة.. ولافتًا للنظر.. فقد كان يسارع بالتجمع عند مناطق التفجيرات متحديا شحنات البارود الإخوانية.. على خلاف الدنيا كلها.. حيث يبتعد الناس عن مناطق العنف ولا يقتحمونها.. وفى قلب مراكز اللهب لم يكن الشعب المصرى ليتردد فى التظاهر والهتاف ضد كل من يرتكب جرائم العنف ضده.

وفى الوقت الذى كان فيه هيكل يأمل فى السلطة الإخوانية الحاكمة ويسعى للتوفيق بينها وبين المعارضة المدنية الواضحة لم يتردد غالبية الإعلاميين فى الهجوم على الجماعة وقياداتها ورئيس الجمهورية المنتمى إليها.

كانت وجوه شابة تخرج على شاشات الفضائيات طوال اليوم تحرض الشعب على الجماعة فى ثقة بأنه كشفها ولن يقبل باستمرار حكمها.. فى نفس الوقت كان هيكل فى اتصالاته ومناقشاته مع من حوله يعبر عن إيمان قوى بأن الشعب لن يستطيع طرد الإخوان مهما قويت الاحتجاجات واشتدت التظاهرات.

ومرة أخرى غرق هيكل فى تصوراته اليائسة البائسة التى لا يدخل فيها إيمانه بالشعب المصرى وقدرته على صناعة المعجزات.

وما يلفت النظر أن هيكل، حسب ما سنعرف من سيمور هيرش فيما بعد، كان يرى أن العالم، خاصة الولايات المتحدة، لن يقبل إلا بحكومة إسلامية فى مصر.. ومن ثم وضع كل ما يملك من رهان عليها.. وخسر الرهان قبل أن يخسر الشعب المصرى.

وما يثير الاستغراب أن الإخوان لم يردوا لهيكل الجميل.. ولم يعترفوا له بعرفان أو معروف.. فحسب وثيقة نشرتها «الوطن» يوم الثلاثاء 14 يناير 2014 فإن محمود حسين أمين التنظيم بعث برسالة إلى كل من محمود عزت ويوسف ندا فى 5 نوفمبر 2013 كشفت النقاب عن مهمة خطيرة للتنظيم الدولى تقضى بتكليف مجموعة من الإخوان بمراقبة 23 إعلاميا وتحديد ساعة الصفر لمحاصرة منازلهم.. على رأسهم هيكل.

وضمت القائمة أسماء بينهم مفيد فوزى وعادل حمودة ولميس الحديدى وعماد أديب ومجدى الجلاد ولميس جابر وخيرى رمضان وأحمد موسى وعمرو أديب وورولا خرسا وجمال عنايت ويسرى فودة ومحمود مسلم ووائل الأبراشى ومصطفى بكرى وعبد الرحيم على وإبراهيم عيسى وجمال فهمى وجمال عبد الرحيم وياسر رزق وأسامة كمال.. ولا أعرف.. هل شعر هيكل بالندم بعد أن قرأ الوثيقة على تقربه من جماعة الإخوان ونصائحه لها وسماعه لمبادرات الصلح بينها وبين النظام اللاحق على سقوطها؟

وبإضافة اسمه إلى تلك القائمة منح الإخوان هيكل شهادة براءة من التعامل معهم.. رغم أنه لم يكن ضدهم.. ولم يكن رافضا لوجودهم.. ولم ينضم إلى كتيبة الإعلاميين الفدائيين فى الهجوم عليهم.. ولم يشارك الشعب المصرى فى الثورة عليهم.

إن هيكل إن لم يكن موهوبا فى الإفلات بمواقفه المخزية فإنه محظوظ بانقلاب حلفائه عليه ليعود إلى الساحة وكأنه لم يرتكب شيئا.

وللإنصاف فإن القائمة السابقة ضمت أسماء كانت تمسك العصا من منتصفها.. من باب الكياسة لن أذكرها.. كما أنها خلت من أسماء تستحق هذا الشرف.. ومن باب الحقيقة يجب إضافتها.. أمانى الخياط.. يوسف الحسينى.. توفيق عكاشة.. مثلا.

والمؤكد أن هناك وثائق أخرى تضم قائمة الشرف الإعلامى فى مواجهة السرطان الإخوانى.

إن 30 يونيو كان ثورة شعبية قادها الإعلام بجرأة جعلته هدفا لقوى معادية فيما بعد.. وهى قصة أخرى لا نريد الدخول فى تفاصيلها حتى لا نخرج عن السياق العام إلى دروب جانبية.

لكننى سأكتفى مؤقتا بذكر نتيجة أشار إليها ملخص ورشة عمل عقدت فى البنتاجون (بين 25 و28 يناير 2014) وشارك فيها قادة الأسلحة فى يومها الأخير:

«لقد ساعدنا الإخوان فى مصر على استلام الحكم.. لكن النتيجة كانت أشد سوءا من تونس.. وفى بلد (مثل مصر) لا أحزاب فيه إلا الإخوان ظهر بوضوح أن الشعب مستعد لطردهم مباشرة بدون توجيهات من حزب أو تعليمات من تنظيم.. وعلينا أن نسارع بالقول إن هذه الظاهرة غير طبيعية.. المصريون معروفون بقدرتهم على تحمل المصاعب.. لكن.. مستوى الظلم الذى مارسه الإخوان أجبرهم على الخروج عليهم».

ويضيف التقرير: «إننا شاهدنا ظاهرة فريدة.. هى حكم الشعب مباشرة.. لقد أقنع 25 مليون مصرى كل القادة العسكريين والسياسيين فى البلاد بالانحياز لتلك الجماهير العريضة.. هذه حالة نادرة يحسد الجميع المصريين عليها.. ولم نشهد لها مثيلا فى مكان آخر من العالم الحديث.. لذلك فإن حاكم مصر المقبل لن يجد طريقه مفروشا بالورود..

سوف يحاسبه شعبه بلا هوادة.إذا أخطأ فى الخيارات الرئيسية.. إلا أنه سوف يغدق عليه عطفه وتأييده إذا ما استجاب لمستلزمات التنمية فى وطنه».

ويستطرد التقرير: «هذه ظاهرة صحية.. لكنها.. أيضا.. وبنفس القدر تشكل خطرا على سياستنا (السياسة الأمريكية) إذا استمرت خطتنا قائمة على استعمال العصا الغليظة.. سائرة فى نفس الاتجاه الذى سلكناه فى السنوات الأخيرة منذ بداية الحراك الشعبى فى مصر».

ويتوقف التقرير عند قوة إعلام 30 يونيو فى تعطيل المخطط الأمريكى الإخوانى.. ويطالب التقرير بتفتيت الإعلام المصرى.. وضرب مصداقيته.. وتشتيت نجومه.. كى لا يتكرر دوره الذى لعبه من قبل.

وللمرة العاشرة كرر هيكل فى صالون السناوى أن السيسى متردد.. وأثبت دون أن يقصد أنه لم يفهم الرجل الذى يوحى بأنه قريب منه.. وربما معبرا عن أفكاره.. وهو ما لا يتسم بالدقة إلى حد كبير.

إن السيسى الذى لم يتردد فى وضع رأسه على كفه وانحاز للشعب فى 30 يونيو ضد مخططات دولية قوية وجد نفسه وملايين المصريين تطالبه بالترشح للرئاسة فى موقف متشابك.

إذا رشح نفسه فإن المؤامرات الداخلية والخارجية سوف تتكاثر على مصر.. وإذا لم يرشح نفسه فإنه لا أحد يثق فيه الشعب غيره مما يزيد من حالة الفوضى إذا ما وصل للحكم غيره وتنجح المؤامرات التى تستهدف مصر.

إن المطلوب لمصر حتى تظل خانعة ضعيفة مشغولة بمشاكلها الداخلية عن محيط أمتها العربية حاكم موظف ينفذ التعليمات.. بلا شعبية.. يسهل التأثير عليه.

ولعلى أكشف سرا غاص تحت طبقات الصمت.. أن الحاكم المناسب الذى رشح لتلك المهمة هو سامى عنان.. وقد وقع عليه الاختيار قبل 30 يونيو.. عندما أدركت قوى غربية متنوعة ومؤثرة أن محمد مرسى قد انتهى.

وتحسب الولايات المتحدة له وهو على رأس وفد عسكرى فى واشنطن أثناء تظاهرات 25 يناير أنه وعد بعدم إطلاق النار على المتظاهرين.. كما أنه شخصية يمكن السيطرة عليها.. وتوجيهها بأساليب مختلفة.. كما أن التعليمات التى خرجت من التنظيم الدولى للإخوان إلى قواعده فى مصر قضت بالتصويت له لو رشح نفسه.. على أمل زرع فتنة داخل صفوف القوات المسلحة.. وهو أمر صعب المنال.

وأغرب تفسير سمعته من مسئول يعرف ما يقول إن عنان رشح نفسه لسبب شديد الخطورة.. إن السيسى يمكن اغتياله.. رأسه مطلوبة من عصابات إرهابية فى الداخل ومؤامرات دولية فى الخارج.. وساعتها يمكن أن يجد عنان فرصته.

لكن.. شىء ما جرت مواجهة عنان به جعله يتراجع عن فكرة الترشح.. يضاف إلى ذلك أنه لا يزال عضوا فى المجلس الأعلى للقوات المسلحة بعد استدعاء السيسى لكل أعضاء المجلس السابق من باب حمايتهم.. وبحكم هذه العضوية فإنه لكى يترشح لا بد أن يأخذ موافقة المجلس.. وهو أمر مستبعد بالطبع.

إزاء الموقف المتشابك الذى وجد السيسى فيه نفسه قرر الترشح.. متحديا قدره.. بما فيه التخطيط لقتله.

لكن.. الخطر الأكبر الذى ينتظر السيسى هو مواجهة سياساته وخططه للنهوض بمصر.

وهنا.. تجرى المقارنة بينه وبين عبد الناصر.. إنها مقارنة تضىء النور الأحمر فى الولايات المتحدة وإسرائيل.. بل وتثير الفزع هناك.. وقد أجرت أجهزة استخبارات تتبعهما ما يشبه الاستفتاء الخفى على شعبية السيسى فى دول عربية مختلفة (بما فى ذلك غزة والأراضى الفلسطينية المحتلة وفلسطينى المهجر فى الولايات المتحدة وفلسطينى المخيمات فى لبنان)، وكانت النتيجة مفزعة لهما.. فالقائد الجديد لمصر يتمتع بشعبية كاسحة فى كافة أنحاء المنطقة.. بما فى ذلك الضفة الغربية حيث تسيطر إسرائيل.. وغزة حيث تسيطر حماس.. وهو ما جعل إسرائيل تعتقد أن هناك تنظيما فلسطينيا لمساندة السيسى.

ولا تتوقف المقارنة بين السيسى وعبد الناصر عند حدود الخصائص الشخصية.. وإنما تمتد إلى ما يمكن وصفه بالبرامج الموضوعية.. وهى فى الحقيقة برامج وطنية.. إجبارية.. يجب أن يؤمن بها وينفذها كل من يضع مصر فى عقله قبل قلبه.

تحرر وطنى من تبعية قوى دولية بعينها.. يمنح حاكم مصر مرونة فى التعامل بحرية مع الولايات المتحدة وروسيا والصين حسب المصلحة الشعبية.. منهيا بذلك الانحياز للولايات المتحدة التى لم تعد مقبولة جماهيريا.. ودلل السيسى على نهج هذه السياسة بتوقيع اتفاقية لشراء أسلحة متطورة من روسيا.. ردا على توقف الولايات المتحدة عن تسليم أسلحة متفق عليها من قبل.

ومثل هذه السياسة سوف تنتهى حسب تقديرات أمريكية رسمية إلى تقوية كتلة الدول النامية ومنظمة عدم الانحياز بما يجعلها تسترد قوتها التصويتية فى المحافل الدولية.. وهو ما كان يثير قلق القوى العظمى فى ستينات وسبعينات القرن الماضى.

تنمية اقتصادية تعتمد على أفضل استخدام للموارد والطاقات المصرية.. بعيدا عن التوكيلات التجارية ومضاربات البورصة وتسقيع الأراضى.. وغيرها من الأساليب التى انتهت بنهب الثروات ومضاعفة ملايين الفقراء دون إضافات.. دون تحقيق لمحة ولو عابرة من العدالة الاجتماعية.

باختصار.. فإن هذه السياسات ستحقق بطريقة عملية الشعارات التى رفعت مبكرا فى ثورة يناير.. العيش والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الوطنية.. وهو أمر نرى القوى المتآمرة على مصر أنه لا يمكن السكوت عليه.

وكانت هناك اعتبارات أخذها السيسى فى اعتباره قبل أن يعلن ترشحه:

تغيير حكومة حازم الببلاوى التى عجزت عن تجميد الاضرابات العمالية التى استغلها الإخوان أحيانا لفرض المزيد من الاضطراب وعدم الاستقرار.. وكان البديل حكومة إبراهيم محلب الذى اشتهر بقدرته على التفاهم مع العمال بحكم عمله الأسبق فى شركة المقاولون العرب.

بجانب أن السيسى كان فى حاجة لبعض الوقت لترتيب الأوضاع داخل القوات المسلحة.. وهكذا.. رقى صدقى صبحى إلى رتبة فريق أول وانتقل من رئاسة الأركان إلى وزارة الدفاع.. ورقى محمود حجازى إلى رتبة فريق وانتقل من رئاسة المخابرات الحربية إلى رئاسة الأركان.

وفى يوم الأربعاء 26 مارس قدم السيسى استقالته إلى المجلس الأعلى للقوات المسلحة فى اجتماع طارئ حرص على حضوره رئيس الجمهورية المؤقت المستشار عدلى منصور.

يضاف إلى ذلك أن السيسى انتظر دفعة مساعدة مالية من دولة خليجية يضمن بها تسديد فواتير ما تحتاجه مصر من سلع أساسية خلال الشهور الثلاثة الأولى من الانتخابات الرئاسية.

وأخيرا.. أراد موعدا مناسبا لوصول شحنة أولى من السلاح الروسى ليدخل المعركة الانتخابية بإنجاز ملموس يتجاوز الوعود.

لكن.. المؤامرة على السيسى لن تتوقف عند وصوله إلى الرئاسة بل ستزيد.. وربما تتضاعف.

ستزداد كثافة حروب الفتنة فى الداخل بين مسلمين ومسيحيين.. بين نوبيين وصعايدة.. بين علمانيين وإسلاميين.. والهدف تقسيم المجتمع وتفتيته.. أو على الأقل إشغاله بحوادث دموية تبعده عن طريق التنمية والديمقراطية.

لن تتوقف الزيارات الرسمية والصحفية والحزبية الخارجية لتضييع وقت القيادة السياسية المصرية فى أمور بروتوكولية لن تفيد.

التحريض على رفع قضايا قانونية دولية ضد السيسى وبعض معاونيه.. ورغم أنها قضايا لن تنتهى إلى شيء فإنها على الأقل ستهدر الوقت.. وتشهر بالسمعة.

ستفتح من جديد القضايا السياسية العالقة بين مصر ودول أخرى.. مثل قضية حلايب وشلاتين مع السودان.. وقضية سد النهضة مع إثيوبيا.. مما يزيد من الوقت المهدر.

وبسبب الفقر السائد فى مصر فإن السعى لتجنيد الشباب للقيام بعمليات إرهابية سيتضاعف.. وفى ظل الحدود المفتوحة بين مصر وليبيا وبين مصر والسودان ستتوافر الأسلحة فى أيدى الإرهابيين.

ويقينا فإن مستوى العمليات الإرهابية فى سيناء سيزيد أيضا لفرض الكثير من المشاكل على القوات المسلحة والأجهزة الأمنية المختصة.

لكن.. الخطر الأشد هو على حياة السيسى.. وما يضاعف هذا الخطر تشبيه السيسى فى الداخل والخارج بجمال عبد الناصر.

إن هناك فروقًا شخصية وسياسية وزمانية بين السيسى وعبد الناصر.. لكن.. عبد الناصر برنامج عمل وطنى قبل أن يكون صفات بشرية.. إن أى حاكم مصرى لو كان إخوانيا يعلن استقلال بلاده عن التبعية الأمريكية.. وينفذ خطط تنمية مستقلة.. وينتمى إلى العالم الثالث.. وينحاز إلى السواد الأعظم من الشعب سيكون ناصريا.

لكن.. ذلك التشابه بين السيسى وعبد الناصر يبدو متعسفا فى كثير من الأحيان لتحفيز الولايات المتحدة وإسرائيل ضد السيسى.. ولتحريض القوى المعادية على أن تدبر للسيسى محاولات الاغتيال التى دبرتها لعبد الناصر.

لقد حاول الإخوان اغتيال عبد الناصر فى الإسكندرية عام 1954 ونجحوا فى تجنيد صف ضابط من شرطة الرئاسة للتخلص منه فى عام 1965.. ولم يترددوا بين التاريخين فى تدبير محاولات أخرى.. منها تلغيم شبكة الصرف الصحى تحت الطريق الذى يسير فيه موكبه فى «مصر الجديدة».. بجانب عدة محاولات للانقلاب عليه.

وكانت هناك محاولات خارجية كشف بعضها ضابط المخابرات البريطانية بيتر رايت فى كتابه «صائد الجواسيس».

قال بيتر رايت:

فى بداية أزمة السويس (1956) قامت المخابرات البريطانية «أم آى 6» بوضع خطة لاغتيال عبد الناصر باستخدام غاز الأعصاب.. ووافق رئيس الحكومة أنطونى إيدن على الخطة فى البداية.. ولكنه ألغاها فيما بعد عندما حصل على موافقة فرنسا وإسرائيل على القيام بعملية عسكرية ضد مصر.. على أنه عندما فشلت العملية العسكرية وأجبرت بريطانيا على الانسحاب من مصر عاد خيار الاغتيال مرة ثانية.

فى ذلك الوقت كان عبد الناصر قد نجح فى القبض على عملاء المخابرات البريطانية فى مصر الذين فشلوا مع بعض الضباط المتمردين فى الانقلاب عليه.. ووضعت المخابرات المصرية يدها على مخازن السلاح الذى كان سيستخدم فى العملية.

واستعانت المخابرات البريطانية بخبراء فى السموم من المخابرات الأمريكية مثل جون هنرى وبيتر ديكسون وفكروا فى تسريب غاز الأعصاب عبر أجهزة التكييف فى مكتب عبد الناصر للتخلص منه.. لكن.. هذه العملية كانت تتطلب كميات كبيرة من الغاز كما أنها يمكن أن تقتل عددًا كبيرًا من مساعدى عبد الناصر ولا تمسه هو بسوء.

ومن جانبه أشار هيكل إلى قصة فنجان القهوة التى أصر السادات على أن يعدها بنفسه إلى عبد الناصر فى يومه الأخير مستبعدا الطاهى الأمين محمد داود من المطبخ.. وفتحت القصة باب الاجتهادات السوداء على مصرعيه.

وفى صالون السناوى حاول المضيف أن يعيد طرح إشكالية تحقيق الأمن دون التغول على الحرية.. وأمام هذا الإصرار فاجأ هيكل من حوله بقوله صادمة: «أرى أمامى بلدا ينتحر بدعوى الحرية».. وأكملت تلك الجملة ما تبقى من بياض فى مساحة الصورة التى سودها هيكل بدهانات من اليأس والتشاؤم.

ولم يتردد صحفيون ومعلقون ومحللون من أجيال متتالية فى الاختلاف مع هيكل.. من جيل الكبار كان أحمد عبد المعطى حجازى على سبيل المثال.. ومن الجيل الأصغر كانت منال لاشين على سبيل المثال.

فى أهرام يوم الأربعاء 26 فبراير 2014 كتب أحمد عبد المعطى حجازى: «لقد أجاب الأستاذ (هيكل) عن سؤال (حول المستقبل) بقوله: إن علينا قبل الحديث عن المستقبل أن نكون متأكدين من أننا على طريق المستقبل وهو يعتقد أننا بعيدون عن هذا الطريق وأن حالتنا فى هذه اللحظة هى حالة التائهين فى الصحراء لأننا نواجه أزمات طاحنة فى الماء والطاقة والغذاء تمنعنا من أن نفكر ولابد من أن نخرج من هذه الأزمات لنتمكن من التفكير فى المستقبل.

«وقد وقفت طويلا أمام هذا المنطق أحاول أن أفهمه فلم أستطع أن أفهمه لأنى أعتقد على العكس مما يعتقد الأستاذ أن الحديث عن المستقبل يسبق الحديث عن الطريق إليه.. لأننا نعرف ما الذى نعانى منه الآن ويجب أن نتخلص منه فى المستقبل.. ونعرف ما الذى ينقصنا الآن ويجب أن يتوافر لنا فى المستقبل».

ولو كان هيكل قد اعتبر أن أزمات الغذاء والماء والطاقة تمنعنا من التفكير فى المستقبل فإن أحمد عبد المعطى حجازى يرى «أنها على العكس تدفعنا للتفكير فى المستقبل».. وهى «ليست مشاكل طارئة أو بسيطة نستطيع أن نفرغ من حلها ثم نبحث عن طريق المستقبل».. والمقصود.. نحل هذه المشاكل ونفكر فى المستقبل معا.

وأمام تشبيه «السيارة الخربة» يرى أحمد عبد المعطى حجازى أن هيكل يستخدم «لغة مجازية لا ندرى كيف نتعامل معها.. واللغة المجازية تستخدم غالبا فى الكتابة الأدبية التى تستثير خيالنا وتخاطب مشاعرنا وعواطفنا من خلال التشبيهات والاستعارات التى تعبر عن المعنى بطريق غير مباشر لأن المعنى الذى يقصده الشاعر أو القصّاص أوسع أو أعمق من اللفظ المباشر، فهى تلجأ للتصوير والتخيل وتضعنا فى حالة شعورية نعيش بها المعنى المقصود ونتمثله دون أن نقبض عليه.. غير أننا نمر الآن بمرحلة نحتاج فيها لأقصى ما نستطيعه من توضيح ما نقوله وتحديده لنتحاور ونتفاهم ونسلم بالحقائق الموضوعية التى لا بد أن نسلم بها جميعا مهما اختلفت عقائدنا السياسية».

ولو كان هيكل يرى أن السيارة بدأت فى التلف منذ رحيل عبد الناصر فإن أحمد عبد المعطى حجازى يقول: إن «هزيمة يونيو حلت بنا فى أيام عبد الناصر.. وتعثر التنمية الاقتصادية واللجوء إلى الاستدانة وسوء إدارة المصانع والشركات المؤممة بدأ أيام عبد الناصر، وتراجع المد القومى العربى نتيجة للهزيمة التى فتت عضد القوميين العرب وأنعشت النظم العربية التقليدية بدأ فى أيام عبد الناصر.. فإذا كان الفساد قد استشرى بعده فى أيام مبارك ومرسى وأصبحت الدولة المصرية سيارة خربة فالنظام العسكرى البوليسى الذى أقامه عبد الناصر والسلطة المطلقة التى انفرد بها وانتزع من المصريين حقهم فى اختيار حكامهم ومراقبتهم ومحاسبتهم وتصحيح أخطائهم.. هذه السلطة المطلقة هى أصل الفساد.. وهى سبب الهزيمة.. هذه حقيقة يجب أن نعترف بها وننتظر كلمة الأستاذ هيكل فيها.

وإذا كان الفساد قد بلغ غايته فى أيام مبارك فمبارك لم يكن هو الذى زرع الفساد وإنما هو الذى حصده.. لقد استأثر بالسلطة وانتفع من النظام الشمولى.. لكنه.. دفع الثمن أيضا.

ولقد بدا مبارك جنديا مخلصا لوطنه.. لكن النظام حوّله إلى طاغية.. وإذا كان المصريون قد أسقطوا مبارك فى ثورة يناير فهم لم يسقطوا النظام.. والدليل على هذا وصول الإخوان للسلطة.. لأن كل شىء كان يعمل لمصلحتهم.. فهم الورثة الشرعيون لنظام الطغيان الذى تعرض فى الثلاثين من يونيو لزلزال عنيف لا نستطيع حتى الآن أن نقدر نتائجه ولا ندرى أين صرنا بعده وأين نحن الآن من هذا النظام؟. هل خرجنا منه حقا؟ أم أننا نعيد الآن إنتاجه.. وتواصله؟. إذا كنا قد خرجنا من نظام الطغيان بجناحيه العسكرى والدينى فقد ضمنا أننا فى الطريق إلى المستقبل.. وإلا فسوف نظل تائهين فى الصحراء.. حيث لا ظل ولا ماء ولا غذاء.

أريد أن أقول فى النهاية أن الحرية بالنسبة لنا مسألة حياة أو موت.. وأنا أخالف الأستاذ هيكل فى خوفه من أن يؤدى بنا ظمؤنا الشديد للحرية إلى فوضى يحذرنا منها فيقول إنه «يرى بلدا ينتحر بدعوى الحرية».. لا يا أستاذ هيكل.. الحرية ليست انتحارا.. إنها هواء نقى متجدد.. وهى الفطرة التى فطرنا الله عليها فإن أخطأنا فيها الطريق فهى تصحح لنا طريقنا.. ونحن بالحرية نبعث من جديد بعد أن متنا فى زمن الطغيان».

وتذكرنا منال لاشين فى مقالها المنشور فى «الفجر» يوم الخميس 12 فبراير بأن هيكل سئل فى عام 1997 نفس السؤال.. «مصر إلى أين؟».. فقالت: إنه وقتها أجاب بقصة طريفة.. حكى أن الشاعر حافظ إبراهيم تربى فى بيت خاله.. وأن خاله ضاق بالتكفل بنفقاته.. فهجر حافظ إبراهيم البيت وترك له أبياتا من الشعر قال فيها «ثقلت عليك مؤنتى إنى أراها واهية.. فافرح فإنى ذاهب فى داهية».. «وما بين التصفيق والضحك غادر هيكل مكان الندوة.

تكرر السؤال رغم تباعد الأعوام.. لكن.. الإجابة واحدة.. «نحن ذاهبون إلى داهية».

بهذه الرؤية «يصر هيكل على أن مصر لم تتغير بعد ثورتين شعبيتين.. وأن مشهد النهاية واحد فى كل عصر.. فى عصر مبارك.. وعصر الإخوان.. وحتى العصر القادم».

وترى منال لاشين إن سر إخفاق هيكل فى التحليل سببه تجاهله لدور الجماهير فى «اللحظات العصيبة والحرجة فى تاريخ وطنهم».. «فخروج المصريين ضد مبارك ومرسى.. وثوراتهم ضد الاستبداد لم يضف جديدا فى معادلة هيكل.. لأن هيكل خلافا لعبد الناصر لا يؤمن بحركة أو قدرة الجماهير وقوتها الدافعة والمقاومة للتحديات

والصعاب.. هيكل رجل حوارات الصالونات الفاخرة وكبار المسئولين (الرؤساء والزعماء والجنرالات) وتحليلاته كلها تدور فقط حول المعلومات المستقاة منهم بجانب تقارير مراكز الدراسات ولاشك أن كل ذلك مهم.. ولكنه لا يمنع من انهيار هذه التحليلات والتوقعات لأن شعبا قرر أن يغير المعادلة».

وترصد منال لاشين عناصر الضعف التى كانت عليها مصر ليلة «23 يوليو» ورغم ذلك وجد الشعب طريقه مع زعيم آمن به.. وانتقلت مصر إلى زمن أفضل.. ورغم أن ظروف مصر ليلة «30 يونيو» أكثر تماسكا فإن هيكل يصر على أننا سنفقد أنفسنا ووطننا فى صحراء التيه.

بل.. قبل ذلك.. فور قيام ثورة يناير.. لم يستوعب هيكل التغيير الذى حدث.. وراح فى حوار مع الأهرام يتحدث عن المخاطر والصعاب قائلا: «نحن مسافرون إلى المستقبل.. دون تحضير حقيبة.. أو تذاكر السفر.. أو معاطف الشتاء».

وتضيف منال لاشين: إن هيكل لم يتوقف ليسأل عن أحلام وتطلعات المسافرين؟. ألم ينتبه إلى أننا أمام مسافرين جدد.. ولاعبين جدد.

أما تفسير سواد هيكل فهو أنه مؤمن بأن جيله لن يتكرر.. وتجربته لن يكون لها مثيل.

ولو كانت المتاعب الاقتصادية تتجسد فى أزمات الغذاء والماء والطاقة فإن آراء الخبراء فيها لا تخلو من كميات مناسبة من الضوء.. إن «هيكل يتابع بالقطع مقالات الخبير الاقتصادى المصرى العالمى الدكتور محمد العريان.. وهو يرى: أن «الاقتصاد المصرى يمتلك من التنوع ما يجعل عودته للحياة أمرا سهلا.. المهم أن نختار الطريق.. ونبدأ فى العمل الجاد».. لكن.. لا أحد قادرًا على إخراج هيكل من كهف التشاؤم.

وذات مرة جلس هيكل مع فاروق العقدة (المسئول السابق عن البنك المركزى) واستمع منه لساعات شرحا للاقتصاد المصرى.. الصعاب والتحديات.. الفرص المتاحة.. وروشتة العلاج.. ومن بين ما قال العقدة جملة أوصلها إلى محمد مرسى وهو فى الحكم «كل اللمبات الحمراء مولعة».. دلالة على الخطر.. فأعجب هيكل بالوصف واختصر به كل ما قاله «العقدة».

منذ يناير 2011 انفجر هيكل فى الكلام.. وصل إلى رقم قياسى لم يحققه أحد.. وحسب قاعدة العرض والطلب.. كان المعروض من هيكل أكبر من الطلب عليه.. والشغف به.. فلم يعد عنصر جذب لتوزيع الصحف أو لمشاهدى الفضائيات كما كان.

يضاف إلى ذلك أنه غرق فى متاهات صعبت على من يتابعه فهم ما يريد الوصول إليه.

لكن.. الأهم.. أن هيكل فقد الميزة الأساسية التى جعلته يحافظ على القمة.. فقد ميزة تقديم معلومات لا يملكها أو يصل إليها غيره كانت تجعله حديث المدينة.. ومثار اهتمامها.

لقد كان هيكل يحصل على معلوماته ومستنداته من خلال تقربه من السلطة.. ليحتفظ بها عدة سنوات حسب الظروف ثم يخرجها فى الوقت المناسب ليضعنا فى حالة انبهار.

وكانت قيود النشر التى فرضتها الأنظمة السياسية تضاعف مع مرور الوقت من قيمة ما يحتفظ به.

لكن.. انفجار الحرية التى نالها الإعلام بعد 25 يناير أدخل الجميع فى سباق النشر الفورى دون انتظار.. أو مباراة الكشف عن الحقيقة على الهواء مباشرة.. بما فى ذلك تقارير أمنية ممنوعة.. وتحقيقات جنائية جارية.. ومستندات سياسية محرجة.. بل.. أكثر من ذلك تسجيلات وتسريبات شخصية لرموز مؤثرة.

لم يعد فى مصر تقريبا سر ينتظر أن يبوح به هيكل.. أو معلومة خاصة ينفرد بها.. ففقد أهم مميزاته المهنية.. وحاول تعويض النقص بالتحليلات والتفسيرات والاجتهادات.. لكنه.. كان وهو يقدمها غارقا فى ماض بعيد.. فلم يجد فيها أحد إضافة سوى التشاؤم والسواد.

أكثر من ذلك.. تراجع هيكل خلال زمن خاطف عن ما قال.. فما يقوله يوم السبت فى صالون.. ينفيه يوم الأحد فى جريدة.. وكأنه بذلك النفى يسترضى جمهورًا لم يقبل منه ما تراجع عنه.. وكأننا أمام مسرحية يومية تتغير حسب ذوق الجمهور.. فيما يعرف بالتأليف الفورى.

الدليل المباشر على هذه الحقيقة.. أنه بعد أن هوجم فى صالون الساوى بسبب طلاء الدنيا بالسواد بدا أكثر تفاؤلا فى حواره مع الأهرام يوم الأحد 16 فبراير بعد أيام قليلة.

أخذ فى اعتباره ما قيل من نقد عن تجاهل الشعب المصرى فقال: «الشعب المصرى قادر على مسئولية الأمل وليس لديه بديل آخر غير الأمل».

وأضاف: «هناك نظام جديد يوشك أن يقوم بفكر جديد وبرؤية واضحة وإرادة مصممة».

وفى موضع آخر استطرد: «لا بد أن نتذكر أن التجارب السابقة علمت الجميع أن جماهير العالم العربى كله كانت ضمن أهم العوامل التى حمت النظام الثورى فى مصر».

وواصل هيكل نثر بقع الضوء المبدد للظلام الذى أطفأ فيه النور من قبل قائلا: «وفى كل الأحوال فإن مصر لا تستطيع أن تواصل تمزيق نفسها على العشاء كل مساء على شاشات الفضائيات.. ولا تستطيع أن تعذب نفسها على الإفطار كل صباح مع صفحات الجرائد».. ونسى أن ما يقول فى فضائيات المساء على العشاء وما ينقل عنه فى صحف الصباح على الإفطار هو جزء كبير منه.. يصعب عليه إنكاره.

هل يمكن الكتابة بالطلب على طريقة «الدليفري»؟. هل يمكن أن تكون الروشتة التى يكتبها الطبيب حسب مزاج المريض؟. هل يمكن أن يكون التحليل السياسى «بناء على طلب الجماهير»؟

وفى صالون السناوى منح هيكل المتحفظ فى منح الألقاب لقب «مفكر» لشخص وجدناه فجأة فوق رؤوسنا.. دون أن نعرف عنه الكثير.. هو الدكتور مصطفى حجازى.

لقد ضاعف نيشان هيكل الذى وضعه على صدر مصطفى حجازى علنا على الهواء مباشرة من اهتمامى به.. فلا يولد فى مصر مفكر كل يوم.. بحثت وفتشت عنه.. وكانت نتيجة التحريات مقال نشرته فى الفجر بعد أيام قليلة من الصالون.

لنقرأ المقال لنعرف السبب الخفى الذى جعل هيكل يمنحُ مصطفى حجازى أهم لقب يمكن أن يحصل عليه شخص فى الكون:

للكلمة بيت تسكنه.. بيت عبادة.. أو بيت دعارة.. فالعقل يزنى مثل الجسد.. أحيانا. مقدمة يمكن شطبها.

مصر تمشى على حقل ألغام.. ولو كانت الثورة قد أضاءت قناديل العقل فإن الانتهازية أطفأتها.

مقدمة أخرى يمكن شطبها.

الكتابات التى لا تغير أيام البشر ولا تفتح لهم طريقا أو أفقا ولا تنقل أصواتهم أو تترجم إنسانيتهم.. تبقى دائما خارج الأبواب.

مقدمة ثالثة يمكن شطبها.

عندما تسأل محمد حسنين هيكل عن فيلسوف مثل الدكتور فؤاد زكريا انتقد بشدة وموضوعية كتابه «خريف الغضب» فإن علامات «الاشمئناط «الصامتة تسيطر على ملامح وجهه.. وكأنه لم يسمع به.. أو قرأ له.

لكن.. هيكل الحريص على عدم منح الألقاب والأوسمة تخلى عن طبيعته.. وتورط فى وصف الدكتور مصطفى حجازى بـ «المفكر».. وقلده دون حيثيات نيشان التميز.

والمفكر حسب التعريفات الموسوعية الشائعة شخص يحمل العديد من الأفكار والنظريات ذات المعرفة الواسعة.. أو شخص ينهمك فى إنتاج الأفكار ونشرها.. أو شخص ذو خبرة ثقافية بارزة تمنحه مكانة مرموقة فى الخطاب العام.. فهل ينطبق تعريف واحد منها على مصطفى حجازى؟

ما يتوافر من معلومات عنه وهو قليل يشير إلى أنه تخرج فى كلية الهندسة جامعة عين شمس.. حصل على الدكتوراه من جامعة جنوب كاليفورنيا.. وهى جامعة خاصة.. تتساهل أحيانا مع الدارسين الغرباء كما فعلت مع محمد مرسى الذى حصل على الدكتوراه منها.

عاد مصطفى حجازى إلى جامعته المصرية ليقوم بالتدريس فيها.. ولكن.. طموحه السياسى على ما يبدو تجاوز طموحه الأكاديمى.. فنظر حوله.. فلم يجد سوى الحزب الوطنى.. فاتجه إليه وقد سيطر عليه جمال مبارك ومجموعته.. وحاول الدخول إلى لجنة السياسات.. ولكن.. لا أحد هناك التفت إليه.. أو استجاب لطلبه.

وعادة ما نجد «المفكر» شخصا هائما.. سابحا فى ملكوت العقل.. شاردا يبحث عن تفسير مختلف عمن سبقوه لمعضلات الكون.. أو حلول غير تقليدية لمتاعب الواقع..

غالبا ما نجد المفكر غير مهتم بمظهره.. اهتمامه الأكبر بجوهره.. لكن.. «المفكر» مصطفى حجازى اهتم بهندامه أكثر من اهتمامه بأفكاره.. وكانت أولى إنجازاته الفكرية الظهور علنا بملابس أنيقة.. تبرز فيها رباطة العنق المبهرة الألوان تحت ياقة قميص مستقيمة وقصيرة توصف بـ «إيطاليان كت».. أو القصة الإيطالية.. وقد اقتبسها بيت الأزياء فالنتينو من ثياب زعماء المافيا فى صقلية.. وكان أحمد عز أمين تنظيم الحزب الوطنى قبل حله أول من جن بها فى مصر.

بدا واضحا أن مصطفى حجازى متأثر بأحمد عز.. لقد عجز عن أن يصبح واحدا من رجاله.. فقرر أن يكون مثله.. ولو بتقليد ثيابه.

ويشى اهتمامه المبالغ فيه بالثياب برغبة دفينة فى تحقيق نجومية سريعة.. فمن لا يهتم بأفكاره يهتم بكرفتاته.. وفى الوقت الذى تحتاج فيه مصر إلى عروض أفكار نجده يميل ناحية عروض الأزياء.

وحسب ما عرفت فإن هناك من مهد له الطريق نحو الظهور على شاشات الفضائيات ليقدم نفسه بالسرعة المناسبة فى حوارات تلفزيونية يتحدث فيها ببراعة وإن ينتهى تأثيرها بسهولة.. المهم أن ينبهر الناس بطريقة كلامه ولو لم يقل شيئا مفيدا أو مفهوما.. والأهم أن يصبح نجما تمهيدا أن يمنحه هيكل لقب مفكر.

والمؤكد.. أن ظهوره التلفزيونى كان سببا فى توليه منصب مستشار رئيس الجمهورية.. فقد قال لى عدلى منصور إنه اختاره بعد أن شاهده وسمعه فى التلفزيون.

إن الكلمات فقدت معناها.. والمصطلحات تاهت فى صخب الثرثرة.. والأوصاف لم تعد تعبر عن الموصوف.. كل لواء ترك الخدمة.. خبير استراتيجى.. كل صحفى أصابته الشيخوخة.. كاتب كبير.. كل من يستخدم تعبيرات معقدة.. مفكر سياسى.. من لا يملك أعطى لمن لا يستحق.

أكثر من ذلك بعض من رفضهم نظام مبارك أصبح راكب موجة يناير أو يونيو وأصبح ثائرا.. الثورة بالنسبة إليه كانت ورقة يانصيب فازت بجائزة مغرية.

بعد أن فشل مصطفى حجازى فى أن يدخل إلى نظام مبارك من الباب قرر دخوله من الشباك.. مد جسوره مع شركة كونها محمود محيى الدين وزياد بهاء الدين وبهاء

على الدين هلال.. وتعاون معهم فى تخصصه.. الهندسة المدنية قبل أن يكشف عن مواهبه الاستراتيجية.

لكن.. محمود محيى الدين لم يستعن به بعد أن تولى وزارة الاستثمار تحت يده هيئة سوق المال والرقابة على التأمين وشركات قطاع الأعمال وفضل الاعتماد على صديقه وربيبه زياد بهاء الدين الذى تولى رئاسة هيئة الاستثمار ثم تولى هيئة الرقابة المالية وواصل المسيرة فى ظل نظام مبارك وصعد إلى منصب نائب رئيس وزراء فيما بعد.. فى ظل نظام ما بعد يونيو.. أما محمود محيى الدين فقد تنازل فجأة عن طموحه السياسى وانتقل للعمل فى البنك الدولى.. مفضلا الاختفاء بعيدا.

لم يجد مصطفى حجازى مفرا من أن يشق طريقه بنفسه فأشهر شركة خاصة لحوكمة الشركات.. والحوكمة تعبير يونانى الأصل.. انتقل إلى لغات مختلفة حتى وصل إلينا بهذه الكلمة.

وحسب تفسير الدكتورة نبيهة جابر (كلية التكنولوجيا بالمطرية) فإن الحوكمة تعنى «مجموعة من القوانين واللوائح والنظم والقرارات التى تهدف إلى تحقيق الجودة والتميز فى الأداء باختيار أساليب مناسبة وفعالة توصل الشركة إلى ما تسعى إليه من أهداف وطموحات».

وتشمل تلك الإجراءات: الشفافية.. ونبذ الفساد.. وتوفير ظروف مناسبة تزيد من إنتاج العمالة.. بجانب حماية المساهمين بالإفصاح السليم عن المعلومات المالية الضرورية.. مثلا.

إن البضاعة التى فاجأنا بها مصطفى حجازى سبق أن طرحت فى الأسواق.. دون أن ينسب أحد لنفسه صفة مفكر.. فالقواعد المفروضة من الحوكمة مستوردة.. ومتاحة.. ومترجمة.. بل.. أكثر من ذلك تتمتع ببساطة تنفر من التعقيدات التى أضفاها مصطفى حجازى عليها.

ولكنها البراعة فى أن يسوق بنفسه بما يوحى لغيره بأن «تحت القبة «فكرا».. فى حالة من سحر البيان يبعد من ينجذب إليه عن التنقيب والحفر واكتشاف أن لا شىء تحت القبة.

نجح فى أن يصبح مستشارا للرئيس.. دون أن نعرف بماذا ينصح الرئيس؟. فمرة سمعنا أنه مستشار سياسى.. ثم وجدناه يعقد مؤتمرا صحفيا لاعبا دورا إعلاميا.. ووجدنا المستشار الصحفى للرئيس (أحمد المسلماني) يلتقى بالأحزاب.. ويلتقى بشيوخ القبائل.. ويتفقد منطقتى حلايب وشلاتين.

ومرة أخرى سمعنا أن مصطفى حجازى أصبح المستشار الاستراتيجى للرئيس.. دون أن نعرف ما هى ملفات القضايا الاستراتيجية التى يعرضها عليه؟. بل ودون أن نجد بيانا من الرئاسة يشرح سبب اختياره أساسا.. أو يعرض لنا سيرته الذاتية التى تكشف عن معلومات وإنجازات تجعلنا نقتنع بالمنصب الذى يشغله.

إن السيرة الذاتية المناسبة ضرورة لتحديد المنصب المناسب.. لكننا.. أمام حالة فريدة من نوعها.. مهندس مدنى يصبح مستشارا استراتيجيا للرئيس.. لماذا لا يصبح الحاصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية من هارفارد المستشار الطبى لجمعية الرفق بالحيوان؟

والمؤكد أن السيرة الذاتية للمهندس (المدني) العبقرى لا تكشف عن خبرة سياسية يتمتع بها.. أو طريقة مبتكرة نعالج بها أزماتنا المتعددة.

بل.. أكثر من ذلك وجدناه يتحدث بلغة «يجب».. و«لا بد».. «يجب أن نفعل».. «لا بد أن نتغير».. إنها لغة الناصحين لا لغة المسئولين.. الناصحون يقترحون.. ينتقدون.. يثرثرون.. لكن.. أما وقد أصبح الناصح مسئولا كبيرا فى رئاسة الجمهورية فإننا ننتظر منه جملًا من عينة «فعلنا كذا وكذا».. و«حققنا كذا وكذا».. وخطتنا «كذا وكذا».. والتبرير الوحيد للفشل الذى نقبله منه أن يخرج علينا قائلا: لقد اقترحت على الرئيس ما يخرجنا من أزماتنا لكنه لم يأخذ بها لذلك أستقيل.

وفى صالون السناوى وصف مصطفى حجازى الدولة فى مصر بأنها «بلا عقل».. جاء الوصف بعد أن استمر فى منصبه الرفيع أكثر من سبعة شهور.. مما يعنى أنه فشل فى مهمته.. مهمة إعادة العقل المفقود إلى الدولة بمفكر على مستواه.

والحقيقة أن عنده حقًا.. فأكبر دليل على غياب العقل عن الدولة أنها اختارته مستشارا استراتيجيا فى ديوان رئاستها.

لكن على جانب آخر.. هناك تفسير لمنحه لقب مفكر بقرار فورى من هيكل.. تفسير يحتمل الخطأ كما يحتمل الصواب.. إن مصطفى حجازى كان المسئول الرسمى الوحيد الذى شارك فى مؤتمر دعت إليه شركة «هيرميس» التى يعمل فيها حسن محمد حسنين هيكل.. المؤتمر عقد فى سبتمبر 2013.. فى فندق إنتر كونتنتال بارك لين.. البقعة الراقية فى لندن.. لم يشارك فى المؤتمر وزير الاستثمار أو وزير المالية أو زير التخطيط كما هو متوقع.. لكن.. شارك فيه «المفكر» مصطفى حجازى دون مبرر موضوعى لمشاركته.. لكن.. هيكل على ما يبدو اعتبر مشاركته نوعا من مساندة ابنه الهارب على ذمة قضية جنائية شهيرة.. اتهم فيها هو وجمال وعلاء مبارك (سنعرف تفاصيلها فيما بعد).

ولم يتردد هيكل ردا للجميل فى أن يذهب بنفسه إلى حفل توقيع كتاب مصطفى حجازى «حجر رشيد» بعد ساعات قليلة من وصول هيكل من الخارج.. رد الهدية بهدية.. بل ضاعف حجمها فيما بعد بمنحه لقب مفكر.

وأغلب الظن أن الذى أوصل مصطفى حجازى إلى رئاسة الجمهورية هو محمد البرادعى فور اختياره نائبا للرئيس.. فالعلاقة بينهما قوية ومتينة.. وتتمتع بمباركة أمريكية.. فالدكتور المستشار المفكر قبل أن يظهر على السطح كان ضيفا دائما على السفارة الأمريكية.. وعندما ألقت وزيرة الخارجية كونداليزا رايس محاضراتها الشهيرة فى الجامعة الأمريكية عن الفوضى الخلاقة كان مصطفى حجازى يجلس فى الصفوف الأولى.

لقد جاء من المجهول شخصيات لا نعرف لها أولًا من آخر.. لا نعرف لها رأسا من قدم.. لا نعرف من أين أتت.. ولا من دفع بها.. ولا من دعمها وساندها؟. ولا من فرضها علينا دون حيثيات ونفخ فى صورتها دون مبررات.

إن كثيرا من الفيشار الذى راح يقفز فوق سطح الأحداث الساخنة بدا طعمه فى الحلق مثل طعم عصفور ميت.

انتهى المقال.. وانتهى الفصل.

5

أى شعب هذا الذى سيقوم بثورة ويقدم آلاف الشهداء؟!

لا تحتمل قاعة «أيورت» فى الجامعة الأمريكية أكثر من 800 ضيف.. لكنها.. فى تلك الليلة ازدحمت بأكثر مما تطيق من ضيوف إلى حد الاختناق.. فالمتحدث هو الصحفى الأمريكى سيمور هيرش.. ورغم أن موضوع المحاضرة عن «صحافة العمق» فإن مسار الحديث أخذ اتجاها آخر قبل أن يعود إلى مجراه الطبيعى.

صاحب الدعوة مؤسسة هيكل التى أسسها لدعم الصحفيين الشبان.. وزيادة قدراتهم المهنية على التحرى والتقصى.. بسفر بعضهم إلى صحف بريطانية شهيرة.. يتعلمون منها قواعد وأصول وأساليب حديثة أصبحت غائبة عنهم.. بجانب دعوة كبار الصحفيين الأجانب للإشراف على دورات وإلقاء محاضرات يعرضون فيها تجاربهم وخبراتهم.. وهكذا.. جاء سيمور هيرش إلى القاهرة.

كان من بين أهداف تلك المؤسسة نقل ما يمتلك هيكل من مستندات ووثائق إلى مكان أمين.. مثل مؤسسة الأهرام.. أو جامعة القاهرة.. ولكن.. سرعان ما تراجع هيكل عن ذلك.. بل وجمد نشاط المؤسسة إلى حد الإلغاء.

قدم هيكل محاضرة سيمور هيرش، التى ألقيت قبل أعوام قليلة من ثورة يناير 2011، بشكر رئيس الجامعة الدكتور دافيد أرنولد على الاستضافة كاشفا أن جامعة القاهرة اعتذرت عن قبول المحاضر تحت قبة قاعتها الكبرى بحجة أمنية واهية.. وبحجة دينية فاضحة.. أن المتحدث الذى ولد فى شيكاغو عام 1937 يهودى.

وأضاف هيكل قائلا دون أن يخفى دهشته: إن مصر (الرسمية) التى استقبلت شخصيات (إسرائيلية) مثل مناحم بيجن وموشى ديان ويهود باراك وشيمون بيريز ترفض استقبال صحفى كشف عن مذبحة «ماى لوي» التى ارتكبها الأمريكيون فى فيتنام وفاز بسببها بجائزة بوليتزر عام 1969، والأهم أنه فضح البرنامج النووى

الإسرائيلى فى كتابه «الخيار شمشون» قبل أن يدين ما جرى للعراقيين من تعذيب مهين فى سجن «أبو غريب».

بدأ هيرش محاضرته بالقول: «إنها المرة الأولى التى يذكر فيها اسمه بجانب اسم مناحم بيجن».. فى إشارة للتعصب الأعمى الذى سيطر على القاهرة التى منعته جامعتها العريقة من دخولها بسبب ديانته.

ولم يتردد تأكيدا لتسامحه الدينى والسياسى فى الحديث عن لقاء جرى بينه وبين زعيم حزب الله حسن نصر الله فى بيروت مؤكدا على رصده مبكرا للحرب التى جرى تدبيرها وتسخينها وتمويلها بين الشيعة والسنة لتكون بديلا للصراع العربى الإسرائيلى.. وهو ما تحقق الآن.

فى تلك الليلة أيضا، وكما كشف هيرش فيما بعد فى مقال نشره فى صحيفة «واشنطن بوست» يوم 13 أكتوبر 2013، تبادل هيكل وهيرش حوارا جانبيا عن الثورة والجيش والإخوان أصبح بعد سنوات قليلة أكثر أهمية من موضوع المحاضرة.. أو ربما كان دليلا عمليا عليها.. ففى عمق كل حادث نجد من الخبايا أكثر مما يظهر على سطحه.

هيرش: لو وصل الإخوان إلى الحكم بثورة أو بصفقة أو بطريقة أخرى فإنهم سيواجهون حربا شرسة من جيش عميق مغروس حتى العنق فى أمور السياسة بشكل غير مباشر وغير مرئى أو مكشوف.

هيكل: هل تعتقد أن الجيش سيسمح للإخوان بالوصول إلى الحكم ورؤية العجب العجاب من فساد متراكم.. ويسلمون بأنفسهم وأرواحهم وكامل حريتهم للإخوان؟

هيرش: قد يحدث هذا بثورة يضحى فيها الآلاف بأرواحهم مقابل تطهير الجيش.. المؤسسة التى لو طهرت ستسير بالبلاد نحو مستقبل واضح.. مستقيم.

هيكل مبتسما فى سخرية: أى شعب هذا الذى تحدثنى عنه الذى سيضحى بالآلاف ليطهر الدولة والجيش؟!

أجاب هيرش على ابتسامة هيكل الساخرة بابتسامة ساخرة أخرى دون تعليق مكتفيا بتسجيل الحوار الخاطف والمثير فى أوراقه الخاصة منتظرا فرصة مناسبة للعودة إليه ونشره.

وجاءت الفرصة بعد أن قام الشعب الذى سخر منه هيكل بثورتين (فى 25 يناير و30 يونيو) مضحيا بالآلاف من الشهداء.. حسب نبوءة هيرش.. مطالبا بتطهير مؤسسات الدولة من الفساد.. فاتحا الطريق أمام الجيش ليقود البلاد فى خط مستقيم.. متحفظا فى التعامل مع الوجوه القديمة التى نهبت البلاد تحت حكم مبارك.. معلنا الطلاق بين الثروة والسلطة بعد زواج دام سنوات طوال أنجبا فيها قبيلة من الفساد.

اتصل هيرش تليفونيا بهيكل قائلا:

هيكل.. ها هو الشعب يا صديقى قد ثار مضحيا بالآلاف مقابل حريته وكرامته.

لكن.. هيكل أغلق الهاتف فى وجهه.. ثم أغلق كل الهواتف الأخرى التى يعرف هيرش أرقامها.. حسب ما نشر فى مقاله.

وعلق هيرش على ما فعل هيكل قائلا:

«وبما أنك يا صديقى تعرف أننى عنيد.. سأقول لك: «كن شجاعا» واعترف أنك قلت إن الجيش يجب أن يبتعد عن السياسة ويلتفت إلى عدوه الأساسى ويترك الحكم لأى حكومة حتى لو كانت «حكومة إسلامية».. وأنك قلت إن الحكومة الإسلامية هى الوحيدة التى يمكن أن تجبر العالم على القبول بمصر فى وضع جديد.. وأن الليبراليين والإعلاميين أغلبهم مجندون للأجهزة الحساسة».. بما يوحى بأن لا فائدة ترجى منهم.

وكرر هيرش: «إن هيكل ليس شجاعا بما يكفى.. بدليل مساندة الجانب الخطأ».

مضيفا: «إن هيكل الذى كان يحترمه قد اختفى بعد أن سقط القناع عن وجهه».

وزاد هيرش فى سحب صفة الشجاعة عن هيكل مستطردا: «لماذا خالفت مبادئك.. وساندت العسكر.. ووقفت فى الجانب الذى كنت تعتبره الجانب الخاطئ».

وأنهى هيرش مقاله الحاد قائلا: «افتح تليفونك يا هيكل فأنا لا يشرفنى الاتصال بك ثانية لقد اختفى هيكل الذى أحترمه وسقط القناع عنه».

هنا نسجل عدة ملاحظات:

الأولى: إن هيكل لم يثق فى الشعب المصرى الذى تحدث عنه أكثر من غيره أكثر من ستين سنة.. وعبر عن ذلك بالسخرية من قدرة الشعب المصرى على القيام بثورة أو حتى

رغبته فيها.. وامتدت السخرية من استعداد الشعب المصرى لتقديم الآلاف من الشهداء قبل أن يطهر مؤسسات الدولة ويمشى فى طريق صحيح.

الثانية: إن هيكل يرى فى الحكومة الإسلامية ما لا يراه فى حكومة أخرى.. وكانت تلك الرؤية مبكرة قبل سقوط نظام مبارك ووصول الإخوان إلى الحكم.. مما يعنى أنه كان يعلم بالخطوات التمهيدية التى سبقت فوز محمد مرسى إلى الرئاسة.. وربما كان ضالعا فيها.

الثالثة: أن الصحف المصرية التى تلهث وراء ترجمة مقالات سيمور هيرش وتبرزها أصابها الشلل فى التعامل معها.. وتجاهلتها تماما.. مما يعنى أن هيكل أصبح محصنا من الهجوم عليه.. إلا قليلا.

الرابعة: إن هيكل الذى يزهو بمجموعات الروائيين والصحفيين والإعلاميين الذين يحيطون به ويدافعون عنه ويتحمسون لصحبته يعتبر أغلبهم عملاء للأجهزة الحساسة.. مهمتم إبقاء النظم التى يخدمونها على ما هى عليه وإن تحدثوا بغير ذلك.

على نفس نهج سيمور هيرش سار الكاتب والسيناريست بلال فضل.. كتب مقالة مؤلمة أيضا.. فتح فيها نفس الجراح.. لكنه.. لم يحظ بنشرها فى صحيفة «الشروق» التى كانت تترك له مساحة يومية ثابتة وبارزة فى صفحتها الأخيرة.. كان ذلك فى 5 فبراير 2014.. على أنه بعد منع نشر المقال توقف عن الكتابة للصحيفة.. متناسيا أو متجاهلا أن هيكل هو مستشار الصحيفة.. وأن أبناءه هم مؤسسوها وناشروها ولو لم تظهر أسماؤهم.. بل إن هيكل نفسه هو الذى رفض نشر المقال بعد عرضه عليه.. حسب ما ذكر بلال فضل بنفسه على حسابه فى التويتر.

لقد عاد فضل إلى ما نشر هيكل عن الفيلد مارشال برنارد مونتجمرى فى كتابه «زيارة جديدة للتاريخ» الذى طبع عام 1985.. تحدث فيه هيكل عن علاقته بسبع شخصيات عالمية.. ملك إسبانيا خوان كارلوس.. العالم الأمريكى ألبرت آينشتين.. المناضل الهندى جواهر لال نهرو.. الإمبراطور الإيرانى محمد رضا بهلوى.. والزعيم السوفيتى يورى أندربوف.. وبطل معركة العلمين برنارد مونتجمرى.

إن إحدى حسنات القرى السياحية فى الساحل الشمالى (مارينا وأخواتها) أنها عرفت المصريين بمعركة «العلمين» التى تحمل نفس اسم المدينة الصحراوية التى يمرون عليها وهم فى ثياب الصيف الحار الرطب.

لقد فرضت تلك المعركة نفسها على الحرب العالمية الثانية.. وساهمت فى حسمها لصالح الحلفاء.. ولا تزال مقابر الجنود وشواهدها ونصبها التذكارية قائمة فى مبان مميزة.. يصعب على من يمر عليها تجاهلها.. وإن صعب عليه استيعاب الحكمة التى تنطق بها.. أن المنتصر والمهزوم كلاهما ينتهى تحت التراب.

فى مايو 1967 (قبل هزيمة يونيو بأيام) جاء القائد البريطانى المنتصر.. مونتجمرى ليزور أرض المعركة التى كسر فيها خصمه الألمانى العنيد.. فيلد مارشال أروين روميل.. كانت مناسبة تستحق.. مرور ربع قرن من الزمان على المواجهة الطاحنة بين الرجلين.

لم يكن مونتجمرى وحده الذى يستعيد ذكرياته فى تلك البقعة التاريخية البعيدة.. كان هناك أيضا هيكل نفسه الذى غطى المعركة عام 1942 وهو مساعد مراسل صحفى تحت التمرين فى صحيفة «إجيبشيان جازيت».. الصحيفة المعبرة عن الاحتلال البريطانى فى ذلك الوقت.. وقدر له بعد كل هذه السنوات أن يرافق الضيف المتميز فى رحلته.. ويجلس معه ساعات طويلة.. يتحدثان على شاطئ البحر.. وعرفنا ما جرى بينهما فى كتاب «زيارة جديدة للتاريخ» الذى نشره هيكل بعد 18 سنة من الحوار.. وفى غياب أهم طرفيه الذى كان قد رحل عن الدنيا.. ولم يراجع ما قيل على لسانه.

دار الحديث عن العلمين وحرب السويس وإسرائيل والجيش المصرى والسلاح السوفيتى.. وعبر مونتجمرى عن كراهيته للسياسة وللجنرالات الذين يتحولون إلى ساسة.

«وعلى غير انتظار اندفع مونتجمرى فى عملية اختراق مفاجئة لخطوط هيكل وسأله:

مونتجمرى: لماذا يتحول الجنرالات عندكم إلى ساسة؟

هيكل محاولا كسب الوقت: أى جنرالات؟

مونتجمرى مسرعا: ناصر وزملاؤه.

هيكل: ناصر ليس جنرالا وآخر رتبة وصل إليها فى الجيش رتبة الكولونيل (مقدم) فقط.

مونتجمرى مشددا الهجوم: حسنا.. سوف أعدل سؤالى.. لماذا يتحول الكولونيلات إلى ساسة؟

هيكل: حلمك.. ودعنى أشرح لك القصة بالتفصيل.

وراح هيكل يتحدث عن ظروف مصر ومراحل تطورها والظروف التى أحاطت بالثورة وكيف أن الذين قاموا بها مجموعة من شبان الجيش قاموا بها بوصفهم شبانا وطنيين لا ضباطا فى الجيش بل كانت مهمتهم الأولى فى الثورة هى الاستيلاء على مقاليد الأمور فى الجيش لكى يمنعوا الملك من استخدامه ضد ثورة الشعب ثم يضعونه هم تحت تصرف الثورة الشعبية لتأمين أهدافها.

واستعرض هيكل ظروف العالم الثالث كله «ودور الجيوش فيها باعتبارها المؤسسات الوحيدة القادرة على كفالة الاستمرار فى أوقات الأزمات الكبرى».

مونتجمرى: إنك لن تستطيع أن تقنعنى.

هيكل: إننى لا أحاول إقناعك وكيف استطيع أن أقنعك بشىء أنا نفسى غير مقتنع به، إننى أشرح لك ملابسات حالة ولم أكن أقنن قاعدة.. على وجه اليقين أنا لست من أنصار تدخل العسكريين فى السياسة.. لا أريد للجنرالات أن يصبحوا ساسة بنفس المقدار الذى لم ترد فيه أنت للساسة أن يصبحوا جنرالات.. لكن أمامنا فى مصر وفى العالم الثالث كله تقريبا ظاهرة لا بد لها من تفسير وحين أفسر فإننى لا أبرر.

هنا تدخل بلال فضل ليصطاد سمكته قائلا: هل لا يزال (هيكل) غير مقتنع بتدخل العسكريين فى السياسة؟

وسر السؤال ما نشر عن العلاقة القوية التى نمت بين هيكل ووزير الدفاع عبد الفتاح السيسى.. ورغم أن هيكل نفى وجوده ضمن فريق إعداد برنامج السيسى للانتخابات الرئاسية فإنه على الأقل قريب منه ويتحدث إليه ناصحا ومرشدا وخبيرا.

لقد استجاب السيسى لثورة الشعب فى 30 يونيو وأطاح بحكم محمد مرسى.. واستجاب الشعب لندائه فى 26 يوليو وخرج ليفوضه فى الحرب على الإرهاب.. ثم

خرج الشعب فى 25 يناير التالى ليطالب به رئيسا للبلاد.. وفى كل هذه الأحداث لم يكن هيكل بعيدا عنه.. فهل تغيرت رؤيته الرافضة لتحول الجنرالات إلى ساسة؟. هل ينسى ما يكتب؟. أم أنه لا يؤمن بما يكتب؟. أو ربما يكتب حسب الظروف والمصلحة والرغبة المزمنة فى الانتماء لكل سلطة تحكم حتى لو اختلفت عن سلطة سابقة أو سلطة لاحقة عنها.

ويتواصل الحوار بين هيكل والمارشال البريطانى العجوز:

مونتجمرى: إننى قد أكون مستعدا لفهم موقف «ناصر» لكن هناك ضمن المجموعة ضابط آخر أصبح «مارشالا سياسيا» (يقصد عبد الحكيم عامر) ليست هناك حاجة على الإطلاق لـ «مارشال سياسى» المارشالية لا تكون إلا بقيادة الجيوش فى الميدان وليست من أى سبب آخر.

هيكل مقاطعا: قد لا اختلف معك كثيرا ومع ذلك فلماذا لا تسأله (عن ذلك)؟

مونتجمرى: هل أستطيع أن أسأله فعلا إذا لقيته وهل يغضبه السؤال؟

هيكل ضاحكا: لا أعرف.

هنا أيضا يتدخل فضل بالصيد ويشير إلى السيسى الذى حصل على لقب مارشال (مشير) دون أن يشارك فى حرب.. أو يخوض فى ميدان قتال.. إلا إذا كان التخلص من الإرهابيين قتالا.. والقضاء على التنظيمات المتشددة المسلحة حربا.. حسب وجهة نظر البعض الذى يعتبر الحرب على الإرهاب تمثل جيلا جديدا من الحروب.

كما أن رتبة «ماريشال» رتبة عسكرية تختلف عن رتبة «فيلد ماريشال» التى يستوجب منحها أن يكون صاحبها قد سمع دوى مدافع وشاهد بنفسه كثافة النيران.

لقد اختار فضل عنوانا لمقاله «المارشال السياسى» ليسأل هيكل رأيه فى ترقية السيسى إلى مارشال.. هل يعتبره «مارشالا سياسيا»؟ أم مارشالا ميدانيا؟. لكن هيكل أجاب بطريقة غير متوقعة.. منع نشر المقال.. دون أن يتذكر أن زمن المنع والحجب والرفض فى عصر شبكات التواصل الاجتماعى قد انتهى إلى غير رجعة.

ما يلفت النظر فى موقف هيكل من تبادل المواقع بين العسكريين والسياسيين أنه لم ينل مجده إلا بقربه من جمال عبد الناصر.. وكان عسكريا قبل أن يكون سياسيا.. وفى خصوصية الحالة المصرية نجد أن تكوين الجيش سبق تأسيس الدولة المدنية.. بل إن الدولة المدنية قامت على أكتاف المؤسسة العسكرية.. وربما يكون من المناسب والمفيد الرجوع لعرض كتاب خالد فهمى «كل رجال الباشا» المأخوذ عن رسالة أكاديمية للمؤلف.. وكان حماسى للكتاب أنه يكشف خطأ الذين يتحدثون عن «حكم العسكر».. على الأقل هنا فى بلادنا.

إن الإنسان يعيش فى جماعة.. والفيل أيضا.. ويتمتع الإنسان بالذكاء.. والثعلب أيضا.. والإنسان يمتلك القدرة على الكلام.. والببغاء أيضا.. والإنسان يفكر.. والكلب أيضا.. والإنسان يضحك.. والقرد أيضا.

الفرق الوحيد بين الإنسان والحيوان.. التاريخ.. الإنسان حيوان له تاريخ.. يستفيد من أخطائه.. يتعلم منها.. ويتجاوزها.

إن الفأر يقع فى المصيدة منذ مئات السنين بنفس قطعة الجبن الشهية دون تغيير.. ومنذ وقع أول أسد فى شباك صياد وأحفاده يقعون فى نفس الشباك دون تعلم.. ويسهل جرجرة فيل إلى حديقة الحيوان بقليل من الخضرة كما حدث مع جده الأول.. دون خبرة.

أما الإنسان.. فكل تجربة تمر به تكسبه معرفة.. وكل مأساة يتعرض لها لا يكررها.. وكل جحر يلدغ منه لا يمد إليه يده مرة أخرى.. إلا إذا كان حيوانا.. منتهى الإهانة للحيوان.

هذه الرؤية الثاقبة.. الفاهمة.. والواعية.. قدم بها أحمد بهاء الدين كتابه الشهير «أيام لها تاريخ».. منتهيا إلى درس مجانى يجب حفظه.. الأغبياء فقط هم الذين يكررون أخطاءهم.

لقد عشنا فى سنوات ما بعد ثورة يناير مع شعار بدا مغريا ومعديا: «لا لحكم العسكر».. وانتهى الشعار إلى مأساة.. إجبار مصر أحلى عروس فى الدنيا ولو فى عيوننا على الزواج قسرا من قاطع طريق اسمه محمد مرسى.. وعندما طلقها أهلها وأعادوا لها حريتها فى

ثورة يونيو تكرر الشعار.. بنفس الوجوه.. ونفس الحماس.. ونفس التحدى.. فهل نريد أن نصل إلى نفس النتيجة.. إعادة العروس إلى بيت الطاعة الإخوانية؟

لن أناقش أبطال المشهد المتكرر فيما يهدفون.. ولن أخوض فى ذمتهم السياسية أو الثورية.. لكنى سأناقش بكل ما فى العلم من قوة وبكل ما فى المنطق من جرأة شعارهم المزمن «لا لحكم العسكر».. سأفصل الماء النقى عن الزيت الملوث.. لنعرف الحقيقة.

لقد مكث خالد فهمى أكثر من عشر سنوات على مقاعد الدرس والبحث فى جامعات القاهرة وأكسفورد وبرنستون ونيويورك قبل أن يحصل على الدكتوراة فى التاريخ الحديث.. ويضعها فى كتاب «كل رجال الباشا» الذى أضاف إليه عنوانا فرعيا: «محمد على وجيشه وبناء مصر الحديثة».. وصدرت ترجمة الكتاب عن دار الشروق عام 2001.

لا أريد القفز على الأحداث لكى أصل إلى النتيجة التى وصل إليها الباحث المحترف.. إن الدولة المصرية المدنية الحديثة صناعة كاملة للمؤسسة العسكرية.. لكن.. لنضع هذه الحقيقة أمامنا ونحن نقرأ ما كتب من معلومات.. وما رجع إليه من مستندات.

ونبدأ بعام 1823.. فى ذلك العام وصف الرحالة الإنجليزى «سان جون» سوق قرية فى بنى سويف.. حيث يجلس الفلاحون الفقراء القرفصاء وهم يبيعون منتجاتهم المتواضعة.. «وفجأة لاحظنا عددا من ضباط الفرسان» فى بدلهم الفاخرة المبرقشة.. على ظهور خيول مطهمة.. «ويؤدى وضع العالمين جنبا إلى جنب إلى ظهور فارق هائل بينهما».. وضع قديم متخلف.. ووضع جديد متطور ومتحرك ونابض بالقوة والحياة.

لكن.. بعد سنوات قليلة انتقل الفلاحون البسطاء إلى مستوى الفرسان الأقوياء.. أما السبب المباشر فهو أن محمد على (باشا) قرر تجنيدهم.. وكون منهم جيشا صلبا.. نجح فى الوصول إلى جنوب السودان والقرن الإفريقى وحدود أوروبا.. وهدد الإمبراطورية العثمانية فى عقر عاصمتها.. على أن الأهم أن الفلاحين الفقراء غيروا حياتهم وطوروها وانتقلوا إلى عالم أفضل وأرقى بالخبرات التى اكتسبوها فى سنوات الخدمة العسكرية.

وكل من أدى الخدمة العسكرية مثلى يعرف كيف يعيد الجيش صياغة الشخصية الفقيرة البسيطة ويمنحها فرصًا نادرة لتطوير حياتها ويطلعها على خبرات ما كانت لتعرفها لو بقيت فى مكانها.

فى السنوات الثلاث التى يجند فيها شخص غير مؤهل وغير متعلم يجد فرصته فى محو أميته.. وتعلم حرفة.. والتعرف ربما لأول مرة على معنى الانضباط والالتزام واحترام القانون.. بل أكثر من ذلك.. وأرجو ألا أكون متجاوزا.. هناك من لم يعرف قيمة المياه والصابون ووجود أكثر من غيار فى الثياب إلا فى حمامات المعسكرات.

ويرسم لنا وحيد حامد فى فيلم «البرىء» كيف تغير البطل «سبع الليل» بعد شهور قليلة فى الخدمة الإلزامية شكلا قبل أن ينضج عقلا.

وأذكر.. أننى فى فترة التدريب الأساسية كنت أحمل معى قبل النزول فى إجازة قائمة طلبات زملاء فى الكتيبة لافتة للنظر.. «رغيف عيش فينو».. «قطعة جبن رومى».. «سجائر مكنة».. مثلا.. سلع عرفها المجندون الريفيون أول مرة فى حياتهم.. ولاحظت أنهم أكثر من المجندين المؤهلات حرصا على أناقة ثيابهم العسكرية.. ربما تعويضا عن بساطة ملابسهم المدنية.. لقد غيرت الثكنات حياتهم.. ومنحهم الجيش فرصة التغيير.

بدأ محمد على تكوين جيشه بتجنيد أبناء جنسه من الألبان.. لكنهم لم يحتملوا قسوة الطقس الحار فى الحملات العسكرية التى أرسلها إلى السودان.. فقرر أن يخطف السودانيين ليجندهم مثل العبيد.. ولكن.. من وصل منهم سالما كان أقل ممن مات فى الطريق.. ومن صلح للخدمة كان أقل ممن لم يصلح.. فكانت تكلفة الجندى «أكبر من قيمة جوهرة» على حد وصف الباشا نفسه.

لم يجد محمد على مفرا من تجنيد الفلاحين المصريين بعد أن استبعدهم من الخدمة حتى لا تفقد الزراعة قوتها البشرية الضرورية.. فى 18 فبراير عام 1822 قرر الباشا تجنيد أربعة آلاف رجل من الصعيد.. ووضع فى أيديهم السلاح لأول مرة بعد أن حرم عليهم المماليك لمس البنادق أو حمل السيوف.

وبإشادة من محمد بك لاظوغلى ناظر الجهادية بالجنود المصريين تزايد تجنيد الفلاحين حتى وصلوا إلى 130 ألف مجند.. وأصبح مقدرا للتجنيد أن يغير بعنف وجه المجتمع المصرى.. حسب جملة خالد فهمى.. مصدرنا الوحيد الذى نرتكن إليه.

كانت السلطات تفتقر إلى المعلومات عن السكان لتختار من بينهم من يصلح للخدمة.. فقررت القيام بأول تعداد للمديريات (المحافظات) الشمالية فى عام 1827.. حصلت منه على ما تريد من معلومات بعد تصنيفها وتبويبها.. وفى عام 1845 قامت السلطات بأول تعداد قومى عام.. لم يكن لتفكر فيه لولا رغبتها فى تكوين الجيش.

وكلف مشايخ القرى بإحضار المطلوبين للخدمة العسكرية.. ولكن.. بعضهم كان يقوم بتهريب أقاربه إلى قرى أخرى.. فكان لا بد من رسم خرائط تحدد زمام كل قرية لتحديد مسئولية عمدتها.. بجانب عقابه إذا لم ينفذ ما يطلب منه.. وهكذا.. ولدت نظرية الحكم المحلى فى مصر التى عرفت فى ذلك الوقت ولأول مرة أيضا تسمية الشوارع وترقيم المنازل.

ولحقت المؤسسة التشريعية بالركب.. ففرضت قوانين تحاسب من يهرب من الخدمة.. ومن يساعد على الهروب.. ومن يتخلف عن العودة إلى الثكنات.. ومن يرتكب جرائم داخل وخارج المعسكرات.

وسبق ذلك.. خروج البيروقراطية إلى النور.. فالمجند يجب أن تكون لديه شهادة ميلاد.. وشهادة وفاة.. وشهادة تحدد مكان خدمته.. ودفاتر تسجل اسمه وعنوانه وتاريخ ميلاده وما يصرف له من راتب وثياب وغذاء وما يمنح من إجازات وترقيات ومعونات.. ونظرا لأهمية التسجيل أصبح الكاتب موظفا على درجة كبيرة من الأهمية.. وفى عام 1844 صدر قانون ينظم البنية التحتية للإدارة المدنية ينص صراحة على «أن تكون أوراق الدفتر مختومة ومرقمة وكتابتها متصلة بلا صفحات بيضاء فى المنتصف وأن تكون الكتابة واضحة ومقروءة بلا شطب أو كشط».

وربما لا نعرف أن مصطلح «قيد» الشائع فى الحكومة حتى الآن كان يقصد به التجنيد.. وبدقة أكبر.. كان يقصد به «كتابة الاسم فى سجلات التجنيد».. ومن كلمة قيد جاءت كلمة قائد.

وقبل تجنيد المصريين كان الزمن عندهم يقاس بمواسم الحصاد أو بالانتهاء من حفظ القرآن.. لكن.. بعد تجنيدهم تغير مقياس الزمن إلى الوحدات المتساوية القابلة للعد.. الساعات والدقائق والثواني.

وقبل تجنيدهم كانوا يعالجون بوصفات العطارين ودجل المشعوذين وفي أفضل الأحوال كانوا يسلمون أجسادهم للحلاقين.. ومن ثم كانت نسبة الوفيات بين الأطفال شديدة الخطورة.. ومتوسط عمر المواطن لا يزيد عن الخمسين سنة.. ولكن.. ذلك تغير بعد أن عرفت المؤسسة العسكرية طريقها إلى الوجود.. فقد فرض فرز المطلوبين للتجنيد وجود مراكز طبية متطورة.. تكشف الداء وتفرض الدواء.. وسرعان ما انتقلت الخدمات الطبية من العسكريين إلى المدنيين.. وتطورت الرعاية الصحية.

لقد وجدت السلطات أن عليها أن تطبع في أذهان المجندين الجدد أن ما سيختبرونه (في سنوات خدمتهم العسكرية) مختلف تماما عن السخرة أو أي شيء آخر خبروه من قبل.. ولذا فإن طريقة الفلاح مع وقته وبيئته بل وجسمه يجب أن تختلف اختلافا جذريا.. وكان الجديد.. جداول زمنية.. وفحوصات طبية.. ونظم مراقبة قاسية.

أصبحت هناك «كشوف التمام».. و«تصاريح الإجازات».. ومعرفة الحقوق والواجبات.. والوعي بالجرائم وعقابها.. والتمييز بالزي والرتب والعلامات بين الجنود والضباط.. واختلاف ملابس النوم عن ملابس التدريب والتشريفة والقتال.. والتشديد على عدم ممارسة الجنس مع الغلمان.. وكان أمرا شائعا بسبب عزلة الرجال عن النساء في المجتمعات.. وفتح باب الترقي لكل من سعى إلى التخلص من الأمية.. وأجبر الضباط على تعلم اللغات الأجنبية في مدرسة الألسن التي أسسها وأدارها رفاعة بك الطهطاوي.. فعرفت مصر مبكرا قيمة الاتصال بالعالم المتطور في الغرب عبر الترجمات والبعثات.

ولم ينس الجيش في ذلك الوقت أن يبني مساكن قريبة من المعسكرات البعيدة لزوجات الجنود ليعشن معهم ساعات من الخلوة الشرعية حفاظا على روحهم المعنوية وتجنيبهم العلاقات غير السوية.. منتهى الواقعية.

ولربط الفرق المقاتلة في سوريا بالقيادة في مصر وضع نظام مناسب للبريد بتقسيم الطريق بين القاهرة والشام إلى 12 مركزا.. تتحرك «البوستة» بسرعة مثل الماراثون لتصل

إلى الجنود فى أقل وقت ممكن.. أما الفرق التى تمركزت فى السودان فحملت البريد إلى جنودها عبر بواخر سميت بالبوستة الخديوية.. والمؤكد أن نظام البريد الحربى فرض نفسه فيما بعد على نظام البريد المدنى الذى لم يكن له وجود من قبل.

وبجانب البريد حرصت قيادة الجيش على أن يصل تموين الجنود وثيابهم وباقى احتياجاتهم وهم خارج الحدود من داخل مصر.. وإذا ما احتاجوا شيئا من السكان المحليين عليهم أن يدفعوا ثمنه.. واضعة بذلك قاعدة أخلاقية لم تخرج عنها المؤسسة العسكرية فيما بعد.. أن لا تنهب قرية.. ولا تقلع شجرة.. ولا تغتصب امرأة.. على خلاف جيوش كثيرة فى العالم ترك لها قادتها حرية النهب والسلب والقتل والاغتصاب فى كل مكان تصل إليه بعيدا عن وطنها.

يقول خالد فهمى: «لقد حرص الباشا وابنه إبراهيم على أن يحصل جنودهما على ماهياتهم وضروريانهم بانتظام وعدم السماح لهم بالمعيشة على حساب الأرض التى يزحفون إليها.. «فالغنائم محظورة تماما».. واعتمد الجيش على «بنية الدولة الحديثة فى الإعالة».

وأتاحت فرص الحياة الحديثة للضباط المصريين وعيا سياسيا بدأ بإصرار منهم على المساواة بالضباط الأتراك.. وبمرور الوقت تحول الوعى إلى سخط.. وانتقل السخط من الجيش إلى الشعب.

كان سخط المصريين على حكامهم المتحدثين بالتركية قد بدأ فى الظهور بشكل واضح فى الجيش أساسا.. وحسب ما ذكر المراقب البريطانى «جون بارونج» فى منتصف ثلاثينات القرن قبل الماضى: «كان أى جندى من الجيل السابق واقعا بالكامل تحت رحمة ضابطه التركى.. الآن الأمر مختلف.. فشخصية السكان بمجملها تمر بتحول صامت.. ولكنه واضح.. فالعنصر المصرى يحل تدريجيا محل العنصر التركى».

«وبحلول أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر كان العنصر المصرى قد اكتسب قدرا كافيا من الوعى الذاتى لكى «يجرؤ على الاعتراف بوجوده الخاص والتعبير عن نفسه بتمرد علنى.. فالثورة العرابية فى عامى 1881 و1882 كانت بالإضافة إلى أنها ثورة قامت بها قطاعات مختلفة من السكان المدنين والريفيين ضد السيطرة

الأوروبية المزدوجة تمردا من جانب الضباط الفلاحين المتحدثين بالعربية على زملائهم المتحدثين بالتركية».

لقد ساهم الجيش فى صعود الوطنية المصرية بإيجاد خبرة متجانسة شارك فيها عشرات الآلاف من المصريين فى مدة لا تتجاوز العشرين عاما زرعت فيها الشعور بكراهية العثمانيين وساهمت بذلك فى تشكيل «تخيلهم» الجماعى عن الأمة».

وبعيدا عن كتاب خالد فهمى فإنه ليس صحيحا أن الجيش فى مصر يحمى الشرعية ويساندها مهما كانت طبيعة السلطة.. الصحيح أنه يساندها ويباركها لو كانت شرعية نظيفة منحازة إلى الشعب ومحققة لآماله.. لكن.. ما أن تفقد وطنيتها فإنه يتمرد عليها (نموذج أحمد عرابى).. وما أن تفقد صلاحيتها فإنه يتخلص منها (نموذج جمال عبد الناصر).. وما أن تفقد طهارتها فإنه يطيح بها (نموذج حسين طنطاوى).. وما أن تفقد رشدها وبوصلتها وضميرها حتى ينقلها من العرش إلى البورش (نموذج عبد الفتاح السيسى).. وفى كل الأحوال فإن الجيش كان ينفذ إرادة شعبية سعت للتغيير وعجزت بسبب ضعف المؤسسات السياسية المدنية عن تحقيقه.

والخلاصة.. إنه لو كانت الجيوش تولد من رحم الدول المتطورة والمستقرة فإن الدولة المصرية ولدت من رحم المؤسسة العسكرية الوطنية القوية.. أما شعار «لا لحكم العسكر» فالمؤكد أنه استورد من أمريكا اللاتينية.. وعبرت عنه كتابات ماركيز التى أثرت فى الأجيال التى نضجت مع دخول القرن الحادى والعشرين.. دون أن تعرف هذه الأجيال أن بداية الجنرالات هناك كانت قيادة عصابات مخدرات ارتدت بعد أن كونت ثروات ثياب القادة ووضعت الرتب والنياشين.. وفى مرحلة لاحقة أصبحوا عملاء لوكالات المخابرات الأمريكية.. فلا هم يتمتعون بجذور وتقاليد عسكرية.. ولا هم آمنوا بالوطنية.

بمفهوم أمريكا اللاتينية عن الجنرالات.. لا لحكم العسكر.. وبمفهوم الإخوان.. لا لحكم المرشد.. وبمفهوم الديمقراطية.. نعم لحكم كل من يجد فى نفسه الكفاءة لفرض القانون.. وضرب الفساد.. وتحرير إرادة الأمة.. وتحقيق العدالة الاجتماعية.

بعد ثورة يناير تراجع هيكل عن رأيه السلبى فى الجيش كما عبر عنه إلى سيمور هيرش.. عاد هيكل ليتحدث بفخر عن «جيش الشعب» الذى اعتبره فى حوار صحفى مع «المصرى اليوم» فى أول فبراير 2011 «مؤسسة من صنع البلد وتاريخه»..

وأضاف فى نفس الحوار ما اعتبره حقائق يصعب تجاوزها:

إن القوات المسلحة هى صانعة النظام ولم تصنعها يوما النظم.. «فمنذ عهد مينا والقوات المسلحة تلعب دورا فى تاريخ البلد ولن يستطيع أحد أن يستخدمها فى غير صالح البلد».

الجيش جزء من الدولة وليس النظام.

لا بد أن نفرق بين الجيش والنظام.

الجيش حامى الشرعية والقوة المسئولة عن السيادة.

والحقيقة أن هناك جدلا كبيرا حول حماية الجيش للشرعية وانقلابه عليها.. فقد أطاح الجيش بثلاثة حكام وصلوا للسلطة بطرق مختلفة.. الملك فاروق الذى تربع على العرش بالتوريث.. وحسنى مبارك الذى أصبح رئيسا بالاستفتاء بعد أن عين نائبا للرئيس باختيار من الرئيس السابق عليه.. ومحمد مرسى وقد جاء عبر صندوق الانتخابات.

هناك من يقول: إن تدخل الجيش جاء فى اللحظة التى فيها أسقط الشعب شرعية هؤلاء الحكام.. ولكن.. ليس هناك مقياس يؤكد نهاية تلك الشرعية أو ضعفها أو الاختلاف عليها.

على أن هيكل يرى أن مؤسسة الجيش فى مصر «لها وضع خاص وأنها تلعب دورا معينا».. ويفسر ذلك بطبيعة الموقع «لأن مصر بلد عبارة عن واد وسط الصحراء» وعلى الجيش حمايتها من الغارات الداخلية والخارجية.

وأضاف: «ولم يحدث حتى اليوم فى تاريخ هذه المؤسسة أن استخدمت كأداة ضد الشعب حتى لو لم تكن فى وقت من الأوقات فى طلائع التقدم.. بمعنى أن محمد على أسس الدولة الحديثة بجيش.. وأول ثورة فى مصر الحديثة كانت ثورة عرابى قادتها

القوات المسلحة التى قامت أيضا بثورة 23 يوليو 1952.. كانت القوات المسلحة موجودة فى فترات فارقة من حياة مصر».

هذا ملخص لما قال هيكل بعد ثورة يناير.. لكنه.. عاد وتراجع عنه بعد تولى مرسى الحكم.. فقد هاجم المجلس الأعلى للقوات المسلحة بضراوة.. ثم.. بعد سقوط مرسى وجدناه يذهب إلى السيسى مؤكدا من جديد على دور الجيش فى السياسة.. فهل يحسم هيكل موقفه من هذه القضية الحساسة؟. أم أن رأيه سيتقلب من فترة إلى أخرى حسب مؤشر القوة ومركز السلطة وموقع الحكم؟

6

طبيب فقد منشرطه ويصر على القيام بعمليات جراحية

«إننى أحب تناقضاتى.. ولا أجد سببا واحدا لإنكارها.. أو التنصل منها.. أنا نسيج من الدم واللحم.. الزوابع والبروق.. وليس «قالب بالوظة».. أنا الأبيض والأسود.. الثلج والنار.. القديس والشيطان.. المحافظ والليبرالى.. الأصولى والمجدد.. القانونى والمتمرد.. الأكاديمى والفوضوى.. الحضارى والبدوى».

اعتراف طبيعى من شاعر مثل نزار قبانى.. لا نحاسبه عليه.. فالشاعر كل لحظة بانفعال.. وكل يوم بحال.. وهو أمر مقبول منه.. لا يحاسب عليه.. فهو محكوم بمشاعره وانفعالاته.

أما الكاتب، خاصة المشغول بالسياسة، فمحكوم وهو يصوغ رؤيته بما يصل إليه من معلومات.. تزيد رؤيته بزيادتها.. وتنكمش بانعدامها.. لكن.. ذلك لا يمنعه من إعادة النظر فيما يذكر وينشر إذا ما توصل إلى المزيد منها.

هذا هو الدرس الذى تعلمناه من هيكل.. المعرفة أم الحقيقة.. لكن.. المعرفة إن لم تتجدد بتيارات مائية مفتوحة تصبح بركة مائية آسنة.. تأتى بضرر.. ولا تجلب فائدة.

وقد لاحظت فى أحاديث هيكل الأخيرة، التلفزيونية والصحفية، تسرعًا فى ذكر ما لديه من معلومات بما يفقد تحليلاته عمقها الذى اشتهر به.. كما أن جنوحه الحاد نحو التاريخ وتمسكه المزمن بالماضى وضع غالبية ما يقول فى حالة تشويش.. يفقد معها من يتابعه التركيز.. وبتكرار الحالة يفقد المتابع اهتمامه بما يقول.

ولابد أن يعترف هيكل -ولو بينه وبين نفسه- بأن كتابة المقالات السياسية التى انصرف عنها تمنحه فرصة أكبر وأدق للترتيب والتدقيق تفتقدها حواراته التلفزيونية.. لقد خسرناه كاتبا ولم نكسبه متحدثا.

وهناك قضايا بعينها تابعها هيكل منذ سنوات طوال.. أهمها الدور الأمريكى فى الشرق الأوسط.. هو واحد من الخبراء المعدودين الذين يفهمونه.. ويستوعبونه.. ويعرضونه.

وقد تعرض موقف الولايات المتحدة بعد ثورتى يناير ويونيو إلى تغيرات حادة.. انتظرنا هيكل لنعرف بعمق تعودنا عليه منه أن يأتى بها شارحا.. ومحللا وشاخصا ببصره إلى الأمام.. لكننا وجدناه يعود كثيرا إلى الوراء.. فتركناه غارقا فى ذكرياته.. بحثا عن بديل غاب عنه.

بعد استعراض منهك لما فعل رؤساء الولايات المتحدة من دويت إيزنهاور إلى باراك أوباما سألته لميس الحديدى فى حوارها التلفزيونى معه يوم الجمعة الأخيرة فى عام 2013:

«هل فقدت الولايات المتحدة اهتمامها بالمنطقة؟».

أجاب: ضعى فى ذهنك أن منطقة الشرق الأوسط منذ الحرب العالمية الثانية كانت هى موضع الصراع ومن قبلها حتى إننا نستطيع أن نقول إنها المنطقة الوحيدة التى لم تمتلئ بقواها الذاتية كما حدث فى الشرق الأقصى حيث ظهرت الصين والهند.. وملأتا الفراغ.. وكما حدث فى أمريكا اللاتينية التى بدأت تعدل أمورها.. وكانت إلى وقت قريب مثلنا.. وظهرت قوى جديدة تملأ الفراغ.. مثل البرازيل والأرجنتين.. لكن.. مع الأسف الشديد فإن منطقة الشرق الأوسط ظلت المنطقة الوحيدة المفتوحة.

رؤية سريعة.. خاطفة.. لا تحمل عمق هيكل الذى اشتهر به.. ولا تختلف تقريبا عن ما ينشر فى صحف مصرية وغربية.. دون أن تحمل مفاجآت عودنا هيكل عليها.. بل.. أكثر من ذلك.. ليس فى تلك الرؤية ما يدور فى كواليس مؤسسات صنع القرار فى الولايات المتحدة من مناقشات رفيعة المستوى لتغييرها.

إن هناك بالفعل رغبات أمريكية تعبر عن قوى مؤثرة تطالب البيت الأبيض بسياسة جديدة مختلفة فى الشرق الأوسط.. مطالبة بإعادة مصر إلى تأثيرها الإقليمى بعد أن تراجعت وانكمشت تاركة الساحة لغيرها.. وكانت لتلك القوى مبررات مقنعة عرضتها وتحمست لها حفاظا على مصالح بلادها.

تجسدت هذه الرغبات فى قيادة أركان القوات المسلحة الأمريكية التى عقدت بناء على طلب القيادة السياسية ورشة عمل (وورك شوب) لمدة أربعة أيام فى الفترة ما بين 25 و28 يناير 2014 لبحث الخيارات المتاحة فى الشرق الأوسط.. وفى اليوم الأخير.. شارك قادة الأسلحة المختلفة فى النقاش وساهموا فى الحوار.

ويلخص التقرير السرى الذى خرج عن جنرالات الجيش الأمريكى الجغرافيا السياسية للمنطقة بأنها «تضم إسرائيل ومجموعة الدول العربية المنطوية تحت لواء منظمة الجامعة العربية».

ويحدد التقرير أهمية المنطقة بالنسبة للولايات المتحدة بأكثر من سبب:

1 - لوجود إسرائيل «الدولة التى تربطنا بها اتفاقيات كثيرة وهى موجودة فى وسط تلك المنطقة وتفصل بكيانها القائم جغرافيا المنطقة وتقسمها إلى منطقتين بلا جسر يربطهما.. ولاشك أن لإسرائيل دورًا وتأثيرًا مباشرين فى السياسة الداخلية «الأمريكية».

2 - موقع المنطقة الاستراتيجى المميز عند ملتقى ثلاث قارات (آسيا وإفريقيا وأوروبا).

3 - لاحتواء المنطقة على أهم احتياطى نفط وغاز فى العالم.

4 - لقدرة دولها على الإضرار بمصالحنا مثلما فعلت كتلة عدم الانحياز أيام الحرب الباردة.. أو لقدرتها على المساعدة مثلما فعلت أيام حرب العراق الأولى والثانية.

لكن.. رغم تلك الأهمية فإن التحولات الاستراتيجية الكبرى التى شهدها العالم فى الفترة الماضية أدت إلى إعادة نظر القيادة الأمريكية فى ترتيب أولوياتها الخارجية.. خاصة بعد تعاظم القدرات الاقتصادية الصينية بسرعة هائلة لم تكن متوقعة.

حظيت الصين بأولوية الاهتمام.. واحتفظت روسيا بمركز تال بعدها.. خاصة أن موسكو وواشنطن تلعبان معا لعبة «شد الحبل».. فى قياس متبادل للصلابة.. وبينهما ملفات تتفاوضان عليها.. أهمها:

الملف النووى الإيرانى حيث حددت واشنطن تأثير موسكو فيه بدرجة محدودة.

الملف الكيماوى السورى وقد أغلق بتطوع من موسكو بمعالجته.

الملف السورى الاستراتيجى وتنازلت فيه موسكو عن القرار المنفرد وقبلت بالمشاركة.

ملف أوكرانيا وفيه تصاعدت إرادة موسكو إلى حد السخونة العسكرية وخفضت من تصعيد واشنطن للتدخل فى أزمة تخص دولة مجاورة لروسيا.

وهناك ملفات أخرى مثل الشيشان وجورجيا وأرمينيا وكلها ملفات نجحت واشنطن فى دفع موسكو فيها إلى موقع الدفاع دون مبادرة للهجوم.

يضيف التقرير: «أدت التغيرات فى أولويات سياستنا (الخارجية) إلى سلسلة القرارات الاستراتيجية التى اتخذها الرئيس خلال عام 2013 وأهمها إعطاء الأولوية للشرق الأقصى والمحيط الهادئ وبحر الصين.. وتستوجب هذه التحولات التعمق فى بحث تداعياتها على علاقاتنا مع دول الشرق الأوسط.. وهى دول لا تملك قدرة التحليل أو مواهب المرونة والتأقلم.. وتضررت بسبب تلك التحولات:

تأثرت إسرائيل لأنها تنفذ سياسات تتفق فى بعض جوانبها مع مصالحنا ولكنها تتعارض مع بعضها الآخر.

وتحفظت السعودية بشدة بسبب تخفيف العداء الأمريكى ضد إيران.. وموقف السعودية مشروع.. خاصة لغياب الحليف المحلى البديل الذى ترتكن إليه.

واعترضت تركيا لأنه يقلص من دورها فى المنطقة.

هذه عينات من أشكال التأثر بسبب تغير سياستنا فى المنطقة.

والمطلوب بحث الخيارات المتاحة للولايات المتحدة فى المنطقة المستهدفة على ضوء أولوياتنا الجديدة.. خاصة أن هذه المنطقة تشهد تقلبات حربية جديدة.. يدين فيها حلف شمال الأطلنطى لإسرائيل بابتكاراتها فى الفكر الاستراتيجى.. فقد خلقت إسرائيل نمطا حربيا جديدا هو حرب المجتمعات فرض نفسه على أزمات الشرق الأوسط منذ سقوط نظام مبارك فى مصر».

«إن فترة الثمانية عشر شهرا المقبلة فترة حرجة بالنسبة للولايات المتحدة.. تستوجب قراءة أشد وضوحا لسياستنا المستقبلية فيها مع الحاجة لمرونة شديدة تستوجبها التحولات

الثورية فى المنطقة.. وتفرض علينا التوقف عند حرب المجتمعات لتحديد مصالحنا.. والأخطار التى تنجم عن الاستمرار فى تطبيقها».

ويقسم المشاركون فى ورشة العمل الصراعات التى تعيشها المنطقة إلى ثلاثة نماذج تتراكم فوق بعضها البعض وتتداخل وتتشابك معا:

الثورات الاجتماعية فى الدول العربية وهى ظاهرة داخلية محضة لا يمكن منعها.

المصالح الإقليمية والدولية التى يجرى الاستقطاب فيها حول الغاز والنفط وموارد المنطقة الأولية الأخرى.

وحرب المجتمعات التى ابتكرتها إسرائيل والتى تمكن من تقنينها حلف شمال الأطلنطى.

نبتعد قليلا عن التقرير فى تأصيل مؤقت لكيفية توصل إسرائيل إليها.

فى كتابه شديد الأهمية «لعبة الشيطان» ينقل مؤلفه «روبرت دريفوس» عن «شارل فريمان» السفير الأمريكى الأسبق فى السعودية: إن شين بيت (جهاز الأمن العام الإسرائيلى) هو صاحب مشروع قيام منظمة حماس لاستخدامها فى تهذيب منظمة التحرير الفلسطينية.. تمهيدا للقضاء عليها.

وفى عام 1973 تحت عيون شين بيت أسس أحمد ياسين المركز الإسلامى وبدأ فى السيطرة على أكثر من مئة مسجد فى غزة.

وحسب ما نشر ديفيد شيلر، مراسل نيويورك تايمز فى القدس، فإن البريجادير إيزاك سيرجيف الحاكم العسكرى لغزة كان يفخر بأن جيشه يمول مساجد الإسلاميين فى القطاع.

نجحت إسرائيل باختراقها تنظيمات المقاومة الفلسطينية فى إثارة الفتن بينها.. أفسدت القضية التى تجمعها.. وتخلصت بالقتل أو بالتشهير أو بالتشريد من قياداتها.. وأسست بتلك التجربة ما وصف فيما بعد بحروب المجتمعات.

حروب المجتمعات ليست ككل الحروب.. نطلق عليها أحيانا «الجيل الرابع من الحروب».. وبعد نجاحها فى فلسطين نقلتها إسرائيل بتوسع إلى الدول العربية ثم دول

المنطقة.. واستخدمت فيها كل ما تملك أجهزتها من خبرات فى إثارة النعرات الطائفية والخلافات المذهبية والتوترات العرقية.. فلم يعد أبناء الدولة الواحدة الذين عاشوا مئات السنين معا فى سلام ووئام يطيقون بعضهم البعض.. ودعت كل جماعة متجانسة فيها إلى الاستقلال والانفصال فكان التفتيت والتقسيم.. مما ضمن لإسرائيل السيطرة على المنطقة وحدها.. بجانب التخلص من مصادر القوة التى تهددها.

ويتوقف التقرير عند الاستخدام الإسرائيلى للثورات الشعبية التى تعيشها المنطقة منذ يناير 2011.. يقول:

«بالنسبة للثورات العربية التى يسمونها بالربيع العربى فقد فاجأت الجميع بما فى ذلك الإدارة الأمريكية (مذكرة القيادة العسكرية بتاريخ 29 يناير 2011 تؤكد ذلك) لكن قادة تلك الثورات لم يكونوا قادرين على إدارة الحراك الشعبى الهائل.. ولا فهم تداعياته.. كانت هذه التحركات مذهلة.. لكنها فى الوقت نفسه كانت فرصة ذهبية لإسرائيل لتوجيه بعض القوى المحلية المشاركة فى هذه الثورات وتحمل أجندات خاصة (مثل جماعة الإخوان المسلمين وغيرها من التنظيمات الإسلامية المتشددة بجانب جمعيات غير أهلية حرضتها على الهجوم على قيادات الجيوش) لتنفيذ خطة إسرائيل المبنية على حرب المجتمعات».

أما المصالح الإقليمية فقد تبعثرت فى قوى متنافسة ومتصارعة يرصد التقرير كلًا منها بمزيد من الإسهاب:

إيران: نجحت فى تكوين جبهة سياسية عريضة تمتد منها إلى سوريا ولبنان عبر العراق.. وسجلت نقاطا عسكرية فى اشتباكات مع إسرائيل (لبنان عام 2000 ثم عام 2006) لكن.. تلك الجبهة ضعيفة فى تجانسها المعتمد على الطوائف الشيعية الموجودة فى البلاد الأربع.. وهو تجانس أدى إلى مخاطر ومشاكل نجحت إسرائيل فى إثارتها بمعاونة بريطانيا ومعرفة وكالة المخابرات المركزية (الأمريكية).

السعودية: اتخذت من البداية موقفا سلبيا من الثورات العربية لتعارضها مع نظامها الملكى.. وببطء شديد تحاول تلك الدولة المحافظة التأقلم مع تطورات العصر.

تركيا: لا تتردد فى عرض خدماتها للغرب تحت راية الإسلام المعتدل مقابل استلام دعم اقتصادى أقل من أن يساندها داخليا.. وقد استغلت صعود الإخوان وشبكة تنظيمهم الدولى فى توسيع نفوذها فى المنطقة العربية.. لكنها راهنت على حصان سباق سرعان ما فقد صلاحيته.

ويصل التقرير إلى تحديد المصالح الدولية فى المنطقة ويرى أنها تنقسم إلى صنفين:

«استراتيجى: أى تلك المصالح التى يحتاج الروس فيها للدفاع عن مواقع لهم فى المنطقة بسبب قدرة الناتو على منعهم عنها والتى نتج عنها شكل جديد من الحرب الباردة بيننا وبينهم».

«واقتصادى: إذ إن ظهور الغاز فى أعماق شرق المتوسط قد حول كافة دول المنطقة إلى منتجين محتملين للغاز.. لقد اكتشفت كميات كبيرة من الغاز والنفط فى سوريا بما يجعلها قادرة على المنافسة فى هذا الميدان.. ويأتى كل ذلك على خلفية حاجة دول الخليج وعلى رأسها قطر لأنابيب غاز متوجهة للمتوسط لا بد من مرورها بالأراضى السورية (مما يضيف تفسيرا آخر للحرب الدامية التى تعانى منها وتجسد بها نموذجًا صعبًا من حروب المجتمعات).. أما مصر فإن الغاز الذى يستثمر حاليا جزء بسيط من الحقول الأخرى الموجودة على سواحلها.. وبالتالى فإن للاعبين الإقليميين والدوليين مصلحة فى زعزعة القرار السياسى المركزى (فى دول المنطقة) ليسهل التفاوض مع أنظمة الثورات الجديدة».

ويعود التقرير ليركز على حرب المجتمعات التى تعد تطويرا لنظرية «فرق تسد» التى ابتكرتها الإمبراطورية البريطانية فى أزمنة مجدها.. وتعتمد هذه الحرب على عاملين رئيسيين:

«الأول هو المحافظة المنهجية على الاتصالات المستدامة مع كل الجماعات فى البلد المستهدف.. وحثها على الكشف عن نزعاتها الاستقلالية.. وتعزيزها.. وتوضيح ما تتمتع به من خصوصية دينية أو إثنية أو قبلية أو جغرافية.. المهم أن هدف هذه الاتصالات هو تصنيف دول المنطقة بين دولة مستهدفة ودولة غير مستهدفة.. وتكاد لا توجد دولة عربية غير مستهدفة».

وترصد ميزانيات ضخمة لتعزيز الفوارق فى كل دولة مستهدفة على حدة.. وتستخدم فى هذا المجال أدوات مختلفة.. منها توزيع الدراسات التى تتخفى تحت ثياب أكاديمية وتعد خصيصا لتوجه إلى أطراف محلية بعينها.. وفى بعض الأحيان تكون هناك تقارير متناقضة عن قضية واحدة.. يأخذ كل طرف منها التقرير الذى يثير غضبه ويحرضه على الطرف الآخر.. كما حدث بوضوح مع «الأمازيغ» فى الجزائر.

«وتستغل المنظمات غير الحكومية بعض القضايا الاجتماعية الحقيقة (مثل حرية المرأة) ولكنها تعرضها بطريقة استفزازية».

«وغيرها من الأساليب التى لا حدود لتنوعها وتركيبها.. كلها تهدف إلى تغذية الفوارق وتقويتها وتوفير القرائن والحجج والبراهين لها بحيث تتحول من خصوصية حضارية إلى مشكلة سياسية».

أما العامل الثانى «فهو السيطرة على وسائل الإعلام التى تقدر بقدرتها المثيرة على التأثير على أن تنقل موضوعًا عاديًا إلى مستوى أزمة وطنية.. ويبدأ هذا المسار عادة بطرح المسألة على الساحة الدولية بواسطة خبراء محترفين أو صحفيين مشهورين ثم يتطور النقاش درجة درجة حتى يصبح مشكلة طارئة.. سواء كانت مشكلة حقيقية أو مفتعلة.. لتنتقل بعد ذلك المشكلة الطارئة إلى أزمة وطنية.. لا تقبل التأجيل.

«إن سيطرة إسرائيل على وسائل الإعلام الدولية أداة رئيسية فى هذا المجال.. تجعل منها شريكا مزمنا فى كل الأزمات التى تحدث فى المنطقة التى تهمنا فى هذا التقرير».

«وقد برهنت إسرائيل على موهبتها فى إشعال «حرب المجتمعات» مستغلة سيطرتها على وسائل الإعلام الدولية فى الانتخابات الإيرانية الأخيرة.. حيث حرضت بوسائلها الخفية نحو 2 % من الناخبين على التشكيك فى نزاهتها.. بأن دست بينهم شعار «ماذا جرى لصوتى».. إشارة للتزوير.. مما لون أول انتخابات ديمقراطية نزيهة وحولها إلى مهزلة سياسية.. ووجدت السلطات الإيرانية البريئة مما اتهمت به نفسها فى قفص اتهام».

«إن هذا المثال يدل على قوة وفعالية استراتيجية حرب المجتمعات».

ويعود التقرير من جديد إلى تقييم اللاعبين الرئيسيين فى المنطقة وتحديد قدرات كل منهم:

السعودية: لاعب مهم لكن قدراتها الدفاعية الذاتية ليست قادرة على حماية مصالحها وحدها.

تركيا: لاعب جديد يحاول أن يجد لنفسه قدما خارج أرضه ولكنها تابعة لسلطة القرار الأمريكي وتعجز عن الاستقلال عنه.. إلا في حدود ضيقة.

إيران: لاعب مشاغب ولكنها تبقى عبئا على روسيا.. وليست عنصرا مساعدا لها.. كما أنها تعرف جيدا أن الولايات المتحدة قادرة على أن تعود إلى عقابها في أي لحظة.. ويمكنها أن تسمح لإسرائيل بالتمادي في معاداتها لو شاءت.. كما أن إيران تدرك أيضا أن السعودية يمكنها فتح جبهة «عربستان» وتمويلها في إيران.. «إن سياسة ضبط النفس الأمريكية مع إيران أعطت النتائج المرجوة.. وقد تفاهمنا مع الروس على تحديد مساحة الملعب المتاح للإيرانيين».

وينتهي تقييم اللاعبين في المنطقة إلى إخراج السعودية وتركيا وإيران من الملعب الكبير وقصر حركتهم على حدود جيرانهم.. لكن.. التقرير يضيف:

إن اللاعبين الرئيسيين هما روسيا وإسرائيل وهناك مشاكل (أمريكية) مع الطرفين:

إن روسيا لم تعد بالقوة النسبية التي كان يتمتع بها الاتحاد السوفيتي.. ذلك لأنها لم تخسر امتداداتها في أوروبا فحسب وإنما خسرت كل الدول التي تشارك تركيا وإيران حدودهما.. بجانب أنها خسرت دولا كانت في السابق جزءا منها.. جورجيا (بلد ستالين).. أرمينيا (ومنها أهم الصناعيين في روسيا).. يضاف إلى ذلك أن عدد سكان روسيا في انحسار.. مما يخلق مشاكل اجتماعية كبيرة.. وهي مرشحة للتأزم على طريقة حرب المجتمعات.. لذلك فإن التعامل معها يستوجب حسابًا دقيقًا للمصالح.. ويجرى حاليا قياس صلابة سياستها في أوكرانيا».

«أما إسرائيل فهي مشكلتنا الكبرى.. فقد نجحت في انتزاع الشرق الأوسط من أيدينا.. ونقلتنا من منطقة الفعل إلى منطقة رد الفعل».

«إن مصلحة إسرائيل وأمنها القومي يستوجب في منظار قادتها تفتيت هذه المنطقة إلى دويلات إثنية وطائفية وعشائرية.. نحن نفهم هذه الرغبة.. إلا أن الواضح هو أن مصالحنا لا تتلاقى في كل الأحوال مع هذه النظرة».. وهناك أكثر من مثال على ذلك:

فى الملف السورى كادت هذه الاستراتيجية أن تسلم سوريا بكاملها إلى موسكو وأن تحولها إلى قاعدة لغريمتنا الروسية لو لم نتدخل مباشرة ونجبر الروس على احترام مصالحنا بحيث أصبح القرار السياسى المتعلق بنهاية الحرب الأهلية عملية غير ممكنة إلا بتفاهمنا مع الروس.. ولكن هذه العملية لا تحدد مدة الصراع.. لقد نجح الإسرائيليون فى إجبارنا على الاعتراف بدورهم فى استمرار الصراع الداخلى فى سوريا.. وكانوا الرابح الوحيد.. فقد حققوا هدفهم ودمرت سوريا دون تكلفة منهم.. مما يعنى فى النهاية أن قرار السلام يحتاج إلى موافقتنا مع روسيا.. إلا أن قرار استمرار المعارك يبقى قرارا إسرائيليا».

وفى الملف الليبى أخذت إسرائيل المبادرة وأقنعت فرنسا وبعدها بريطانيا بقلب نظام الحكم لصالح الفوضى القائمة حاليا.. ونتيجة ذلك عدم ضمان استمرار تدفق النفط الليبى إلى أوروبا.. بجانب مشكلة الإرهاب الذى استشرى فى شمال إفريقيا.. مما يضر بمصالحنا.. ويتطابق مع مصلحة إسرائيل».

ومع رؤيتنا الواضحة لتاريخ حربنا مع العراق فإن إصرار إسرائيل على تسريح جيش حزب البعث خلق ظروفا أمنية وسياسية صعبة أجبرتنا على الرحيل عن هذا البلد والتخلى عن أكثر مصالحنا الاستراتيجية أهمية.. وكنا نعول عليها كثيرا.. أما إسرائيل فإن كافة مآربها قد تحققت فى العراق الذى انقسم فعليا إلى ثلاث دويلات.. والدويلة الرابعة فى الطريق.. وسط حرب أهلية ما زالت مشتعلة.. وإن كانت على نار هادئة».

ولا شك أن تدخل إسرائيل لمصلحة البشير فى السودان أخرجه من مأزق سجنه بعد محاكمته جنائيا أمام القضاء الدولى.. فهو يتخذ كل القرارات التى تناسب إسرائيل.. سواء فى سياسته الداخلية التى تعزز وجود وقوة التنظيمات الإسلامية المسلحة فى السلطة أو فى سياسته الخارجية بدعم الإرهاب فى مصر.. أو مساندة إثيوبيا فى بناء سد النهضة.

وبعد استعراض هذه الأمثلة.. يضيف التقرير: «من الواضح أن تفتيت المنطقة على الطريقة الإسرائيلية يتعارض مع مصالح الولايات المتحدة فيها.. وهو ما يستدعى

مراجعة جديدة للأوضاع.. خاصة فى تنسيق سياستنا مع إسرائيل (حليفنا الرئيسى المحلى).. علينا التأكد أن دعمنا لإسرائيل مشروط باحترامها لمصالحنا الإقليمية فى الشرق الأوسط.. وسنعود لتحديد هذه المعانى فيما بعد».

وينتقل التقرير إلى ما يخصنا.. ينتقل إلى مصر التى يصفها بالغائب الكبير، قائلا:

«إن الوضع الأمنى ومستلزمات الفترة الانتقالية فى مصر أطالا غيابها عن المنطقة.. والغياب ليس جديدا.. فقد سلمت مصر مفاتيح المنطقة إلى لاعبين آخرين ليس أقلهم إسرائيل والسعودية وذلك منذ توقيع معاهدة السلام مع إسرائيل».

«لم يكن يهمنا هذا الأمر لولا التطورات الأخيرة التى تستوجب فى رأينا استحداث توازنات جديدة فى المنطقة تساعدنا على الحفاظ على مصالحنا.. لكنها.. فى نفس الوقت.. تضع حدودا للاستثار الإسرائيلى فى تحريك سياسات المنطقة بمبادرات تستوجب الرد وتربط كل اللاعبين بها بما فى ذلك حلف الأطلنطى والولايات المتحدة.

إن قدرة إسرائيل على ابتكار المبادرات التى تشغل الجميع دون أن يتمكنوا من الخروج من المآزق التى تستحدثها جعلتنا فى مواقف تابعة.. فى حين أن من الطبيعى أن نشارك فى اتخاذ القرار أو نبادر به لتصبح كل الأطراف تابعة لمبادراتنا.. فمن يبادر يكسب اللعبة.. ولو كانت المبادرات فقدت منا فعلينا استردادها.

ليس فى الساحة من يستطيع صنع التوازن مع إسرائيل إلا مصر.. وكما سنرى فإن تركيا وإيران ومعهما السعودية ليست مرشحة لدور قيادى فى المنطقة:

تركيا لا تعطى إلا صورة الحليف الضعيف والمؤقت.. وكلما أتيحت لها فرصة القيادة ارتكبت أخطاء لا تغتفر (مثل تعيين والٍ على منطقة شمال سوريا مستعملة التعبير العثمانى تعبير «والى» البغيض هناك) أو مثل استجدائها تمويلا سعوديا فى اجتماع تنسيق استراتيجى.. يضاف إلى ذلك أن تركيا مرفوضة فى عدد من البلاد العربية وعلى رأسها مصر والسعودية والأردن.

أما إيران فإن الشعبية التى اكتسبتها والمبنية على ثورتها الإسلامية بجانب انتصارات حزب الله على إسرائيل والتزامها بفتوى الخومينى برفض الوجود الإسرائيلى قد

تراجعت بسبب تدخلها فى الشئون الداخلية لدول عربية قريبة منها (سوريا ولبنان والعراق) والتحريض على دول عربية بعيدة عنها (مصر وتونس والسودان) وهو ما ضيع عليها كل الفرص التى كانت متاحة للعب دور قيادى فى المنطقة.. وزاد من انكماشها اعتناقها المذهب الشيعى.. مذهب الأقلية الإسلامية المنافس لمذهب الأغلبية السنية.. وأجهز عليها سوء معاملتها للأقليات التى تعيش فيها.. وتحمل جنسيتها.

كذلك إسرائيل.. فهى وإن كانت قد أفادتنا فى الماضى بمعلومات هامة بسبب معرفتها الاستخباراتية بالمنطقة، فإن سياستها الاستيطانية فى الضفة الغربية وسوء معاملتها للفلسطينيين وسياستها الهادفة لتفتيت المنطقة بأسرها أكسبتها عداء الشعوب العربية بصورة عامة دون أمل فى تغيير الحالة على المدى القريب.

ليس فى الساحة دولة مرشحة لدور قيادى إلا مصر.. هذا ما يجعل التحولات الجارية فيها حاليا شديدة الأهمية بالنسبة لنا.. وهو أيضا ما يفرض علينا مراجعة سياستنا المتعلقة بها وتطويرها.

بعيدا عن التقرير فإن هذه النتيجة التى يصل إليها بالنسبة لإعادة الدور الإقليمى لمصر تحمل مفاجأة غير متوقعة.. بل.. هى نتيجة عكسية لما سعت إليه الولايات المتحدة من قبل.

فى عام 2005 وبضغوط من إسرائيل طلبت وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس إعادة هيكلة الجيش المصرى لتخفيض أعداده إلى أدنى ما يمكن.. وتغيير مهامه من جيش نظامى مقاتل إلى مجموعات أمنية تواجه الإرهاب والقرصنة.. وكانت الحجة التى ساقتها الوزيرة أن هناك معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل ولن تكون هناك حروب أخرى بينهما فما الداعى لكل ما فى الجيش المصرى من جنود وكل ما فيه من أسلحة لا تستخدم إلا فى الحروب.. ورفضت مصر اقتراحها.. ولم تستجب لضغوطها.

بعد ثورة يناير كشفت الأحداث عن دور سياسى مؤثر للجيش المصرى وإن لم يمارسه علنا.. وفى ثورة يونيو تأكد هذا الدور.. بل.. أكثر من ذلك.. تأكد أن دور الجيش المصرى فى تحقيق الاستقلال الوطنى أكبر مما يبدو على السطح.. فعندما جمدت

الولايات المتحدة المعونة العسكرية وماطلت فى تسليم ما اتفق عليه من أسلحة ومعدات لم يتردد قادة الجيش المصرى فى الذهاب إلى روسيا لشراء ما يلزم من أسلحة ومعدات بسرعة بدت مفاجئة للجميع.

سألت قادة عسكريين مصريين عن الحسابات الاستراتيجية التى بنوا عليها قرار الذهاب العاجل إلى موسكو بعد نحو 35 سنة من التعاون العسكرى مع واشنطن وكانت إجابتهم:

إن الشعب المصرى الذى فجر ثورة 30 يونيو شعر بالمهانة من الضغط عليه بالمعونة فطالب برفضها واستجاب الجيش لإرادته.

إن المصالح الأمريكية فى مصر أكبر من المصالح المصرية فى الولايات المتحدة: أولوية فى عبور السفن الأمريكية فى القناة.. تحليق الطائرات العسكرية الأمريكية فى الأجواء المصرية دون استئذان.. واللجوء إلى الخبرة المصرية فى الحرب على الإرهاب.

إن انتقال الاهتمام الأمريكى من الشرق الأدنى إلى الشرق الأقصى جعل مفتاح المنطقة مع إسرائيل وليس مع أمريكا.

إن ثقافة السلام التى تسود العالم تسببت فى بوار صناعة الأسلحة الأمريكية وأغلقت مصانعها هناك مما يعنى أنها فى حاجة أن تبيع لنا أكثر من حاجتنا للشراء منها.

إن روسيا بعد أن طرقت على أبواب المنطقة بتدخلها فى الأزمة السورية أصبحت فى حاجة لمن يفتح لها الباب.. وليس هناك أفضل من مصر لفتح الباب لها كى تدخل من جديد.

إن الولايات المتحدة كسبت عداء الشعب المصرى بانحيازها لجماعة الإخوان مقابل تعهد جماعة الإخوان لها بتجميع التنظيمات الإرهابية المسلحة فى مصر إذا ما وصلت إلى الحكم.

ونعود عند هذه النقطة إلى التقرير لنجد عنوانا فرعيا مناسبا: «المنبر الإسلامى فى السياسة الأمريكية» وتحت هذا العنوان نقرأ:

إن التفاهمات التى تمت صياغتها بواسطة وكالة المخابرات المركزية مع قيادات الإخوان المسلمين الأتراك ومن ثم مع نفس الجماعة فى مصر قد أسست لسياسة خارجية

أمريكية إسرائيلية إسلامية مشجعة لكن المشكلة أن هذه السياسة لم تكن مدروسة بعناية فى وزارة الخارجية.

بدأت هذه السياسة بمساعدات وتسهيلات قدمتها الإدارة الأمريكية إلى تركيا.. وصبت فى مصلحة حزب العدالة وروجت له بنتائج إيجابية.. لقد قدمنا خطة تفصيلية للحزب بما فى ذلك وعود انضمام تركيا للاتحاد الأوروبى.. واستعملنا الشروط الأوروبية لإجبار الشعب التركى على القبول بالإصلاحات السياسية.. وفى حقيقة الأمر كنا نعطى.. وكانوا هم يأخذون.. لم تكن هناك فائدة للولايات المتحدة وراء ما قدمت.. ونكاد نقول إن الإدارات الأمريكية المتعاقبة أوهمت نفسها بأن تركيا تتقدم.. بينما الحقيقة أننا كنا وراء هذا الوهم.

ويضع التقرير عنوانا فرعيا آخر هو «فشل الإخوان» وتحته يضيف:

«لقد بدأ الامتحان فى تونس.. صحيح أن الإخوان استلموا السلطة.. لكن.. صحيح أيضا أنهم استأثروا بالسلطة.. وأداروا البلاد بسوء.. كانت ممارساتهم هناك فاشلة.. فأجبروا على التراجع.

إلا أن الأسوأ هو ما فعلوا فى مصر.. لقد ساعدناهم على استلام الحكم.. لكن النتيجة كانت أكثر سوادا من تونس.

وفى بلد لا أحزاب فيه سوى الإخوان ظهر بوضوح أن الشعب مستعد لطردهم مباشرة دون توجيه من أى تنظيم حزبى.. علينا أن نسارع ونقول إن هذه الظاهرة غير طبيعية.. المصريون معروفون بقدرتهم على تحمل المصاعب.. لكن.. مستوى الظلم الذى مارسه الإخوان أجبر المصريين على الخروج عليهم.. لاشك أن حكم الإخوان كان شديد السوء.

إلا أننا نشاهد الآن ظاهرة فريدة.. هى حكم الشعب مباشرة.. لقد أقنع 25 مليون مصرى كل القادة السياسيين والعسكريين فى 30 يونيو بطرد الإخوان من السلطة فى أيام قليلة.

هذه حالة صحية يحسد الجميع المصريين عليها.. إننا بالفعل أمام ظاهرة فريدة.. لم نشهد لها مثيلًا فى أى دولة فى العالم الحديث.. لذلك.. فإن حاكم مصر المقبل لن يجد طريقه مفروشا بالورود.. سوف يحاسبه شعبه بلا هوادة إذا أخطأ فى الخيارات الرئيسية.. إلا أنه سوف يغدق عليه ما فى جوفه من عطف وما فى عقله من تأييد إذا ما استجاب لمستلزمات التنمية فى بلاده.

هذه ظاهرة صحية.. إلا أنها وبنفس القدر تشكل خطرا على سياستنا إذا استمرت خطتنا مبنية على استعمال «العصا الغليظة» ومتجهة فى نفس الطريق الذى سلكناه فى سنوات ما بعد الحراك الشعبى فى مصر.

ليست هناك على الساحة العربية والإسلامية حالة واحدة حكمت فيها جماعة الإخوان أو شبيهتها بنجاح.. لقد تميزت كل الحالات بالاستئثار بالحكم وعزل ممثلى فئات الشعب عن مواقعهم فى إدارات الدولة وتحويل المؤسسات إلى أدوات حزبية.. والأخطر من ذلك اعتبار الدولة عدوا بدل أن تكون أداة حكم عادلة.. وتتجسد هذه الظاهرة فى موضوع الأمن.. حيث يفضل الإخوان الاعتماد على تنظيم الميليشيات الخاصة بهم على الجيش والأجهزة الأمنية.

ويتساءل التقرير عن علاقة الإخوان بالجماعات الإرهابية؟. ويجيب: «إن من الواضح أن الإخوان والقاعدة وكذلك باقى الجماعات الإرهابية الإسلامية تنظيمات مختلفة عن بعضها من حيث خلفياتها وتنظيماتها إلا أنها تتعاون معا بما يحقق مصالحها.. ويلعب الإخوان دور المنسق بينها.. ولكن.. بلا فاعلية.. كل ما ينجح فيه الإخوان هو تنظيم اللقاءات التنسيقية.. لكنهم ليسوا مستفيدين دائما.

لقد نجحت القاعدة فى سحب الكثير من مؤيدى وممولى الإخوان.. أحيانا بهدوء.. وأحيانا عنوة.

لكن.. بوجه عام يمكننا القول إن الإخوان شاركوا فى الإرهاب وشجعوه ونظموا دخوله إلى مصر وليبيا والسودان وتونس دون أن ننسى سوريا والعراق.

إن أجهزتنا الأمنية استفادت كثيرا من علاقات الإخوان بتلك التنظيمات.. لم يكن بالإمكان تدمير جبهة إيران وحزب الله فى سوريا دون مشاركة ومساعدة الإخوان.. خاصة فى سوريا ومصر والأردن.

ويتوقف التقرير شاخصا إلى الامتداد الجغرافى لما أسماه «عنقود العلاقات الإسلامية».. شارحا:

إن خريطة امتدادات التنظيمات الإسلامية التى تحمل السلاح وتمارس العنف قد اتسعت رقعتها إلى حد مذهل.. يمكننا مراقبة تواجدها فى باكستان.. نزولا إلى تركيا وإيران (حيث ما تزال التيارات السلفية السنية تعمل فيها تحت الأرض) ثم العراق وسوريا ومنها إلى الأردن وأراضى السلطة الفلسطينية بجانب الأقلية المسلمة فى إسرائيل.. عبورا إلى سيناء (خاصة المنطقة الحدودية سي) فمصر إلى السودان جنوبا.. وليبيا غربا بما فى ذلك تونس والجزائر.. نزولا إلى مالى وإفريقيا الوسطى وغربا أيضا إلى المغرب وموريتانيا.

نفس الخريطة ترسمها بونا إلكسندر، مديرة مركز بوتوماك للدراسات الإرهابية فى جامعة نيويورك.. ولكنها.. تبدأها من الناحية العكسية.. من نيجيريا ومالى ومنها إلى دول شمال إفريقيا (المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر) ومنها إلى الأردن والعراق وسوريا وتركيا.. ليقفز قوس عدم الاستقرار إلى منابعه فى باكستان وأفغانستان وماليزيا وإندونيسيا.

لكن.. بونا إلكسندر تركز على الوجه الإفريقى للإرهاب الإسلامى مستعرضة أهم تنظيماته المسلحة: القاعدة (المغرب).. أنصار الدين وأنصار الشريعة وحركة التوحيد والجهاد فى ليبيا وتونس ومالى.. وحركة المرابطون وتنظيم موجار فى غرب إفريقيا.. وبوكو حرام فى نيجريا.

وحسب ما ذكر تقرير مركز بوتوماك فإن العمليات الإرهابية زادت فى عام 2012 بنسبة (60 %) لتصل إلى 230 عملية مؤثرة (منها 145 عملية فى ليبيا و 51 عملية فى الجزائر و17 عملية فى تونس).

ويتحدث تقرير هيئة الأركان الأمريكية عن تمويل التنظيمات الإرهابية فيؤكد أن أهم مصادره «المصادر الفردية».. وتحظى الكويت بأكبر عدد من الشخصيات الثرية التى تمول بسخاء.. وبعدها السعودية التى مولت رسميا بعض هذه التنظيمات فى سوريا.. بجانب مصر بعد خلع محمد مرسى.

ويضيف التقرير: «وقد استطعنا أن نرصد تمويلا يصل إلى 23 مليار دولار خلال السنتين الماضيتين وصل منها للمحاربين 9 مليارات فقط.. واستقر الباقى فى جيوب القيادات الإخوانية الوسيطة.. وعلينا أن نعلم أن هذا المستوى من الفساد المالى يعكس مستوى أكبر من الفساد الخلقى.. وعلينا أن نأخذ هذا فى حسباننا.. فى تحديد مصداقيتهم المحدودة بالنسبة لنا».

كل هذا يجعل من الإخوان وشبكاتهم الخطيرة خطرا على مصالحنا الخاصة ومصالح حليفتنا إسرائيل إلى جانب مصالح الناتو.

على الإدارة الأمريكية أن تحاول تصور سيناريو زعزعة الاستقرار فى السعودية والخليج على شاكلة ما حدث فى ليبيا.. إنها فى الواقع صورة أسوأ وطأة من حرب محتملة مع إيران.

لقد استطعنا سابقا أن نحسب بدقة متناهية حدود القدرة الإيرانية فى إيقاف إمدادات النفط.. ولكن.. مع سيطرة الإسلاميين على بعض دول الخليج يصعب علينا الحساب.. لا نعرف اليوم كيف ندير الوضع فى ليبيا.. وسيكون الوضع بنفس الصعوبة على الأقل إن لم يكن أشد فى السعودية.

ويعود التقرير من جديد إلى مصر.. لكنه.. يتصورها تحت حكم السيسى.. يقول:

بات من المؤكد أن الفريق (المشير) السيسى سوف يترشح للرئاسة ويفوز بها.. وليس لدينا تصور نهائى عن قدرات الرجل.. الملفت للنظر أن المعلومات التى جمعت عنه فى أيام تدريبه فى الولايات المتحدة تدل على أنه مسلم ورع معتدل.. لكن.. التقارير الفنية عنه تشير إلى أن لديه قدرات إدارية وتنظيمية وتفكيرًا هادئًا وأنه يميل إلى إخفاء قدراته تحت ستار من التواضع.

«إن إدارته للأزمة فى مصر تلفت النظر.. فهو مستقل القرار.. يرفض التدخل الأجنبى.. حريص على إنجاح الدولة فى بلاده.. وهو يختلف عن عبد الناصر فى أنه غير شغوف (حتى الآن) بالخطب الموجهة للجماهير.. وهو بطىء فى اتخاذ القرار لكنه قادر على اتخاذه فى الساعات الحرجة حتى لو كان فيه خطر على حياته الشخصية.

ويؤكد الخبراء الذين استشرناهم (وهم من إسرائيل وعدد من الدول العربية) أنه نسخة محسنة من عبد الناصر.. وبهذا المعنى فإنهم يحذرون من سياساته المستقبلية وتداعياتها على مصالحنا الوطنية.

وبعيدا عن التقرير.. سمعت من مقربين من السيسى أنه يجيد الإنصات.. يستمع جيدا لكل ما يقال حوله.. لكنه.. لا يتسرع فى إبداء رأيه.

حدث فى منتصف سبتمبر الماضى أن اجتمعت به قيادات عسكرية وأمنية رفيعة المستوى لتناقش معه قرار الترشح للرئاسة وبعد ساعات طويلة تكلم فيها الجميع وتصوروا أنهم وصلوا إلى هدفهم فوجئوا به يقول: «أنا لم أقل نعم للترشح».. وكاد النقاش أن يعود من جديد.. لكن.. تطوع أحدهم بالكلام قائلا: «هو لم يقل نعم ولكنه أيضا لم يقل لا».

وكان السيسى يخشى أن يكون ترشحه ذريعة لتأكيد تهمة الانقلاب العسكرى بعد أن تدخل الجيش وأطاح بمرسى فى 3 يوليو.. وما شجعه على تغيير رأيه خروج ملايين من المصريين فى مناسبات مختلفة لعل آخرها يوم الذكرى الثالثة لثورة يناير مطالبين به رئيسا.

وفيما بعد.. حسم السيسى أمره وأعلن ترشحه للرئاسة فى بيان أذاعه التليفزيون الحكومى يوم 26 مارس 2014.

ونعود إلى التقرير لنجد أنه بعد استعراضه لمتاعب المنطقة يصل إلى مناقشة الخيارات المتاحة لدعم مستقبلها.. فيضيف: «لقد قصدنا هذا التوصيف التفصيلى لنضع الخيارات المتاحة على طاولة البحث.. بلا ملابسات تثير الارتباك».

«أمامنا سياستان يجب الخيار بينهما على ضوء التحولات الاستراتيجية التى قررتها القيادة السياسية والتى لا عودة فيها وتتعلق بأولوية الشرق الأقصى على الشرق الأوسط وهما:

سياسة شرق أوسطية تريد إعادة رسم خريطة المنطقة.

وسياسة أخرى تحاول لملمة الأوضاع ومحاربة الإرهاب.

وترغب القيادة العسكرية أن تكون واضحة فى تفضيل الحل الثانى.. ذلك أن موارد الدولة ومستوى الاستدانة ومستلزمات إعادة توزيع قواتنا من مناطق الشرق الأوسط إلى بحر الصين والمحيط الهادئ تضع حدودا لقدراتنا العسكرية.. إلا أن واجبنا شرح تداعيات كل من الخيارين.

إن إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط برأى القيادة العسكرية «الجازم» متأثر بصورة غير قابلة للنقاش بقراءة إسرائيل وحليفتيها بريطانيا وفرنسا.. لكنه خيار لا يقتصر على السماح للإرهابيين بالقيام بما لا نرغب فيه نحن.. مثل تدمير البنية التحتية للدول العربية المستهدفة.. وإنما يمتد إلى ما هو أبعد وأخطر.. لقد أوصلنا إلى البيت الأبيض وثائق تدل على رغبة الإرهابيين فى إفساد المؤسسات الإسلامية المعبرة عن الرسالة المحمدية.. إن خطورة هذه اللعبة أنها تحول عملنا من عمل استراتيجى واضح الأهداف إلى عمل أيديولوجى.. هذا منزلق خطير لم نجر إليه من قبل.

فى حقيقة الأمر إنه خيار يؤدى إلى ممارسة الحرب بشكل دائم ولفترة طويلة لصالح إسرائيل التى لا تهدف إلا للهيمنة.. إن الثمن الذى ندفعه إضافة إلى التكاليف السياسية والعسكرية ثمن أخلاقى.. نحن نقرر حرق تاريخ حضارى عريق خرجت من رحمه الديانات السماوية التى ندين بها جميعا.. ووجود حرب دينية فى القرن الواحد والعشرين فى الشرق الأوسط أمر محزن يجب أن نعترف بذنب إشعالها.. فإذا كانت كل الجنسيات والطوائف موجودة على هذه الأرض منذ مئات السنين فإن هذا يدل على أنها لا ترغب فى الحرب.. نحن الذين أحضرنا الحرب إليهم بسبب مصالحنا.

إن الرأى الذى تدافع عنه القيادة العسكرية هو أنه بإمكاننا أن ندافع عن مصالحنا دون ممارسة هذه الحروب.

إن أيديولوجية القيادات الفرنسية والبريطانية والإسرائيلية هى دفع المسلمين إلى الاقتتال حتى اليوم الذى يصبح فيه الانتماء إلى الإسلام أمرًا مشينًا.. ورأينا أن هذه الأيديولوجية لا تعبر عن النظام الفكرى القائم فى الولايات المتحدة.. والقرينة التى تقول إن المسلمين فى أنحاء كثيرة من العالم بدأوا فى اعتناق المسيحية بأعداد كبيرة أمر لا يؤثر على معارضتنا لكل السياسات المبنية على الأيديولوجيات.. إن دور القوات المسلحة الأمريكية مقتصر على الدفاع عن مصالح الولايات المتحدة.. دولة حرية المعتقد.

والثمن الذى بدأنا ندفعه واضح:

نحن موجودون فى الأردن وندرب جنودا هناك ولكننا نكتشف فيما بعد أنهم ينتمون لتنظيمات إرهابية ويقاتلون جنودنا فى جنوب ليبيا.

نحن موجودون فى جنوب ليبيا لطرد إرهابيين يحاربون بسلاح أمريكى.

نحارب فى سوريا ثم نجد الذين ندربهم قد أصبحوا ناطقين باسم القاعدة.. وقام بعض الذين دربناهم بقطع الرؤوس وتصفية الأطفال هناك.

«هذه عينة من الأوضاع التى أوصلتنا إليها سياسة إعادة رسم خريطة المنطقة.. إن الفوضى الخلاقة غير خلاقة أبدا.. ونتمنى أن ننجح فى إقناع القيادة السياسية بالحاجة لتغيير هذه السياسة.

إن القيادة العسكرية تقدر أن الأوضاع الجديدة الناتجة عن الحراك الشعبى العربى لا تسمح لنا بالاستمرار فى التعامل مع الشعوب العربية بطريقة العصا الغليظة التى طالما استعملناها.. فالمشهد المصرى مقنع.. إنهم لن يرضخوا للتهدئة بالعصا الغليظة.

يبقى أن نعلق على التوجه الذى أشارت إليه القيادة والذى يؤكد قرارها بتعزيز العلاقات التركية بقصد تكوين جبهة مؤيدة لسياستنا فى المنطقة.. إن مثل هذه الجبهة مفيدة لنا فى كل الأحوال.. وسوف ترضى الطبقة السياسية الأمريكية أكثر إذا انضمت إسرائيل بشكل رسمى إلى هذا التحالف.

إلا أن توصياتنا هى عدم استعمال هذا التحالف لممارسة الضغط وسياسة العصا الغليظة على الدول العربية فى المنطقة.. فالسعودية لا تستطيع تحمل ضغوط من هذا النوع وسرعان ما سوف تتفتت إلى حرب محلية تحت تهديد الحلف الثلاثى الجديد.. القاعدة راسخة الحضور فيها وإن كانت خلاياها نائمة.. والإخوان موجودون بكثرة هناك ولا ترغب السعودية فى الاعتراف بخطورتهم (حدث فيما بعد أن اعتبرت السعودية جماعة الإخوان جماعة إرهابية بجانب جماعة النصرة فى سوريا وداعش فى العراق).

وفى السعودية أيضا مشايخ الوهابية وتنظيماتهم التى تنتظر الفرصة لتنقض على الحكم الذى بدأ ينفتح على التحديث بصورة متدرجة.

إن قناعة القيادة العسكرية هو أن استمرار سياسة الفوضى الخلاقة وإعادة رسم خريطة المنطقة قد تؤدى إلى إفلات هذه المنطقة من أيدينا لصالح المجهول.. والمجهول المنتظر تعبر عنه مؤشرات واضحة للعين:

حروب قبلية إثنية دينية مستمرة لسنوات طويلة مع إمكانية تأثر إمدادات النفط واضطرارنا إلى العودة إلى المنطقة لحمايتها وتأمينها.

أو سيطرة جزئية إسرائيلية على مساحات واسعة هى أكبر من قدرتها على حمايتها مما يؤدى إلى سقوط ضحايا بأعداد كبيرة وهو ما يضطرنا إلى العودة من جديد إلى المنطقة وحماية حلفائنا بحكم الاتفاقيات الدفاعية القائمة.

أو استلام الإخوان والقاعدة مقاليد الحكم فى أى من هذه الدويلات وممارستهم الإرهاب علينا انطلاقا من تلك الدويلات مما يضطرنا للعودة مرة أخرى إلى المنطقة كما فعلنا فى افغانستان لاستئصال القاعدة.

أو ظهور حاكم عربى معتدل يبنى حضوره على عدائنا.

طبعا.. هذه أسوأ الاحتمالات.. ومن ثم لا داعى للخروج من المنطقة إذا كانت السياسات التى تمارس فيها ستؤدى إلى العودة إليها.

أما حل التهدئة فيطرح إمكانيات واعدة.

إن العمل فى المنطقة العربية فى قناعتنا غير ممكن إن لم يعتمد على دولة عربية رئيسية.. إن سياسة العصا الغليظة أصبحت موضع تساؤل وتشكيك.. فالشعوب استيقظت وتطلب منا احترام إرادتها. إن هذه الشعوب ليست مسئوليتنا إلا أن معاداتها تجعلنا جزءا من سياستها الداخلية. لا تفهم القيادة العسكرية أسباب القيام بمبادرات غير مفيدة سواء بواسطة دبلوماسيينا أو سياسيينا تضر سمعتنا وتكسب عداء شعوب بأكملها.

إن أجندة علاقتنا مع إيران وتركيا يجب أن تشتمل فقط على القضايا الثنائية.. لا داعى لإثارة موضوع ليبيا أو تونس أو مصر مع تركيا.. إن لذلك التشتت ثمنًا باهظًا ندفعه كل يوم.. إنها إشارة إلى استمرار تبنينا لسياسات الإخوان فى كل هذه البلاد.. وواضح أنها سياسة انتهى أجلها.. فعودة الإخوان إلى حكم مصر غير ممكنة.. وعودتهم إلى تونس شبه مستحيلة.. وتقوم قواتنا بطردهم من جنوب ليبيا.

وحل التهدئة يستوجب البحث عن محاور عربية قادرة على إعادة شىء من الوضوح إلى الفوضى القائمة حاليا.

وتشمل استراتيجية التهدئة المناطق الجغرافية فى شمال إفريقيا وكل وادى النيل وكل الجزيرة العربية.. وتستثنى تلك الاستراتيجية سوريا والعراق بسبب انفلات قرارات الحرب فيها من أيدينا وأيدى الروس لصالح القرار الإسرائيلى وهو قرار أيديولوجى متمسك باستمرار العنف والحروب الأهلية.. وتستثنى أيضا تركيا وإيران وذلك بسبب أولويات أخرى خارجة عن إطار تقريرنا.

والشريك المرشح للتعامل معنا هو واحد من ثلاثة: السعودية أو مصر أو الجزائر.

أما السعودية فهى غير مؤهلة للمهمات السياسية والدبلوماسية المطلوبة فكل الحلول التى يمكن أن تطرحها مرتبطة بالتمويل مما يجعلها غير قادرة على التنفيذ.. إنها لا تستطيع تدريب الشرطة (فى ليبيا مثلا) ولا توفر المعلمين ولا الخدمات التى يحتاجها التعاون السياسى.

أما الجزائر فإنها خيار جيد إلا أن مشاكلها الداخلية كبيرة خاصة موضوع الفساد المستشرى وتخلخل إدارتها.. وهى مشاكل تجعل الاعتماد عليها مسألة صعبة التسويق.

أما مصر فمشكلتها أنها فى وسط فترة تحولات سياسية وخارطة عمل انتقالية..

واضح أن الإخوان فقدوا الأمل فى العودة إلى السلطة.. ومن المؤسف أنهم قبلوا بأدوار دموية.. وهو تصرف أقفل عليهم أبواب المصداقية فى الساحة الشعبية المصرية.. وأصبحت إمكانية وجودهم كمؤسسة سياسية فى مصر أمرا مستحيلا.

إلا أن مصر تشكو أيضا من غياب الأحزاب السياسية.. كان بإمكان هذه المشكلة أن تأتى بالخراب مثلما حصل فى سوريا وليبيا.. لكن.. خصوصية مصر أن الشعب هناك وجد الطريقة التى يفرض بها نفسه على الطبقة السياسية.. فقد نزل إلى الشوارع.. فارضا ما يمكن تسميته بالديمقراطية المباشرة.. على طريقة اليونان القديمة فى عصور غابرة.. إنها ظاهرة لا نعرف لها مثيلا حاليا.. لكنها.. حقيقة سياسية راسخة.

«ترشح الجماهير وزير الدفاع لرئاسة البلاد.. مهما حصل فإن على القيادة السياسية الأمريكية أن تعتبره رئيسا بحكم ضرورات الوضع.. وبالترجيح فإنه سينجح فى إعادة الأمن إلى البلاد.. لا نملك معلومات عن قدراته فى إدارة مصر ودفع اقتصادها إلى الأمام.. كل ما نعرفه هو استقلاليته السياسية.. لن يقبل منا أى تعليمات.. إلا أنه بالترجيح أيضا سوف يقبل التعاون فى ملفات محددة.

إن خطر عبد الناصر جديد فى القاهرة أمر يستوجب البحث والدراية إلا أننا يجب أن نتفادى الأحكام المسبقة على النوايا والتى سوف تستحدث عند السيسى ما نخاف منه أن يحدث.. بدل أن ندفعه لانتقاء الخيارات التى تضر بمصالحنا علينا أن نفاتحه فى الملفات التى تهمنا بشكل مشترك وأن نحاول التفاهم معه.

وما يمكننا الاعتماد عليه هو بطء القرارات فى الإدارة المصرية الجديدة.. هى لن تتوصل إلى فهم الوضع الجديد ومستلزماته لبلدها بالسرعة التى سوف تفاجئنا.. نحن فى حالة سيطرة واضحة.. يمكننا العمل مع الإدارة الجديدة على سرعتها وإعطائها الانطباع بأننا معهم وأن نستفيد من قدرات هذا البلد لإحداث التوازنات التى تهمنا.

نسارع بالقول إن هذا الخيار سوف يلقى معارضة إسرائيل واللوبى السياسى الذى يمثلها فى واشنطن.. إننا أمام قرار سياسى سيادى.. إنه من المؤسف أن نضطر للتذكير أننا غير مجبرين على استشارة أى دولة أجنبية فى مثل هذه القرارات.. هذه مسائل تتحكم بمستقبل مصالح الولايات المتحدة فى منطقة شديدة الحساسية.

إن هذا التقرير هو تقييم يقوم على معلومات نرفعه لقياداتنا السياسية بقصد اتخاذ القرارات الرئيسية وتبنى الخيارات المتاحة.. وفى حالة تسلمنا القرار السياسى سوف نقوم بوضع الخطط التنفيذية المناسبة».

انتهى التقرير المصنف «سرى للغاية».

ويعكس التقرير عدة حقائق:

إن المؤسسة العسكرية الإمريكية (البنتاجون) تنحاز للوضع الجديد فى مصر على عكس البيت الأبيض المتأثر بمستشارة الأمن القومى سوزان رايس التى تصر على أن ما حدث فى مصر انقلاب عسكرى وإن لم تفصح عن ذلك صراحة حتى لا تجبر على مقاطعة مصر وفرض حصار عليها.. وفى الوسط تقف حائرة وزارة الخارجية.. متأرجحة بين الطرفين.. وإن كانت أميل إلى موقف الجنرالات أكثر من موقف السياسيين.

إن البنتاجون يرفض الفوضى سواء كانت خلاقة أو مدمرة فالفوضى فى النهاية هى الفوضى لا تستطيع قوى نظامية التعامل معها.

إن البنتاجون يرى أن الاستثمارات العسكرية التى قام بها فى مصر وكلفت بلاده نحو 40 مليار دولار لا يجوز التفريط فيها بسهولة وإلا فقدت المصالح الأمريكية فى المنطقة بنفس السهولة.

إن استيعاب حقائق الوضع السياسى فى مصر والمنطقة والتعامل معها دون تهور يؤكد أن الجنرالات يتمتعون بحكمة وحنكة وخبرة يفتقدها السياسيون وهو أمر معكوس فى الولايات المتحدة حاليا مما يعنى أن إمبراطوريتها قد بدأت فى الضعف والانهيار.. مكررة السير فى نفس الطريق الذى سارت فيه الإمبراطورية البريطانية قبل أن تجهز على نفسها فى حرب السويس.. واللافت للنظر أن مصر كانت (وستكون) ملعب مباريات النهاية للإمبراطوريتين.

وقد قدمت هذا التقرير؛ أثبت أن هيكل لم يعد مطلعا على ما يحدث من تطورات وتصورات أمريكية جديدة.. وأن تحليلاته السياسية فقدت صلاحيتها.. وإن لم تفقد جاذبية عرضها.

7

من جمال وعلاء إلى أحمد وحسن:
شكرًا على حسن تعاونكم

لا يذكر عبد الناصر إلا ويذكر معه هيكل.. ولا يذكر هيكل إلا ويذكر معه عبد الناصر.. فهما معا شريكان فى تجربة مؤثرة.. أحدهما بالجرأة فى القرار.. والآخر بالكلمة فى التعبير.

لكن.. عبد الناصر احترق بتجربته.. وهيكل استفاد منها.

وقد مات عبد الناصر عن اثنين وخمسين سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما.. وأمد الله فى عمر هيكل إلى أن تجاوز التسعين سنة (متعه الله بالصحة والعافية).

على أن المقارنة بين الرجلين لا تتوقف عند فعل القدر.. وإنما تمتد إلى فعل البشر.

لقد تحدث هيكل بحيوية وشفافية عن «مجموعة القيم التى آمن بها» عبد الناصر «والتى طبعت نمط حياته واتجاهات سياساته وتصرفاته اليومية».. لكننا.. لم نشعر أن هيكل تأثر بها.. أو انحاز إليها.

وهنا من حقنا أن نتساءل: هل آمن هيكل بتجربة عبد الناصر أم أنه اكتفى بالاستفادة منها؟.. هل تأثر بما عرف ورصد من قيم ألزم عبد الناصر نفسه بها وعائلته أم تجاوزها هيكل بما يتناقض معها؟

فى الفصل الثانى من كتابه «لمصر لا لعبد الناصر» يثبت هيكل أن عبد الناصر الرئيس الزعيم القائد الحاكم لم يتناقض مع عبد الناصر الإنسان العادى البسيط المتواضع.. لم يقل الرجل ما لم يفعل.. لم يتحدث عن الزهد علنا ومارس الترف سرا.. لم يرتد خيشا أمام الناس وحريرا بعيدا عنهم.. لم يكن يتكلم بلسان دكتور جيكل الطيب ويتصرف

مثل مستر هايد الشرير.. كان رجلا متطابقا متجانسا متوحدا مع الذات ومع الغالبية العظمى من الشعب الذى حكمه.

يرصد هيكل عددًا من الحقائق عن عبد الناصر.. لا نتصور أنه طبقها على نفسه:

كان عبد الناصر يرى «الغنى الفاحش فى وسط الفقر المدقع جريمة لا تغتفر».. فسعى إلى تذويب الفوارق بين الطبقات.. «ولو أنه وجد نفسه من الأغنياء أو أوجدته مطامعه بينهم لاختلفت تصرفاته».. فكل «إنسان حريص على مصالح الطبقة التى ينتمى إليها أو حتى تلك التى يتطلع للانتماء إليها».

وكان من بين المعايير الصارمة التى ألزم عبد الناصر نفسه بها أن لا يملك أرضا أو عقارا وكان يعتقد -واعتقاده صحيح- أن الملكية هى التجسيد العملى للامتياز الطبقى».

لم تكن لعبد الناصر -وهذه حقيقة عرفها كل الذين خالطوه فى مصر.. أو فى العالم العربى.. أو فى الدنيا الواسعة كلها- شهوة طعام أو شراب.. وكان أفخر الطعام عنده على حد تعبيره لحما وأرزا وخضارا «وماذا يأكل الناس غير ذلك؟».

وكانت لمسة الترف فى نهار عبد الناصر حينما يجلس للعمل فى مكتبه تسجيلا خافتا فى الخلفية لأغنية من أغانى أم كلثوم، وكانت لمسة الترف فى الليل ذهابه إلى قاعة السينما فى بيته يشاهد فيلما أو فيلمين قبل أن يأوى إلى فراشه.

وعندما رحل عبد الناصر كان كل ما تركه من حطام الدنيا قرابة أربعة آلاف جنيه.. ألفا وخمسمائة منها قيمة بوليصة تأمين على حياته عقدها قبل ذهابه إلى حرب فلسطين.. ثم حسابا فى بنك مصر باسمه شخصيا كان رصيده حوالى ألفين وأربعمائة جنيه.. وفى مقابل ذلك كان مدينا بحوالى ستة وعشرين ألف جنيه بقيت من تكاليف بناء بيتين.. بيت لكل واحدة من بناته.. تسكن فيه عند زواجها».

لقد رصد هيكل بدقة وبراعة ما حكم عبد الناصر من قيم شخصية ألزم بها نفسه ليعطى مثلا يحتذى به فى تجربته السياسية.. فهل ألزم هيكل (شريك التجربة والمعبر عنها) نفسه ولو ببعض من هذه القيم؟

- إن هيكل فى بيته الريفى ببرقاش عاش حياة مترفة وسط فقر مدقع يعبر عنه سكان المنطقة من حوله دون أن يعتبر ذلك جريمة لا تغتفر حسب اعترافه بنفسه.

ولو كان كل إنسان على حد قول هيكل حريصًا على مصالح الطبقة التى ينتمى إليها فإنه طبقا لتلك القاعدة لا يعرف سوى الطبقة الثرية فى مصر.. بما فى ذلك رجال الأعمال الذين طفوا على السطح محققين ثروات بالمليارات فى سنوات حكم مبارك.. وكان لافتًا للنظر أنه يتحدث عن فساد الرأسمالية الطفيلية الجديدة وينتقد تحالفها مع السلطة القائمة وفى نفس الوقت يستقبل رموزها.. ويقبل دعواتها.. ويمد الجسور معها.

ولو كانت الملكية فى رأيه رمزا عمليا للامتياز الطبقى فإنه بما يمتلك يعبر عن ذلك الرمز.

ولو كانت لمسة الترف الوحيدة فى حياة عبد الناصر صوت أم كلثوم وأفلام السينما فإن لمسات الترف فى حياة هيكل تمتد إلى ما يتمتع به أغنى أغنياء العالم من رفاهية.. سماع توزيع جديد لإحدى سيمفونيات بتهوفن فى أوبرا فيينا.. السفر وراء لوحة مجهولة لفنان شهير مثل فان جوخ أو بيكاسو يعرضها متحف فى باريس.. أو استقطاع وقت من رحلته الصيفية إلى أوروبا لاكتشاف متعة الإقامة فى فينسيا.

ولو كان عبد الناصر يتعجب من تطور فنون الطهى متسائلا: «وماذا يأكل الناس سوى لحم وأرز وخضار» فإن هيكل يستوعب ذلك التطور والتذوق مهما كانت تكلفته.

بل.. أكثر من ذلك.. خرج هيكل على الناس بصور له فى ملعب الجولف.. وهى رياضة مكلفة.. لا يقدر على تحمل نفقاتها سوى نصف فى المئة من سكان العالم.. بجانب صوره الشهيرة بالسيجار الذى يفهم فى أنواعه.. ولا يدخن سوى أجودها.

ويمكن أن نجد معترضا على هذه المقارنة بين عبد الناصر وهيكل ونسمع من يقول: إنها أمور تافهة لا يجوز الخوض فيها؟. وهذا حق.. لكننا.. لا نخوض فيها إلا لنتساءل: كيف عبر هيكل عن تجربة عبد الناصر دون أن يتأثر بها؟. وهو أمر لا نعتقد أنه يسهل تجاوزه دون توقف.. ولو لوضع علامة استفهام أو تعجب.. وهذا أيضا حق.

ونأتى لما هو أهم.. قضية الأولاد.

يقول هيكل: إن عبد الناصر لم يخطر بباله أن يزيد ثروته ليؤمن حياة أولاده من بعده.

ويضيف: ويوم رحل عبد الناصر كانت ابنته الكبرى هدى تعمل فى سكرتارية رئاسة الجمهورية بمرتب قدره ثلاثون جنيها وكان زوجها حاتم صادق يعمل فى مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية بمرتب قدرة مائة جنيه وكان قبل ذلك فى سكرتارية رئاسة الجمهورية.

لقد رفض عبد الناصر أن يكلم وزيرا أو رئيس مؤسسة ليوظف إحدى ابنتيه.. وقال لهيكل: «لو تركتهما للظروف الطبيعية فإننى أعلم أن كثيرين سوف يتسابقون عليهما وهذه مفسدة لهما فى هذه السن».

وهكذا عينت هدى وحاتم فى الرئاسة.. لكن.. حاتم لم يجد نفسه فى الرئاسة.. وفضل الانتقال إلى الأهرام.. وبعد وفاة عبد الناصر قدم استقالته.. وانضم إلى عالم البنوك التجارية وتدرج فيها حتى وصل إلى منصب رئيس مجلس إدارة فى أكثر من بنك فى مصر.

ودخل أشرف مروان الرئاسة.. بينما عينت زوجته منى فى دار المعارف.. وكانت تتبع مؤسسة الأهرام فى ذلك الوقت.

وفى ذلك الوقت أيضا كان أبناؤه الثلاثة خالد وعبد الحميد وعبد الحكيم فى سلك الدراسة: أولهم فى كلية الهندسة والثانى فى الكلية البحرية والثالث فى الثانوية.

ويضع هيكل أكثر من خط تحت الحقيقة التالية: «وأريد هنا أن أمسَّ نقطة بالغة الأهمية تلك أن أسرة عبد الناصر بناته وأبناءه بالذات يمكن أن يحسبوا عليه حتى مساء يوم (وفاته) فى 28 سبتمبر 1970.. أما بعد ذلك فحساب كل واحد منهم على نفسه».

والمقصود.. أن محاسبة الأباء على ما يفعل ويكسب الأبناء تنتهى بنهاية حياة الأباء.. فهل نحاسب هيكل على أبنائه وقد كبروا وتعلموا وتفوقوا وكسبوا وكونوا ثروات وتعرضوا لاتهامات وهو على قيد الحياة؟

ويأتى سؤال آخر مهم: هل ساهمت علاقات هيكل العربية وشهرته المصرية فى تنمية استثمارات وثروات أبنائه؟

هل يقسم أنه لم يساعدهم بما يمتلك من نفوذ داخل وخارج مصر؟

ويأتى سؤال إضافى يمكن طرحه: هل يمكن أن يكون هيكل معارضا بالرأى والموقف لنظام حكم مثل نظام مبارك وينتمى إلى نفس النظام ابناؤه بالبيزنس والمكسب والمصلحة؟

ويمكن طرح السؤال بصيغة أخرى: هل يقبل هيكل باختلاف الكبار سياسيا بينما الصغار يفيدون بعضهم البعض ماليا؟

أعرف أن قضية الأبناء قضية حساسة تصل فى حساسيتها إلى حد الحرج.. خاصة أن من السهل القول: ومال الأبناء هنا بالآباء.. أليس لكل شخص ذمته الخاصة التى يحاسب عليها؟

هذا صحيح.. لكن.. الصحيح أيضا.. أننا حاسبنا مبارك على ما كسب ابنه الكبير علاء.. رغم أنه لم يكن ضالعا فى عمل سياسى مثل شقيقه جمال.. فلماذا لا نطبق هذه القاعدة على هيكل نفسه؟

بل.. إن تطبيق هذه القاعدة على هيكل أولى.. فقد انتقد كثيرا تجاوزات البيزنس فى نظام مبارك.. دون أن يمنع أبناءه من التورط ولو بالشبهات فيها.

يضاف إلى ذلك: إنه كما قال لى ذات يوم أنه ألزم أبناءه فى أنشطة البيزنس التى يمارسونها بعدم التعامل مع الحكومة أو القطاع العام.. ولم يكن ذلك الإلزام حسب مستندات قضائية رسمية سنعرضها فيما بعد أمرا واقعا.

تعمد هيكل أن يبعد عائلته عن حياته العامة بكل ما فيها من إنجازات وصراعات.. وحتى ظهر أبناؤه على سطح البيزنس لم يكن أحد يعرف الكثير عنهم.

بل.. ربما لم نعرف أسماءهم إلا عندما أهدى إليهم كتاب «بين الصحافة والسياسة» حتى «لا يضيّع منهم الغد لسبب لا ذنب لهم فيه وهو أنهم لم يكونوا معنا فى الأمس».

على.. أكبر الأبناء.. طبيب متخصص فى الأمراض الباطنة.. يمارس مهنته ويعيش حياته فى هدوء.. بعيدا عن ضوء وصخب الشهرة.. تعود أن يمر على والده كل صباح ليطمئن عليه بقياسات الطب المعروفة.. وعندما كان يتصادف وجودى فى ذلك الوقت لم يكن يتجاوز التحية العابرة ولو بكلمة واحدة.. فهو على ما يبدو قليل الكلام.. أو هكذا أعتقد.

ولن تجد على شبكات الإنترنت سوى عنوان عيادته فى القاهرة.. ومواعيدها اليومية

وعندما نقل والده من السجن بعد القبض عليه فى سبتمبر 1981 إلى قصر العينى ساعدت علاقاته الطبية فى توفير مزيد من الرعاية لوالده.

وبسبب انشغال على بالطب دون سواه لم تأت سيرته خارج عائلته ومرضاه وزملائه فى المهنة.. بينما انفجرت سيرة شقيقيه أحمد وحسن على الألسنة بعد أن خرجا من واحة العائلة إلى غابة البيزنس.

وما أن قامت ثورة يناير حتى عرفت بلاغات قدمت ضد أحمد هيكل طريقها إلى النائب العام.. وبسبب شهرة الأب تضاعف اهتمام الرأى العام بها.. وبدا وكأن البلاغات تتجاوز المساس بالابن إلى التشهير بالأب.. وهو ما أوحى به هيكل فى حواره المنشور مع لبيب السباعى فى الأهرام يوم 17 مايو 2011 حين قال:

إننى ترددت إلى حد العذاب قبل أن أكون مستعدا للكلام (فى هذا الموضوع) لكنى أشعر بالأسف فربما كانت حكاية نجل هيكل (يقصد أحمد) مرجعها قول أو موقف للأب وقع بسببه خلاف من أطراف ثم انسحب تأثير الخلاف على أقرب الناس إليه وذلك يحزنه.. وفى الوقت نفسه فإن بين هؤلاء الأقرب من يخشى أن يكون أساء لى

ببعض ما نشر وذلك يحزنه هو الآخر.. ولو أن ما نشر كان صحيحا لكانت تلك هى الإساءة.. أما وأنا أعرف الحقيقة فقد رضيت الانتظار حتى لا يظل هناك مجال لالتباس أو ظن بل وكنت أؤثر السكوت لكن تلك العناوين الصارخة عن نجل هيكل لم تترك لى خيارا غير العذاب بين نقيضين: عذاب الصمت أو عذاب الكلام».

ويدافع هيكل عن أبنائه بما سبق أن قاله لى وقتها مركزا على مبدأين:

- أقول بلا تلعثم أن أحدا من أسرتى لم يمارس عملية الخصخصة قطعا ويقينا وكل من يعرفنى يعرف نفورى منها سواء من ناحية المبدأ أو من ناحية الطريقة التى جرت بها وأنا واحد من الذين كانوا يفضلون أن يبقى القطاع العام فى ملكية الشعب ثم إن يقوم بجانبه قطاع خاص يتصرف بكل حرية وفق القواعد الرأسمالية المعروفة والمقررة للرأسمالية على أصولها بحيث تكون التنمية جديدة وعريضة وليس مجرد انتقال فى الملكية من عام إلى خاص ثم يجرى بالطريقة التى جرى بها نهبا وليس إضافة.

وهنا أقر بصدق ما قال هيكل.. لكن.. مع إضافة أن أحمد وحسن هيكل لو لم يشتريا شركة وضعت فى قوائم الخصخصة فإنهما عبر شركة هيرميس التى عملا وشاركا فيها ساهما فى عمليات الخصخصة تخطيطا وتنفيذا وكسبا من وراءها بطريقة غير مباشرة الكثير.

يضاف إلى ذلك أن أحمد هيكل دخل فى شراكة مع هيئة البترول فى مسطرد كانت مجالا لتحقيق فى النيابة كما سنعرف فيما بعد.

أما المبدأ الثانى الذى تحدث عنه هيكل بثقة فهو: «إننى أعلم وبثقة أن أحدا من أبنائى لم يكن لا صديقا ولا شريكا لأحد من أسرة الرئيس السابق مبارك وحتى لو تصور أحدهم مثل هذه الصداقة أو الشراكة لصد الطرف الآخر وأعرض لأن الكل يعرف من موقفى ما هو معروف مما لا سر فيه».

وهنا يمكن القول: إن بعض مستندات الشركات التى أسسها جمال مبارك فى قبرص قبل إخفائها تحت غطاء «الأوف شور» فى إحدى الجزر البريطانية تشير لوجود حسن هيكل فى واحدة منها.

بل أكثر من ذلك بدأت هناك علاقة مصلحة بين جمال وعلاء مبارك من ناحية وحسن هيكل من ناحية أخرى فى قضية بيع البنك الوطنى للتنمية.. وجدت طريقها إلى محكمة الجنايات بعد أن حققت فيها النيابة.. وحسب مذكرة الإحالة التى سنتعرض لها فيما بعد فإن حسن هيكل وياسر الملوانى بإدارتهما لشركة هيرميس أفادا جمال وعلاء مبارك بمكاسب تقدر بمئات الملايين من الجنيهات فى عملية بيع البنك.. وما كان ولدا مبارك يحصلان عليها دون دور لشركة هيرميس التى أسست مع شركة بوليون التى يمتلك جمال مبارك نصفها فى شركة تحمل نفس اسم هيرميس فى جزيرة من الجزر البريطانية التى تشتهر بإخفاء الثروات وغسيل الأموال.

إن خروج أحمد وحسن هيكل إلى غابة البيزنس أفقد الأب ما حرص عليه دائما.. إبعاد عائلته عن صراعاته ومعاركه السياسية والصحفية.

أتذكر أن هيكل دعانى فى منتصف تسعينات القرن الماضى لحضور حفل زفاف أصغر أبنائه حسن، مشددا على أن الدعوة خاصة لا تتضمن نشر خبر عن المناسبة.. بل.. إن الدعوة كانت شفهية.. دون بطاقة مطبوعة.. كان الحفل فى قاعة البلفدير فى هيلتون النيل بعد أن أغلقت على المدعوين.. وبينما راح الشباب يعبر عن فرحه بطريقته راح الكبار يقتلون الوقت بحديث معتاد فى السياسة وأحوال البلد دون الالتفاف إلى النيل الساحر الصابر الذى شهد كل التغيرات دون أن يتغير.

وحسن ولد عام 1966.. حصل على الثانوية العامة من مدرسة الجيزويت.. نفس المدرسة التى تعلم فيها على وأحمد.. لكن.. حسن تخرج فى كلية الاقتصاد عام 1988 وكان الأول على دفعته.. على أنه لم يطق الحياة الأكاديمية أكثر من عامين انتقل بعدها للعمل فى البنوك التجارية.. منها ما هو محلى مثل البنك التجارى ومنها ما هو عالمى مثل جولدمان ساكس.. وقد برع فيها إلى حد اختياره واحدا من أهم عشرة خبراء فى هذا المجال.. وبانضمامه إلى شركة هيرميس الشهيرة بدأت المتاعب.. ووصلت به إلى النيابة العامة ومحكمة الجنايات ووحدة غسيل الأموال والكسب غير المشروع.

لقد بدأت جهات رقابية تتحرى عنه.. ومن المعلومات التى توصلت إليها بالتعاون مع وحدة التحريات المالية فى المملكة المتحدة أنه يحمل جواز سفر مصريًا رقمه (A02638255) ويحتفظ بستة حسابات فى بنك كولتس فى بريطانيا.. حيث يرتبط هناك بسبع شركات أيضا.. تضع حساباتها فى نفس البنك.

وتضيف التحريات أنه متزوج من سيدتين: شهرزاد عمر مصطفى فايد من مواليد 3 أغسطس 1960.. ورانيا كمال الشريف من مواليد 15 سبتمبر 1972.

ولو كنت لم ألتق حسن منذ يوم زفافه ولو عابرا فقد التقيت أحمد أكثر من مرة.. أحيانا للنقاش فى مقر شركته القابضة «القلعة».. وأحيانا صدفة فى أماكن سهر بالساحل الشمالى.

وذات يوم همست لوالده بأن أحمد مهدد بسمنة مفرطة فنقل تحذيرى إلى السيدة هدايت زوجته معبرا عن نوع من القلق على صحته.

لقد أخذ أحمد من والده ذكاءه لكن لم يأخذ منه حرصه على صحته بممارسة يومية لرياضة الجولف.. وحرص زائد عند تناول الطعام.. ومراجعة دائمة لكفاءة البدن.. والتدخل الجراحى إذا ما لزم الأمر.. وهو ما حدث عندما أزال ورما فى البروستاتا وورما آخر فى جزء من الكلى.

ولد أحمد فى 1963.. تخرج فى كلية الهندسة جامعة القاهرة.. وحصل على الدكتوراه فى جامعة ستانفورد وطبع رسالته فى كتاب صدر عن نفس الجامعة بعنوان «تطور تحالفات التنمية المشتركة».

وحسب ما ذكر لبيب السباعى فإن أحمد هيكل «يدير أكثر مما يملك.. يدير رؤوس أموال عربية وأوروبية ويابانية ومصريةو ولهذه المصالح نشاط كبير زراعى وصناعى فى قلب إفريقيا من الجزائر إلى إثيوبيا ومن مصر والسودان شمالا إلى أوغندا وكينيا فى الجنوب بجهد وعملأربعين ألف خبير وموظف وعامل منتشرين فى القارات».

وبعد أن عمل أحمد هيكل فى شركة هيرميس مع خاله محمد تيمور أسس شركة القلعة القابضة التى تبلغ استثماراتها نحو تسعة مليارات دولار.. وتضم نحو عشرين

شركة فرعية تحتها تعمل فى كافة التخصصات تقريبا.. الصناعات الغذائية.. الخدمات المالية.. الصناعة.. الطاقة.. العقارات.. وغيرها.

لكن.. لم يصبح حديث الأوساط الصحفية والثقافية إلا عندما دخل فى صفقة شراء نسبة كبيرة من أفلام السينما المصرية بكل ما أحاط بها من ملابسات وتخوفات من عدم سيطرة مصر على تراثها الفنى.. وسمعت من هيكل يومها تحفظات عن شركاء ابنه فى الصفقة.. خاصة أنه لوحظ أن شراء الأفلام جرى بأموال سائلة.. بعيدة عن رقابة البنوك.. مما شكك فى أنها يمكن أن تكون عملية من عمليات غسيل الأموال تورط فيها شركاء أحمد هيكل.. ومما ضاعف من الشك أن الشركة التى اشترت الأفلام عادت وباعتها بثمن أقل.. ولكن.. البيع جرى بمال واضح ومسجل فى عقود رسمية وحسابات بنكية.

على أن الأهم أن المخاوف التى صاحبت الصفقة تحققت.. فقد توزع تراث السينما المصرية بين شركتين سعوديتين.. روتانا التى اشترت الأفلام من أحمد هيكل وشركائه.. ويملكها الوليد بن طلال.. و«أيه أر تى» التى نافستها الاستحواذ على ما تبقى من الأفلام المصرية.. ويملكها صالح كامل.

وما جرى فى أفلام السينما جرى فى تسجيلات الأغانى.. وانتقلت غالبية التراث المسموع إلى شركات تجارية سعودية.

وبما جرى للأفلام والأغانى فقدت مصر أهم عناصرها فى التأثير على المنطقة العربية المحطية بها.. وما يثير الدهشة أن هيكل انتقد ذلك الفقد.. دون أن ينتقد ابنه الأوسط الذى ساهم فيه.

على أن الأكثر أهمية مراجعة نصيحة هيكل بتجنب أبنائه الدخول فى بيزنس مع جهة أو هيئة حكومية.. لنسأل: هل التزموا بها؟

لن أقترب من ما ينشر من معلومات على شبكات الإنترنت عن أحمد هيكل.. فالثقة فيما ينشر ليست كافية.. كما أنه ليس دليلا يعتد به إذا ما وصل الأمر إلى جهات قضائية.. لكنى سألتزم بما تضمه ملفات تلك الجهات القضائية ذاتها.

فى عام 2011 تقدم عدد من العاملين وأعضاء اللجنة النقابية فى شركة مصر للبترول ببلاغ إلى نيابة الأموال العامة جرى التحقيق فيه تحت رقم 119 لسنة 2011 حصر تحقيق أموال عامة عليا وقيدت القضية تحت رقم 310 لنفس السنة حصر وارد أموال عامة عليا.

شهدت فاتن عطية رضوان، الموظفة بالشركة، بأن المسئولين فى الهيئة العامة للبترول وشركة مصر للبترول ووزارة البترول قاموا بهدم جميع منشآت الشركة بمستودع مسطرد وتسليم الأرض المملوكة لها، والبالغة مساحتها نحو 192 ألف متر مربع، إلى الشركة المصرية للتكرير للانتفاع بها فى إنشاء مشروع للتكسير الهيدروجينى للمازوت مقابل انتفاع شركة مصر للبترول بأرض أخرى مملوكة للشركة المصرية للتكرير بذات المنطقة نظير إيجار سنوى قدره 106 جنيهات للمتر يزيد سنويا بنسبة خمسة فى المئة وهو سعر يقل عن السعر الحقيقى لتلك الأرض.. ولوجود تفاوت فى سعر المتر بين الأراضى المتبادلة فإن ما حدث يعد إهدارا للمال العام.. وما يؤكد هذا الإهدار قيام المسئولين فى شركة مصر للبترول بتخريد 23 صهريجا (تحويلها إلى خردة) وبيعها بثمن مقداره 406 آلاف جنيه يقل عن قيمتها الحقيقية.

الشركة المصرية للتكرير إحدى شركات مجموعة القلعة القابضة التى يديرها أحمد هيكل.. وشركة التكرير شركة مساهمة مصرية.. والمفاجأة.. أن هيئة البترول تساهم فيها بـ 15 % فى رأسمالها.. وتنفى هذه الحقيقة أن أحمد هيكل أخذ بنصيحة والده فى عدم التعامل مع الحكومة.. فهو لا يتعامل معها فقط وإنما يقبل بمشاركتها معه فى شركة واحدة.

سألت النيابة أيمن محمد عوض الله مدير الشئون القانونية فى هيئة البترول فقرر:

إن شركة مصر للبترول التابعة للهيئة وقعت عقدا مع الشركة المصرية للتكرير يتضمن قيام الأخيرة بعمل مشروع للتكسير الهيدروجينى للمازوت وهو أحد المشروعات القومية التى تؤدى إلى تحويل خام المازوت إلى سولار وغاز بوتاجاز على أن يتم تبادل قطعتى أرض مملوكتين للشركتين بناء على اعتراض وزارة البيئة على إقامة المشروع على قطعة الأرض المملوكة للشركة المصرية للتكرير.. وشكلت لجنة من الهيئة وممثلين عن

شركات مصر للبترول والتعاون للبترول والغازات البترولية قدرت القيمة الإيجارية السنوية لمتر الأرض المملوكة للهيئة بمبلغ 106 جنيهات على أن تزيد 5 % سنويا.

وأضاف: إن الهيئة حسب العقد لا تحصل على أى مقابل مادى نظير التصريح بمزاولة النشاط وإنما تحصل على مقابل من بيع المنتجات البترولية لكونها المالك الوحيد لها داخل الدولة.. ومقابل مساهمتها فى رأسمال الشركة.. أما الصهاريج البترولية فقيمتها الدفترية صفر وقيمت بمبلغ 225 ألف جنيه وبيعت بمزاد علنى بمبلغ 406 آلاف جنيه.

وسئل رئيس مجلس إدارة شركة مصر للبترول يحى محمد عبد العال فقال:

إن هيئة البترول هى التى درست المشروع ووقعت على عقود الانتفاع بوصفها المالك الوحيد لجميع شركات البترول العامة فى مصر.. وقامت شركة مصر للبترول بعملية إحلال وتجديد صهاريج الشركة على مستوى الجمهورية ومنها 25 صهريجا فى مسطرد.. استبعد منها ثلاثة لاستخدامها فى تخزين المياه وبيع الباقى.

وسئل رئيس مجلس إدارة الشركة المصرية للتكرير وقتها مروان نبيل عبد الله العربى (ابن الدكتور نبيل العربى أمين عام جامعة الدول العربية وزوج شقيقة زوجة هيكل) فقال:

إن الشركة التى يرأسها إحدى شركات القلعة وتساهم فيها هيئة البترول بنسبة 15 % وأن كل من أحمد محمد حسنين هيكل وطارق صلاح الدين عطية هما العضوان المنتدبان فى مجلس الإدارة.. وبناء على دراسات شركة القلعة للاستشارات توصلت إلى أن المشروع سوف يحقق ربحية فى مجال البترول وفائدة قومية حيث سيوفر للدولة نحو 60 % من قيمة استيرادها من السولار بسعر يقل واحد فى المائة عن السعر العالمى.

وأضاف: إنه قدم استقالته من الشركة بتاريخ 8 مارس 2011 ووافق مجلس الإدارة عليها وعين عبد الفتاح أبو زيد إبراهيم رئيسا لمجلس إدارتها منذ ذلك التاريخ.

واستطرد: إنه يتعهد بتنازله عن أى حق من حقوق الشركة ترتب على التعاقد مع هيئة البترول الموقع فى 9 فبراير 2006 وملحقاته.. كما تعهد بالتنازل عن أى حق

للشركة يترتب على خطاب الحكومة المصرية عن ضمانها تنفيذ المشروع لحين الانتهاء من التحقيقات.

وقدم إقرارا كتابيا منه بهذا التعهد.

وسئل رئيس مجلس الإدارة الجديد عبد الفتاح إبراهيم فكرر ما سبق أن سجل سلفه في التحقيقات.. كما تعهد هو أيضا بالتنازل عن أي حق للشركة يترتب على نفس العقد.. خاصة أن الأرض المملوكة لشركته لم تسلم إلى هيئة البترول.

وجاءت تحريات الرقابة الإدارية وشهد بها حاسم رشاد محمد قائلا:

في غضون 1995 أعدت شركة القاهرة للتكرير (التابعة لهيئة البترول) دراسة جدوى عن مشروع التكسير الحراري للمازوت بتكلفة 550 مليون جنيه إلا أنه بسبب نقص الاعتمادات المالية تعذر تنفيذ المشروع.. وفي غضون عام 2005 تقدمت شركة القاهرة لتصنيع المنتجات البترولية التي أصبحت الشركة المصرية للتكرير بالمشروع من جديد ووافقت عليه اللجنة المختصة بهيئة البترول ووقعت مذكرة تفاهم بينها وبين شركاتها التابعة (شركة القاهرة لتكرير البترول وشركة أنابيب البترول) بتكلفة مبدئية 500 مليون دولار.. وعقب موافقة وزارة البترول جرى توقيع اتفاق للعمل بمشاركة قطاع البترول بنسبة 15 %.. يسدد منها 7.5 % نقدا.. والباقي سددته الشركة العربية للتكرير (أحمد هيكل وشركاه) نيابة عن الهيئة على أن تحصل على ما سددت من الأرباح التي تجنيها الهيئة من المشروع.

وكرر عضو الرقابة الإدارية منافع المشروع بجانب حصول شركة القاهرة لتكرير البترول التابعة للهيئة على عمولة تكرير الزيت الخام بواقع 3 دولارات للبرميل وحصول شركة أنابيب البترول على نصف سنت مقابل نقل البرميل.

ووقع اتفاق مبدئي بتاريخ 26 سبتمبر 2006 ووقعت اتفاقات التصنيع بتاريخ 19 يوليو 2007 و17 ديسمبر 2007 ووقع ملحق العقد الثاني في 4 أغسطس 2010..

ووقع عقد الانتفاع بالأرض المملوكة للشركات التابعة لهيئة البترول فى 9 سبتمبر 2008 نظرا لرفض وزارة البيئة إقامة المشروع على أرض مملوكة للشركة المصرية للتكرير.

وما أن وصل ضابط الرقابة الإدارية عند هذه النقطة حتى بدأ فى سرد المخالفات التالية:

- زيادة مساحة الأرض المخصصة للشركة العربية للتكرير وخفض مساحة الأرض المخصصة للشركات العامة من مساحة 130 الف متر مربع إلى 118.245 الف متر مربع دون دراسة جدوى.. وتضمنت العقود بعض بنود إذعان.

- الأرض الخاصة بشركة مصر للبترول مقام عليها 19 صهريجا ستزال بالكامل على الرغم من أهميتها الكبرى وقبل أن تدخل العقود حيز التنفيذ.

- وافقت هيئة البترول على رفع حصتها من 15 % إلى 28. 24 % وقامت بإصدار خطاب ضمان بمبلغ 365 مليون دولار مما يحملها أعباء مالية دون مبرر.

- ظلت الشركة العربية للتكرير وقتا طويلا دون أن تحصل على القروض الخارجية الخاصة بالمشروع.

- وافقت الهيئة على الحصول على مبلغ 175 مليون دولار حد أقصى من الشركة العربية للتكرير مقابل إعادة تمركز الشركات العامة الأربعة فى أماكن أخرى غير التى ستتركها للمشروع دون دراسة جدوى للتكلفة الاقتصادية وثبت أن إعادة التمركز تحتاج إلى 60 مليون دولار إضافية.. وتنفيذ شركة بتروجيت لبعض الأعمال بلغت 260 مليون جنيه دون سداد الشركة المصرية للتكرير سوى 17 مليون جنيه.

- سيترتب على إزالة 19 صهريجا اختناقات بترولية فى القاهرة الكبرى.

وجاء الدور على الأموال العامة وشهد المقدم محمد عبد الله المفتش بها:

إن تحرياته توصلت إلى قيام هيئة البترول بسداد 283 مليون جنيه إلى شركة بتروجيت للإنشاءات مقابل أعمال إعادة تمركز الشركات العامة الأربعة التابعة للهيئة فى منطقة مسطرد الشمالية فى حين أنه يتعين على الشركة المصرية للتكرير سدادها.

وحسب ما جاء فى مذكرة النيابة فإن المشكو فى حقهم (أحمد هيكل ومروان العربى وعبد الفتاح إبراهيم) قدموا تعهدا بسداد أى أموال لصالح الدولة تظهر من خلال نتائج أعمال لجنة مصلحة خبراء وزارة العدل.. وتعهدوا بسداد قيمة الإنشاءات التى دفعتها هيئة البترول إلى شركة بتروجيت.. وتعهدوا بتعديل ما تضمنته عقود الانتفاع فيما يثار عنها من بنود إذعان.

وندبت النيابة العامة لجنة ثلاثية من خبراء وزارة العدل بإدارة الكسب غير المشروع لفحص المستندات وأودعت تقريرها وشهد رئيسها بأن الفحص أسفر عن ما يلى:

- إن المشروع محل التحقيق لا يستلزم الحصول على تراخيص لمزاولته حسب ما منح القانون هيئة البترول من مميزات.

- إن الزيادة السنوية فى سعر الأرض التى استأجرتها الشركة المصرية للتكرير وهى 5 % زيادة بسيطة وليست مركبة بما يتحقق معه فارق يقترب من 6 ملايين جنيه وهو ما يمثل ضررا محتملا بالمال العام.

- نفذت شركة بتروجيت إنشاءات بلغت نسبتها 40 % وقيمتها 283 مليون جنيه لم تسدد منها الشركة المصرية للتكرير سوى ثلاثة ملايين دولار فى حين أن عليها طبقا للاتفاق المبرم سداد 150 مليون دولار مقابل إعادة تمركز الشركات العامة تزيد إلى 175 مليون دولار.. حد أقصى.

- لم يلاحظ مخالفات فى تخريد الصهاريج إلا أنه تلاحظ صدور خطاب من شركة مصر للبترول المالكة للصهاريج والأرض التى تحتها إلى هيئة البترول يفيد بإعادة النظر فى الصهاريج الأخرى البالغ عددها 19 صهريجا والتى من المفترض إزالتها لتسليم الأرض إلى الشركة المصرية للتكرير.

وسارعت الشركة المصرية للتكرير والهيئة العامة للبترول بتعديل العقود التى وقعت بينهما.. وبما تضمنته العقود الجديدة من تعديلات قرر رئيس لجنة الفحص المنتدب من

إدارة الكسب غير المشروع أنها تعديلات تجبر أى أضرار تظهر فى المستقبل.. «وتضمن بموجبها الهيئة كافة حقوقها المادية».

وسئل محمد شعيب محمد خليفة نائب رئيس هيئة البترول للعمليات فشهد بأنه من أهم المشروعات الحيوية لتوفير المنتجات البترولية.

وفيما بعد عين محمد شعيب فور خروجه من الخدمة الحكومية مسئولا فى إحدى شركات أحمد هيكل.

وبتسوية كل ما تعرض له المشروع من ثغرات استبعدت النيابة العامة شبهة جرائم العدوان على المال العام وحفظت الشكوى إداريا.

وطوال تحقيق الواقعة كان أحمد هيكل هاربا فى لندن.. بعد أن خرج من القاهرة فى وقت مناسب.. وتصادف أن عاد إلى القاهرة على نفس طائرة الخطوط الجوية البريطانية التى عدت عليها بعد رحلة إلى لندن.. وجلس هو وزوجته مى نبيل العربى على بعد أمتار قليلة منى.. ولم أشأ أن أزعجه بأسئلتى.. فقد شعرت أنه فى حاجة إلى الاسترخاء بعد طول قلق وتوتر.

ونحمد الله على نجاته من القضية التى حفظت.. لكننى توقفت عندها لإثبات أن ما قاله هيكل عن ابتعاد أبنائه عن الدخول فى بيزنس مع الحكومة غير صحيح.. كما أن القضية انتهت بعد تعهد من المشكو فى حقهم بأن يغيروا العقود لتلافى أى أضرار يمكن أن تلحق بالمال العام.

عاد أحمد هيكل من لندن لتطمئن قلوب عائلته عليه.. لكن.. تلك القلوب سرعان ما تمزقت قلقا على شقيقه حسن الذى خرج فى الوقت المناسب أيضا هاربا إلى لندن على ذمة قضية جنائية أشد وأصعب.. قضية بيع أسهم البنك الوطنى المصرى.

وتتلخص هذه القضية فى التلاعب من خلال البورصة فى أسهم البنك الوطنى المصرى والاستحواذ على عدد كبير من أسهمه قبل بيعها كلها لمستثمر واحد كويتى مما

حقق للمتهمين أو لغيرهم أرباحا كبيرة قدرت بمليارات الجنيهات ما كانوا ليحصلوا عليها لولا ما توافر لديهم من معلومات بحكم أعمالهم.

سجلت القضية برقم 10427 لسنة 2012 جنايات العجوزة بعد أن سجلت برقم 889 لنفس السنة كلى شمال الجيزة ورقم واحد لسنة 2011 حصر تحقيق المكتب الفنى للنائب العام.. ووقع على أمر الإحالة المستشار أحمد حسن بمكتب النائب العام.. والمستشار عاشور فرج المحامى العام بالمكتب الفنى.

تضمن قرار الإحالة تسعة متهمين هم:

(1) أيمن أحمد فتحى حسين سليمان (51 سنة) رئيس مجلس إدارة البنك سابقا ورئيس مجلس إدارة شركة دريكسل للمعدات البترولية فيما بعد والمقيم فى الزمالك. (2) أحمد فتحى حسين سليمان (81 سنة) عضو مجلس إدارة البنك سابقا والمحامى الحر حاليا والمقيم فى الدقى.

(3) ياسر سليمان هشام الملوانى (50 سنة) عضو مجلس إدارة البنك سابقا والرئيس التنفيذى فى شركة هيرميس القابضة حاليا والمقيم فى الدقى.

(4) أحمد نعيم أحمد بدر (44 سنة) عضو مجلس إدارة البنك سابقا والعضو المنتدب لشركة النعيم القابضة حاليا والمقيم فى النزهة.. هارب.

(5) حسن محمد حسنين هيكل (45 سنة) رئيس تنفيذى فى شركة هيرميس القابضة والمقيم فى الجيزة.. هارب.

(6) جمال محمد حسنى مبارك (47 سنة) عضو مجلس إدارة هيرميس للاستثمار المباشر.. محبوس.

(7) علاء محمد حسنى مبارك (49 سنة) عضو مجلس إدارة شركة بوليون سابقا.. محبوس.

(8) عمرو محمد القاضى (52 سنة) عضو مجلس إدارة البنك سابقا ومدير عام بشركة أسيك حاليا ومقيم فى الدقى.

(9) حسين لطفى صبحى الشربينى (45 سنة) عضو مجلس إدارة البنك سابقا والعضو المنتدب بشركة «أتش سى» حاليا ومقيم فى الزمالك.

حدثت وقائع القضية فى دائرة قسم العجوزة خلال عامى 2006 و2007 ووجهت الاتهامات على النحو التالى:

- المتهم الأول والثانى (أيمن فتحى وأحمد فتحى): «بصفتيهما موظفين عموميين رئيس وعضو مجلس إدارة فى البنك الذى تساهم فيه الدولة وتخضع أمواله لرقابة البنك المركزى، حصلا لغيرهما بدون وجه حق على منفعة من عمل من أعمال وظيفتيهما بأن ظفر المتهم الثالث (ياسر الملوانى) والمتهم الرابع (أحمد نعيم بدر) بمنفعة الاستحواذ على نسبة من أسهم البنك تجاوز النسبة المسموح بها دون إعلان عن وجود رابطة واتفاق بينهم لتكوين حصة تمكنهم من بيع البنك لمستثمر استراتيجى مما أتاح لهما الانضمام إلى عضوية مجلس إدارة البنك والاطلاع على كافة البيانات اللازمة لتنفيذ اتفاقهم وذلك بغير حق وبالمخالفة لأحكام قانون سوق المال (القانون 95 لسنة 1992) وقانون البنك المركزى والجهاز المصرفى والنقد (القانون 88 لسنة 2002).

- المتهمان الثالث (ياسر الملوانى) والرابع (أحمد نعيم بدر): اشتركا بطريقى الاتفاق والمساعدة مع المتهمين الأول والثانى (أيمن وأحمد فتحى) فى ارتكاب الجريمة محل الاتهام السابق بأن اتفقا معهما على الاستحواذ على نسبة تجاوز المسموح بها من أسهم البنك بما يتيح لهما الانضمام لعضوية مجلس إدارته دون إعلان عن وجود رابطة واتفاق بينهم على هذا الاستحواذ مما مكنهما من الاطلاع على كافة المعلومات اللازمة لإتمام عملية بيع البنك لمستثمر استراتيجى وساعدهما بأن قاما بشراء الأسهم المشار إليها آنفا بالمخالفة للقوانين السابق ذكرها فوقعت الجريمة بناء على ذلك الاتفاق وتلك المساعدة.

- المتهمون من الأول وحتى الرابع (أيمن فتحى وأحمد فتحى وياسر الملوانى وأحمد نعيم بدر) بصفتهم موظفين عموميين فى البنك حصلوا لأنفسهم بدون وجه حق على ربح من عمل من أعمال وظيفتهم بأن كونوا حصة حاكمة من أسهم البنك فيما بينهم على خلاف القانون والإجراءات المنظمة للإفصاح عن البيع فى البورصة والتى توجب

كشف المعلومات الجوهرية للجمهور.. فدفع المتهمان الأول والثانى (أيمن وأحمد فتحى) العضو المنتدب للبنك لتقديم استقالته وضما المتهمين الثالث والرابع (ياسر الملوانى وأحمد نعيم بدر) إلى عضوية مجلس الإدارة.. بعد أن استحوذ المتهم الثالث (ياسر الملوانى) على حصة كبيرة من الأسهم بشرائها من خلال صندوق حورس (2) واستحوذ المتهم الرابع (أحمد نعيم بدر) على حصة كبيرة أيضا من الأسهم بشرائها من خلال شركة نايل انفستمنتز وذلك بأقل الأسعار الممكنة وبشكل تدريجى على فترات متباعدة ودون الإفصاح عن وجود رابطة بينهم.. وتمكنوا باعتبارهم كيانًا واحدًا من الاستحواذ على حصة حاكمة من الأسهم بأقل الأسعار والهيمنة على إدارته واستصدروا موافقة البنك المركزى على بيعه لمستثمر استراتيجى وذلك على خلاف القواعد المقررة فحصلوا لأنفسهم بغير حق على مبالغ مالية مقدارها 960 مليونًا و601 ألف و578 جنيهًا.. حصل المتهم الأول (أيمن فتحى) منها على مبلغ مقداره 90 مليونًا و900 الف و371 جنيها وحصل المتهم الثانى (أحمد فتحى) على مبلغ مقداره 88 مليونًا و975 ألفًا و853 جنيها وحصل المتهم الثالث (ياسر الملواني) وصندوق حورس (2) على مبلغ مقداره 414 مليونًا و407 ألفًا و130 جنيها وحصل المتهم الرابع (أحمد نعيم بدر) على مبلغ مقداره 366 مليون٣و318 ألفًا و224 جنيها يمثل كل منها الفارق بين سعرى شراء الأسهم وإعادة بيعها.

- المتهمان الثالث والرابع (ياسر الملوانى وأحمد نعيم بدر) بصفتيهما السابقة حصلا لغيرهما على ربح ومنفعة بغير حق بأن حصلا للمتهمين السادس والسابع (جمال وعلاء مبارك) على ربح من خلال استغلالهما اختصاصهما الوظيفى فى إخفاء المعلومات الجوهرية وهى اتفاق كبار المساهمين على بيع أسهم البنك لمستثمر استراتيجى بأن قاموا بشراء الأسهم بسعر متدنٍّ لإعادة بيعها لذلك المستثمر بسعر يزيد عن سعر شرائها بالمخالفة للقوانين السابق ذكرها.

وتمت عمليات البيع والشراء من خلال صندوق حورس (2) الذى تديره شركة هيرميس للاستثمار المباشر والتى تمتلك فيها شركة بوليون نسبة تصل إلى 35 %

ويساهم المتهم السادس (جمال مبارك) فيها بنسبة 50 % رغم عدم سبق تعامل هذا الصندوق على تلك الأسهم قاصدين من ذلك تمكين المتهم السادس (جمال مبارك) من الحصول على أرباح تنفيذ هذه الصفقة بنسبة مساهمته فى شركة بوليون وبأن أمدا المتهم السابع (علاء مبارك) بالمعلومة الجوهرية المشار إليها فقام بشراء عدد 290 ألف سهم قبل تنفيذ الصفقة مباشرة مستغلا تلك المعلومة مما حقق له ربحا بغير حق مقداره 12 مليونًا و335 الفًا و442 جنيها كما أمدوا الأشخاص المبينة أسماؤهم فى التحقيقات بالمعلومة الجوهرية ذاتها مما حقق لهم ربحا مقداره مليار و77 مليونًا و642 الفًا و608 جنيها.

- المتهم الخامس (حسن هيكل) اشترك مع المتهمين من الأول وحتى الثالث (أيمن فتحى وأحمد فتحى وياسر الملوانى) بطريقى الاتفاق والمساعدة فى ارتكاب جريمة التربح موضع التهمة الموصوفة بالبند الثالث بأن اتفق معهم على تكوين حصة حاكمة من أسهم البنك وساعدهم بصفته مديرًا تنفيذيًا لشركة هيرميس القابضة بأن وجه الشركات التابعة لشركته والخاضعة لمراقبتها -وهى هيرميس لصناديق الاستثمار وهيرميس للمحافظ المالية وهيرميس للسمسرة وهيرميس للوساطة- إلى شراء أسهم البنك لصالح صندوق حورس (2) وصناديق الاستثمار ومحافظ الأوراق المالية وإدارة تلك الشركات نوطئة لإعادة بيعها لمستثمر استراتيجى دون الإعلان عن وجود رابطة واتفاق بينهم بالمخالفة للقواعد المقررة مما مكنهم من الحصول بغير حق على ربح مقداره 594 مليونًا و283 ألفًا و354 جنيها فوقعت الجريمة بناء على ذلك الاتفاق والمساعدة.

- المتهم السادس (جمال مبارك): اشترك مع المتهم الثالث (ياسر الملوانى) بطريقى الاتفاق والمساعدة فى ارتكاب جريمة التربح موضع التهمة بأن اتفق معه على تكوين حصة حاكمة من أسهم البنك وساعده بأن يستغل صفته كمساهم استراتيجى فى شركة بوليون التى تساهم فى شركة هيرميس للاستثمار المباشر والتى تقوم على إدارة صندوق حورس (2) فوجهها لشراء أسهم البنك من خلال صندوق حورس (2) للاستثمار مما مكنه من الحصول لنفسه وللشركة التى يساهم فيها بغير حق على ربح ومنفعة مقدارها 414 مليون

و407 آلاف و130 جنيها فوقعت الجريمة بناء على ذلك الاتفاق وتلك المساعدة.

واشتركا معا بطريقى الاتفاق والمساعدة على تكوين حصة حاكمة من أسهم البنك وساعده بأن أسند لشركة هيرميس للاستثمار المباشر القائمة على صندوق حورس (2) تنفيذ عمليات شراء الأسهم فحقق لنفسه وللشركة التى يساهم فيها بغير حق ربحا مقداره 493 مليونًا و628 ألفًا و646 جنيها فوقعت الجريمة بناء على ذلك.

- المتهم السابع (علاء مبارك) اشترك مع المتهم الثالث (ياسر الملوانى) بطريقى الاتفاق والمساعدة فى ارتكاب جريمة التربح موضع التهمة بأن اتفق معه على أن يمكنه الأخير من الحصول على ربح بغير حق وأن يمده بالمعلومة الجوهرية وهى إبرام اتفاق مع كبار المساهمين فى البنك على بيعه لمستثمر استراتيجى فقام بشراء 290 ألف سهم من خلال حساب لزوجته هيدى محمد مجدى راسخ حسنة النية فى تاريخ معاصر لإتمام الصفقة مما مكنه من تحقيق ربح مقداره 12 مليونًا و335 ألفًا و442 جنيها يمثل الفارق بين سعرى البيع والشراء وجرى تحويل المبلغ فى ذات الوقت من حساب زوجته إلى حسابه الشخصى بالبنك الأهلى فرع البرج فوقعت الجريمة بناء على ذلك.

- المتهمان الثامن (عمرو القاضى) والتاسع (حسين الشربينى): بصفتهما موظفين عموميين عضوى مجلس إدارة البنك اشتركا مع المتهمين من الأول إلى الرابع (أيمن فتحى وأحمد فتحى وياسر الملوانى وأحمد نعيم) بطريقى الاتفاق والمساعدة فى ارتكاب جريمة التربح بأن اتفقا معهم على بيع البنك لمستثمر استراتيجى وساعداهم بأن استغلا موقعيهما الوظيفى بعضوية مجلس إدارة البنك فى إخفاء المعلومة الجوهرية.. وقام المتهم (حسين الشربينى) بتوجيه شركة هيرميس التى يقوم على إدارتها نحو شراء أسهم البنك من خلال صناديق ومحافظ الاستثمار للمساعدة فى تكوين حصة حاكمة لهم ولبعض المساهمين حققت لهم أرباحا غير متوقعة.

وبصفتيهما آنفة الذكر حصلا لنفسيهما على ربح ومنفعة من عمل من أعمال وظيفتيهما بأن استغلا المعلومة الجوهرية التى تحصلا عليها بحكم عملهما بالبنك دون إفصاح عنها فى البورصة وقام كل منهما بشراء 5000 سهم وحقق المتهم الثامن (عمرو

القاضى) ربحا قدره 222 ألفا و50 جنيها وحقق المتهم التاسع (حسين الشربينى) ربحا قدره 229 ألفا و240 جنيها.

تحرر أمر الإحالة إلى محكمة الجنايات يوم 30 مايو 2012 وأشر عليه النائب العام عبد المجيد محمود فى نفس اليوم بالموافقة.

وأرفق بالتحقيقات مذكرة بأدلة الثبوت تقع فى 39 صفحة وتضمن 9 شهود بجانب ملاحظات النيابة العامة.

ضمت قائمة الشهود:

(1) ماهر أحمد صلاح الدين محمد (44 سنة) رئيس الإدارة المركزية لشكاوى المتعاملين بالهيئة العامة للرقابة المالية ورئيس اللجنة الفنية التى شكلتها النيابة العامة لفحص التصرفات التى تمت بين شركة هيرميس وشركات القطاع العام وصناديق البنوك وأصول الدولة.

(2) حسام أحمد فريناند الجرحى (41 سنة) مدير بالبورصة المصرية.

(3) محمد ماهر طلبه دويدار (53 سنة) نائب مدير عام بالبنك المركزى.

(4) محمد عبد المنعم سعد الدين محمد (37 سنة) إخصائى أسواق مالية بهيئة الرقابة المالية.

(5) محمد فتحى أبو الفضل إبراهيم (38 سنة) محاسب بشركة مصر للمقاصة.

(6) أحمد حسن محمد قورة (71 سنة) رئيس مجلس إدارة البنك الوطنى والعضو المنتدب سابقا.

(7) ياسر إسماعيل حسن محمد (لم يذكر السن) العضو المنتدب للبنك الوطنى المصرى.

(8) رضوى سعد الدين رشدى على (23 سنة) مراقب بالإدارة العامة للمراجعة والتحقيقات بهيئة الرقابة المالية.

(9) محمد مبروك محمد مصطفى (35 سنة) المشرف على الإدارة العامة للرقابة على التداول بهيئة سوق المال.

وقد أجمع الشهود على ما سبق ذكره من اتهامات ووقائع تضمنها قرار الإحالة.

ونأتى إلى ملاحظات النيابة العامة على القضية:

- ثبت من تحريات هيئة الأمن القومى المرفقة بالأوراق أن المتهمين السادس والسابع (جمال وعلاء مبارك) شاركا فى تأسيس شركة بوليون القبرصية مع المدعو وليد كابا الذى يتولى حاليا منصب مدير بشركة هيرميس برايفت أكويتى.. ويرتبط المتهم السادس (جمال مبارك) بعلاقات قوية مع كل من المتهم الثالث (ياسر الملوانى) والمتهم الخامس (حسن هيكل) كما يمتلك حصة قدرها 18 % أو أكثر من أسهم شركة هيرميس.

وقد استغل المتهم السادس (جمال مبارك) نفوذه للسيطرة على الجهاز المصرفى وتفرد فى تعيين رؤساء البنوك وقام بتعيين البعض منهم فى لجنة السياسات والبورصة وسوق الأوراق المالية ويدين له الجميع بالولاء.

وقد أسست شركة هيرميس عدد (21) صندوقا بعضها بجزر العذراء البريطانية المعروف عنها اشتهارها بغسل الأموال ومنها صندوق حورس 2 الذى أسس عام 2005 بغرض شراء حصص فى البنك الوطنى ومن خلال صناديق الاستثمار حورس 1 و 2 و 3 تم استثمار مبلغ 534 مليون دولار فى 35 شركة وبعدها تم التخارج من 25 شركة منها وحققوا مكاسب أكثر من 146 مليون دولار.

وارتبط المتهم السادس (جمال مبارك) بمجموعة من رجال البنوك والمال والأعمال والذين حققوا ثروات مالية طائلة جرى تهريب جزء كبير منها للخارج مع بداية اندلاع ثورة 25 يناير وحتى 28 فبراير 2011 ولم يتبق برصيد حساباته فى البنوك سوى مبالغ ضئيلة.

كما تبين ورود استعلام أمنى من الهيئة العامة للاستثمار والمناطق الحرة فى 27 يناير 2011 عن دخول المتهم الثالث (ياسر الملوانى).. والمتهم الخامس (حسن هيكل)

كمساهمين بشركة هيرميس للترويج وتغطية الاكتتاب ويرأس مجلس إدارتها المتهم الخامس (حسن هيكل).

- قرر أشرف محمود عباس زكى المدير التنفيذى لشركة هيرميس للترويج بأن هذه الشركة تتكون من إدارة واحدة مسئول عنها المتهم الخامس (حسن هيكل).. وأن عمله ينحصر فيما يسند إليه من أعمال بمعرفة المتهمين الثالث (ياسر الملوانى) والمتهم الخامس (حسن هيكل).

- قرر حازم مصطفى أحمد شوقى مدير تنفيذى لشركة هيرميس للاستثمار المباشر بأن تلك الشركة مملوكة لشركة هيرميس القابضة بنسبة 65 % وتملك النسبة الباقية شركة بوليون التى يمتلك جمال مبارك نصف أسهمها.. وقد سجلت هيرميس للاستثمار المباشر شركة اوف شور يصعب كشف معلومات عنها فى جزر العذراء البريطانية ويتكون مجلس إدارتها من المتهم الثالث (ياسر الملوانى) والمتهم الخامس (حسن هيكل) والسادس (جمال مبارك) بالإضافة إلى وليد كابا.. وعند انضمامه للشركة طلب منه المتهمان الثالث (ياسر الملوانى) والمتهم الخامس (حسن هيكل) التقابل مع المتهم السادس (جمال مبارك) للموافقة على تعيينه.

وأضاف: إن شركة القلعة للاستثمارات وأحمد هيكل ضمن المؤسسين لصندوق حورس (2) وشركة صحارى للزيت والغاز المملوكة للمنهم الأول أيمن فتحى وآخر وبدأت فى عام 2005 واستثمر فيها نحو 15 مليون دولار.

وبدخول أحمد هيكل على الخط تكتمل الدائرة بين ولدى مبارك وولدى هيكل.. ليختلف الكبار فى السياسة وليتفق الصغار فى الثروة.. أما الهدف فلا مانع أن يكون حكوميا.. مرة هيئة البترول.. ومرة أخرى بنكا وطنيا.. فكل شىء أصبح مباحا أمام البيزنس ولو مات الشعب المصرى من الجوع وعجز عن دخول حمام خاص فى العشوائيات.

هرب حسن هيكل إلى لندن خوفا من القبض عليه وأبدى ياسر الملوانى استعداده لتحمل المسئولية عنه.. وفى الوقت نفسه وحتى تفسد القضية بدأ دفاعهما يطالب بإدخال

كل من اشترى سهما من أسهم البنك الوطنى للتنمية فى القضية.. وتضم القائمة أسماء متنوعة ومؤثرة فى أسواق الاستثمار.. وتوجيه الاتهام إليها يعنى المساس بسمعتها.. وربما يؤدى إلى انسحابها من تلك الأسواق.

ولا أحد يتمنى أن يصاب حسن هيكل بأذى.. بل.. ولعلاقة الصداقة مع والده أتمنى أن يحظى بالبراءة.. ويتمتع بحريته.. ويعود إلى وطنه وعائلته.. خاصة أننا أمام شخص موهوب فى تخصصه.. قادر على إفادة بلاده بما يفهم ويستوعب.

لكن.. تلك القضية سرعان ما جرَّت قضية أخرى.. تخص وزير التجارة والصناعة الأسبق رشيد محمد رشيد.. اتهم فيها هو وابنته عاليا بالتربح وكسب مئات الملايين من الجنيهات بمساعدة من مديرى هيرميس (ياسر الملوانى وحسن هيكل) وإن لم توجه إليهما اتهامات فيها.

هناك رواية غير مؤكدة عن أن عمر سليمان نصح رشيد بالسفر بعد أن أحرقت عشر سيارات أمام بيته.. ووجد نفسه معرضا للقتل لو نبه أحد المتظاهرين الغاضبين إلى وجوده فى نفس البيت.

لكن.. هناك رواية أخرى ربما تكون أدق.

لقد استأجر رشيد طائرة خاصة لنقل عائلته خارج البلاد.. وشغلت أمه وزوجته (هانية محمود عبد الرحمن فهمى) وبناته (عاليا وراوية وسلمي) وأحفاده كل مقاعدها وعددها 11 مقعدا.. واستعدت الطائرة للإقلاع من أحد مطارات الإسكندرية.. مسقط رأسه.. ومقر عائلته.. ولم يكن هو على متنها.. فقد قرر العودة إلى القاهرة ليظل فيها.. لكن.. أحد مساعديه أخبره أن الطرق خارج المطار مغلقة بالمتظاهرين.. وليس أمامه سوى قضاء ليلته فى المطار.. ففكر فى تلك اللحظة فقط أن يسافر مع عائلته.. ولأنه لم يكن لديه مقعد فى صالون الركاب فإنه قضى ساعات السفر فى كابينة القيادة.

توجهت الطائرة إلى دولة الإمارات لسبب لم يكن متوقعا.. أن تأشيرات دخول بريطانيا على جوازات سفر بناته منتهية.. فكانت الإمارات هى الدولة الوحيدة المستعدة لاستقباله هو وعائلته دون تأشيرات حسب القواعد المعمول بها فى دبى.

أكثر من ذلك ارتبط رشيد خلال توليه الوزارة بعدد من المسئولين فى الإمارات وقطر والسعودية ساعدوه فى محنته فيما بعد.

ذات يوم طلب منه مبارك أن يجهز نفسه للسفر معه إلى الإمارات.. لكنه.. قال له: «إن هناك مشكلة يجب حلها قبل السفر لأن الإماراتيين سيفتحونها معكم وربما يسبب ذلك حرجا».

كانت شركة اتصالات قد اشتكت من عدم منحها كل ما اتفق عليه من ترددات بعد أن دفعت أربعة مليارات دولار فى الرخصة الثالثة للمحمول.. واتضح أن الجيش يرفض منح تلك الترددات.

سمع مبارك المشكلة فقال لرشيد: «اذهب إلى المشير وحلها معه».. لكن.. رشيد ذهب إلى عمر سليمان وقابلا معا وزير الدفاع حسين طنطاوى الذى بادرهما قائلا: إنه يريد تبرعا من الشركة للجيش لا يقل عن 50 مليون دولار.. وأسقط فى يد رشيد.. كيف يمكن أن يطلب مبلغا من شركة أجنبية دون مبرر؟. ولكن.. المشير أصر على الطلب قائلا: «ما هم حيكسبوا مليارات منا».

نجح رشيد فى أن يأتى بالخمسين مليون دولار ولكن ما أن بشر طنطاوى بها حتى وجده يقول: «لا الجيش يريد 200 مليون دولار».. وهنا لم يكن من الممكن حل المشكلة دون تدخل مبارك بعد أن أبلغه عمر سليمان بما حدث.. وأمسك مبارك التليفون وعنف المشير.

وفى آخر رحلة لمبارك إلى الإمارات كان رشيد معه على متن الطائرة عائدين إلى القاهرة عندما حدث أمر أخرج رشيد عن حدود الأدب الذى اشتهر به.

لاحظ رشيد أن جمال مبارك يملى على زكريا عزمى شيئا يسجله على ورقة صغيرة.. كانت الورقة تضم أسماء شخصيات تقرر التضحية بها حتى يبدو النظام وكأنه يتطهر

من رموز فاسدة.. وضمت القائمة: أحمد عز أمين التنظيم فى الحزب الوطنى وأحمد المغربى وزير الإسكان وزهير جرانة وزير السياحة.. بجانب خانة وضع عليها علامة استفهام تعنى أنهما لم يصلا بعد إلى شخصية أخرى توضع فى قفص الاتهام.

بعد لحظات طلب مبارك أن يأتى إليه رشيد فى مكانه الخاص على الطائرة.. وهناك وجد رشيد نفس الورقة فى يد مبارك الذى قدمها إليه وسأله رأيه فيما حوت من أسماء.. فقال رشيد غاضبا: «لو لم أكن معكم الآن لكان اسمى قد وضع مكان علامة الاستفهام».

وبعد أن دفعت الأقدار رشيد للخروج من مصر فى الوقت المناسب تلقى تليفونا من جمال مبارك عارضا عليه العودة إلى مصر وتولى رئاسة الوزارة.. لم يحتمل رشيد ما سمع وانفجر فى جمال مبارك إلى حد السباب.. وهو ما جعل جمال مبارك من شدة الصدمة ينهى المكالمة دون كلمة توحى بذلك.

وتلقى رشيد مكالمة أخرى من أحمد شفيق عرض عليه فيها أن ينضم إلى حكومته.. بل أبدى استعداده للتنازل عن رئاسة الحكومة له.. ولكن.. رشيد رفض قائلا: «إن نهاية العمل فى الحكومة المصرية هو السجن».. وأقسم أنه لن يقبل بمنصب حكومى ولو كان رئيسا للجمهورية.

وبقى رشيد فى الخارج متنقلا بين قطر وتركيا والإمارت وبريطانيا.. لكن.. بعد أن تغيرت الظروف السياسية فى مصر بعد 30 يونيو وبعد أن تغيرت الظروف فى قطر بعد الإطاحة بكل مجموعة رئيس الحكومة السابق حمد بن جاسم راح يتنقل بين إيطاليا وفرنسا.

وجاءت القضية الأخيرة لتصيبه بالارتباك والشلل.

القضية قدمها المستشار أشرف عشماوى رئيس هيئة الفحص والتحقيق فى جهاز الكسب غير المشروع وأحالها إلى الجنايات تحت رقم 13 لسنة 2014.

جرت وقائع القضية فى دائرة قسم عابدين (محافظة القاهرة) خلال الفترة ما بين أكتوبر 2003 وحتى فبراير 2011.. واتهم فيها رشيد بصفته من العاملين فى الدولة

والقائمين على أعباء السلطة العامة (وزير تجارة وصناعة وعضو فى لجنة سياسات الحزب الوطنى) بأنه استغل نفوذه وسلطات وظيفته فى الحصول لنفسه على كسب غير مشروع مقداره 522 مليون جنيه بحصوله على معلومة سرية جوهرية داخلية بأن المجموعة المالية هيرميس القابضة سوف تطرح أسهما للاكتتاب لزيادة رأس مال الشركة وأن بعض المساهمين الرئيسيين سيحجمون عن الدخول فى الاكتتاب وبما يحقق له فرصة الحصول على أكبر عدد من الأسهم استغلالا لهذه المعلومة.. فقام قبل الإعلان عن الاكتتاب بل قبل اجتماع مجلس إدارة الشركة للموافقة على زيادة رأس المال بالتقدم لبنك بى إن بى باريبا وحصل على قرض لتمويل شراء الأسهم مقررا للبنك على خلاف الحقيقة أنه يمتلك أسهما بتلك الشركة فحصل على قرض قيمته 40 مليون جنيه بالمخالفة للأعراف المصرفية وبضمانات غير حقيقية تمثلت فى إقراره امتلاك 8 ملايين سهم بالشركة ولم يكن يمتلك سوى ألف سهم فقط.

ويضيف قرار الإحالة: أنه تمكن من خلال استغلاله لتلك المعلومة الجوهرية من دخول الاكتتاب والحصول على عدد 9. 5 مليون سهم بعد إحجام مساهم رئيسى هو بنك سيتى بنك عن المضاربة على الأسهم.. كما تمكن من دخول الاكتتاب.

كما تمكنْ رشيد من دخول الاكتتاب الثانى بنفس الوسيلة عام 2005 استغلالا لمعلومة سرية جوهرية داخلية بزيادة رأس مال الشركة فاتفق مع ابنته عاليا المتهمة الثانية (35 سنة بكالوريوس هندسة) على شراء أسهم باسمها بعد أن أبلغها بمضمون المعلومات الجوهرية سالفة البيان قبل انعقاد مجلس الإدارة لاتخاذ قرار زيادة رأس المال بنحو شهر تقريبا مما مكنه من الاستحواذ على عدد إجمالى من الأسهم بلغ مقداره 2. 16 مليون سهم قام ببيعها تباعا حتى نهاية 2007 بقيمة إجمالية بلغت 700 مليون جنيه حقق منها 522 مليون جنيه كسبا غير مشروع بناء على تلك المعلومات الداخلية ومتعمدا إغفال تلك المضاربات وما حققه من كسب فى إقرارات الذمة المالية المقدمة منه.

ويستطرد قرار الإحالة: إن رشيد ذكر عمدا فى إقرارات الذمة المالية المقدمة منه عن فترة خدمته وزيرا للتجارة والصناعة (2004- 2011) بيانات غير صحيحة وأغفل

متعمدا ذكر بعض العقارات والمنقولات والشركات التى يمتلكها ويشارك فيها بحصص محدودة كما فى الأوراق.

وفى نهاية قرار الإحالة طالب المستشار أشرف العشماوى من هيئة المحكمة الأمر بإدخال زوجة رشيد وكل من استفاد استفادة جدية من الجريمة.

وضمت قائمة أدلة الثبوت ستة شهود: حازم محمود محمد محمود رائد بإدارة مباحث الأموال العامة (قال إن رشيد حول ما كسب من الجريمة إلى بريطانيا وسويسرا وقبرص فى شركات أوف شور) وعبد الرحيم محمد عبد الرحيم مدير إدارة بقطاع الرقابة بالبنك المركزى (قال إن التحويلات المالية التى قام بها رشيد وابنته إلى خارج البلاد تمت باسم شركة سنابريا القابضة وهى شركة متهمة بغسيل الأموال) وعمرو محمود إسماعيل وياسر بدر الدين على طه نائبا مدير قطاع الرقابة بالبنك المركزى (وشهدا بما سبق أن شهد به الشاهد الثانى) ومحمد عمر متولى على حسن نائب رئيس الهيئة العامة للرقابة المالية (رجح معرفة رشيد بالمعلومات الجوهرية) وأحمد فتحى سيد أحمد حجازى عضو هيئة الرقابة الإدارية (شهد أن رشيد وعائلته يملكون أسهما فى شركات فندقية وصناعية وغذائية وكيماوية وهندسية وسياحية).

لكن.. ما علاقة حسن هيكل بهذه القضية؟

إن حسن هيكل وياسر الملوانى هما المديران التنفيذيان لشركة هيرميس.. محل الجريمة.. ومصدر المعلومات الجوهرية التى كسب من ورائها رشيد الملايين المذكورة فى قرار الإحالة.. وبهذه الصفة لا بد من اتهامهما.. كما حدث فى قضية البنك الوطنى.. وإلا لا تكتمل القضية.

ولغياب حسن هيكل خارج مصر سئل ياسر الملوانى أمام النيابة العامة كشاهد وصرف دون كفالة.. وهو أمر يمكن للمحكمة تداركه فيما بعد.

وقد أبدى رشيد استعداده للتصالح وعرض مبلغ 250 مليون جنيه.. أقل من نصف المبلغ المذكور فى قرار الإحالة.. وحسب ما سمعت من محاميه جميل سعيد فإن هناك صعوبة فى التصالح بعد الإحالة.

إن ما فعلت هيرميس تحت قيادة ياسر الملوانى وحسن هيكل من عمليات مريبة فى الاقتصاد المصرى تفوق ما حدث فى ملف الخصصة.

لقد حاولت هيرميس الملوانى وهيكل أن تستحوذ على البنك التجارى الدولى (سى آى بى) لتضعه وتطويه تحت جناحها لتضيف إلى نشاطها الاستثمارى نشاطا بنكيا تجاريا.

بعلاقتها القوية بجمال مبارك راحت هيرميس تعرض الاندماج على هشام عز العرب المسئول الأول عن البنك التجارى.

والمعروف أن هناك طريقتين لتحديد سعر الشركة.. إما بقيمة أسهمها.. أو بتقدير أرباحها ومدى ما تحققه من سيولة مالية أو حجم توقعات المكسب فى المستقبل القريب.

حاولت هيرميس تطبيق الطريقة الأولى فراحت مسبقا ترفع قيمة أسهمها فى منظومة متتالية حتى أصبح سعر السهم أكثر من ضعف سعر سهم البنك التجارى.. وجاء العرض بأن يكون نصيب هيرميس من الشركة القابضة التى تضمها مع البنك (67 %) على أن يكون نصيب البنك (33 %).

لكن.. هشام عز العرب الذى لم يكن يريد الاندماج رفض ذلك الأسلوب فى التقييم قائلا: الطريقة الثانية أفضل.. ونحن كبنك أرباحنا هى الأعلى.. اليوم وغدا.

وهنا عرض حسن هيكل أن يكون لهيرميس (60 %) وللبنك التجارى الدولى (40 %).

شعر عز العرب بأن المؤامرة على البنك أكبر من مقاومتها خاصة أن وراء العملية قوة جمال مبارك ومصالح أتباعه فى هيرميس.

هنا تفتق ذهن عز العرب عن منفذ قانونى ينقذ البنك مما يدبر له.. قال: إن القانون لا يسمح لأحد بشراء أكثر من عشرة فى المئة من أسهم أى بنك.. ولو اندمج البنك التجارى فى شركة قابضة فإن هناك من يشترى أسهما فى الشركة القابضة أكثر مما يسمح به قانون البنوك.

هنا بدأ التفكير فى تغيير قانون البنوك.. وظهر دور مباشر للدكتور فاروق العقدة.. المسئول عن البنك المركزى.

لكن.. تغيير القانون يحتاج إلى وقت.. والذئاب جائعة.. والفريسة مغرية.. تفتق ذهن مدير هيرميس عن حل جديد.. دمج البنك التجارى الدولى مع البنك العربى الإفريقى الذى يرأسه صديق مبارك رئيس اللجنة الاقتصادية فى لجنة السياسات حسن عبد الله.. يكون هذا الاندماج خطوة أولى للاندماج مع هيرميس.. ولكن.. الكويتيين الذين يملكون نصف أسهم البنك العربى الإفريقى رفضوا.. من جانب عاطفى.. ارتباطهم بالبنك.. ومن جانب واقعى.. أن أسهمهم ستنخفض من (50 %) إلى (25 %) فى الكيان البنكى الجديد.. ثم سرعان ما يتلاشى وجودهم فى الكيان الأكبر الذى سيضم هيرميس.

ولم تتوقف الذئاب الجائعة عن التفكير.. لكن.. ما حدث فى يناير 2011 أنقذ البنك التجارى الدولى وكشف تلاعب هيرميس وارتباطها بالقوى السياسية الحاكمة.

بدأت تلك المحاولات فى عام 2007 واستمرت أربع سنوات تقريبا.. وما يؤكد سوء الظن وسوء القصد أن هيرميس بعد أن نفخت فى سعر أسهمها وصلت قيمته السوقية فى عام 2007 إلى 25 مليار جنيه.. وقدرت القيمة السوقية لأسهم البنك التجارى بنحو 17 مليار جنيه.. ولكن.. تغيرت القيمة الآن.. فانهارت قيمة هيرميس إلى 5 مليارات وصعدت قيمة البنك التجارى الدولى إلى 29 مليارًا.. وتكشف الأرقام عن مدى اللعب فى البورصة للوصول إلى مكاسب فاحشة تضر بالاقتصاد الوطنى.

من جديد يمكن القول بأن حسن هيكل لم يكن بعيدا عن جمال مبارك ولا مجموعته.. ولو لم تكن علاقته بهم من باب الود فإنها كانت لتحقيق مصالح لهم.. بخلاف ما يقول هيكل.. وبخلاف ما نصح به أبناءه.

8

ألعاب نارية وفرقعات

صحفية لرجال جاوز التسعين

لا بد أنك مثلى توقفت عند دعوة رجل تجاوز التسعين من عمره ينتمى إلى ماضٍ بعيد عاصر فيه انغلاق الشمك ليتحدث عن مستقبل قادم.. يسيطر عليه انفتاح الجينز.

يوم الخميس 10 إبريل 2014 كان هيكل ضيف حوار على لميس الحديدى ليتحدث عن تصوره لما سيحدث.. لكنه.. كالعادة أغرقنا فيما حدث.. طلبت منه أن يتحدث عن الغد القريب فإذا به يعود إلى ماض بعيد.

فى ذلك اليوم كشف هيكل عن جريمة سياسية خطيرة.. ولكنه.. نسبها إلى رجل ميت.. هو مليس زيناوى الرئيس السابق للحكومة الإثيوبية.. واتهم بارتكابها رجلًا ميتًا أيضا.. هو عمر سليمان المدير الأسبق للمخابرات العامة.

كان هيكل (حسب روايته) فى إيطاليا (لم يحدد المدينة والتاريخ) وقابل فى مصعد الفندق (لم يحدد اسمه) شخصا راح يحدق فيه.. وعندما وصلا إلى أحد الطوابق سأل هيكل: «هل أنت مستر هيكل؟».. وعندما أجابه بنعم أضاف الرجل: «إن زيناوى هنا يعالج لأنه مريض».. واستطرد: هل لديك مانع لمقابلته؟. وبالطبع لم يكن لدى هيكل مانع.. وبعد يومين اتصلوا به.

هنا.. أتساءل: لو كان رجل زيناوى هو الذى طلب المقابلة فلماذا انتظر يومين ليحدد موعدا عاجلا لهيكل؟. لماذا لم تجر المقابلة فى وقت أسرع؟. من أدراه أن هيكل سيبقى يومين؟. أليس الأقرب للاحتمال أن يكون هيكل هو الذى طلب وهو على كل حال أمر مشروع وإن يخلو من الغرور؟

جلس هيكل وزيناوى ومعه أحد مساعديه فى التراس بجوار صالون الجناح الذى يقيم فيه زيناوى وبدأ يشكو مما صنعته به مصر.. «ومنها محاولة اغتياله ثلاث مرات

فى عهد مبارك من خلال خطط السيد عمر سليمان".. وعلق هيكل على ذلك بشعوره بالخجل.. وبوصفه الأمر بالخطير.

قصة مثيرة.. بالفعل.. انتظر زيناوى المصاب بمرض ميؤوس منه صدفة مقابلة هيكل ليدلى بالسر العظيم.. وكأنه يخصه بوصية.. أو كأنه يخلى ذمته من الدنيا قبل أن يطير إلى الآخرة.. وهنا نتساءل: لو لم تقع تلك الصدفة فهل كان زيناوى سيرحل عن عالمنا دون أن يكشف ما يخبئه فى صدره ويموت عليه خاصة أننا لم نسمع تلك القصة من مسئولين إثيوبيين آخرين بمن فيهم من يكرهون مصر؟

ويزعم هيكل أنه تحرى الأمر بنفسه.. ولكنه.. لا يريد الخوض فيه.. دون أن يبرر إحجامه عن ذكر التفاصيل.. فجريمة اغتيال رئيس دولة مثل إثيوبيا تمد مصر بنحو 85 % من مياه النيل جريمة سياسية من الطراز الأول.. لا يجوز السكوت عليها.. لا يجوز أن يذكرها هيكل بكل هذه السرعة والخفة وهو الصحفى الذى علمنا أهمية التفاصيل.. إن هذه الجريمة قبل أن تكون موجهة إلى شخص زيناوى موجهة ضد مصالحنا الحيوية فى مياه النيل.. المشكلة الصعبة التى نحتار فى حلها.

وليس من عادة هيكل أن يفجر كارثة بهذا الحجم ويمضغها فى كلمات قليلة.. إنه كاتب التفاصيل الدقيقة.. ولو طبقنا هذه الواقعة على أسلوب هيكل فى الكتابة لتوقعنا منه أن يتحدث عن شكل الثياب الذى كان يرتديها زيناوى ونوع المشروب الذى قدمه وشكل المكان من حولهما.. لكن.. هيكل أكل الواقعة المفزعة فى كلمات قليلة عابرة على غير عادته وكأنها لم تحدث.

إنها بالفعل جريمة خطيرة لا يجوز السكوت عليها.. بل.. يجب التحقيق فيها.. فربما كانت سببا قويا فى استفحال الأزمة الحادة بيننا وبين إثيوبيا.. كما أنها جريمة تمس نظام مبارك.. فهل كان نظاما يعتمد أسلوب قتل الخصوم إذا ما تفرقت المصالح وتباعدت السبل؟

لقد حاول جمال عبد الناصر اغتيال قائد الجيش المصرى قبل الثورة حسين سرى عامر.. ومن يومها وهو يرفض أسلوب التصفية الجسدية لخصومه فالأهم من تغيير الشخصيات تغيير السياسات.

وحسب ما سمعت من سامى شرف فإن صلاح نصر وهو مدير للمخابرات جاء ليعرض على عبد الناصر اغتيال الزعيم اللبنانى كميل شمعون.. لكن.. عبد الناصر رفض غاضبا.. وكاد أن يطرد الرجل من مكتبه.

ولو كانت المخابرات وقت مديرها القوى قد تجنبت الاغتيال فلا نتصور أنها تعاملت معه فيما بعد.. بل مؤكد أنها لم تعتمده أسلوبا للتعامل أو للتفاهم.. للعقاب أو للحساب.

والسؤال: لماذا سكت هيكل حتى مات زيناوى وحتى مات سليمان؟. لماذا لم يتكلم إلا بعد أن تأكد أن جسديهما أصبحا جزءا من أديم الأرض؟. هل خشى النفى.. ولا أقول التكذيب؟. أم أن القصة كلها مصنوعة من دخان؟

ومن جانبى سأستند أنا أيضا على شهادة رجل توفاه الله هو عمر سليمان.. كل كلمة أسندها إليه سجلتها على لسانه.. وهنا يمكن التشكيك فيما أقول.. فأنا ألجأ أيضا لشاهد لم يعد موجودا بيننا.. وهذا صحيح.. لكن.. الصحيح أيضا أننى سأدعم شهادته بشهادة مسئول سابق فى المخابرات كان ذلك الملف تحت يديه.. هو اللواء عمر قناوى الرئيس الأسبق لجهاز الخدمة السرية.. وهو متخصص فى الشأن الإفريقى منذ بداية عمله السرى.. وكان صديقا شخصيا لزيناوى.. ونجح فى إقناعه كما قال لى بزيارة مصر ثلاث مرات.. ولم يمانع فى نشر اسمه.. وقبل ذلك وصف ما قال هيكل بالخرافة.. ولكن.. بجانب شهادة النفى التى قدمها سأعتمد أيضا على معلومات يصعب الشك فيها.. وسألجأ إلى منطق يستحيل على رجل مثل هيكل خبير بما يدور فى العوالم الخفية لأجهزة المخابرات أن ينكره.

ولنبدأ القصة من أولها.

فى صباح يوم الأحد 25 يونيو 1995.. بالتحديد فى الساعة الثامنة والنصف مساء.. هبطت مطار أديس أبابا (مطار بولى) طائرة نقل حربية مصرية (طراز هيركليز سى 130) تحمل فى بطنها السيارة الليموزين المصفحة الخاصة بمبارك.. وهى سيارة مرسيدس

سوداء طراز (560).. ومعها سائق من الرئاسة.. وميكانيكي.. وخبير مفرقعات.. وكان فى استقبالها القنصل العام فى أديس أبابا الدكتور عادل عبد اللطيف.

السيارة ليست ضد الرصاص فقط وإنما ضد الألغام الأرضية وقاذفات البازوكا والآر بى جى أيضا.. ويسمح الزجاج الحارس فى داخل السيارة بإطلاق النار على هدف خارجها.. لكن.. يستحيل دخول الرصاص من خارجها.. ويصعب كذلك اختراق الإطارات.

فى الساعة الثامنة إلا ربعا من صباح اليوم التالى وصلت طائرة مبارك.. ولكن.. سلطات المطار استبقتها فى الجو ربع ساعة لحين وصول رئيس الحكومة مليس زيناوى ليكون فى استقباله.

وبعد مراسم الاستقبال التى استغرقت نحو نصف الساعة خرج مبارك مستقلا سيارته المصفحة فى موكب يتكون من: سيارة شرطة اثيوبية (أوبل).. ثم سيارة الرئيس.. ثم سيارة ميتسوبيشى باجيرو (فور باى فور) فيها طاقم من الحراسات المصرية الخاصة.. ثم سيارة مرسيدس سوداء إثيوبية (حكومية) فيها عمرو موسى وأسامة الباز.. ثم سيارة ثالثة من الطراز نفسه لباقى أعضاء الوفد المصرى.. ثم سيارة السفير المصرى المرسيدس السوداء أيضا. وكان بصحبة الركب ثلاثة موتوسيكلات خرجت به من أرض المطار فى الساعة الثامنة والنصف ليتجه إلى قلب العاصمة.. حيث السفارة المصرية.

وتعكس كل هذه الاستعدادات المصرية حقيقة أن المخابرات العامة كان لديها من الشواهد ما يؤكد أن الرئيس سيتعرض إلى محاولة اغتيال.. دون أن تعرف موقعها بالضبط.. ووضعت رحلة أديس أبابا لحضور مبارك الدورة الخامسة والثلاثين من القمة الإفريقية فى الحسبان.. وحسب ما سمعت من عمر سليمان لم تكن المخابرات تعلم مكان الجريمة ولا زمانها.. وهو ما جعله ينصح مبارك بعدم السفر إلى أديس أبابا.. لكن.. مبارك رد عليه قائلا:

أنا رئيس الدورة الحالية للقمة الإفريقية وعلى تسليم رئاستها ولو اعتذرت فإن كل عمل السنوات الماضية سيذهب هدرا.

وأضاف مبارك:

«احنا ما صدقنا ندخل إفريقيا تانى».

وهنا صمم عمر سليمان على شحن السيارة المدرعة واشترط على الإثيوبيين قبولها وإلا ألغيت الرحلة.. ولم يكتف بتلك السيارة وإنما اشترط أن يقودها سائق من الرئاسة وهو طلب غريب لا ينفذ عادة إلا للرئيس الأمريكى فقط.. أكثر من ذلك اشترط عمر سليمان أن تكون الطائرة مستعدة للإقلاع فى أى وقت وبدون تصريح.. وبقى الطيارون وطاقم الضيافة على متنها فى حالة استعداد لتدور المحركات فى أى لحظة.. ولم يذهبوا إلى فندق كما يحدث عادة.

وبالفعل وافقت إثيوبيا على كل الطلبات.. وإن حددت أعداد الحرس الخاص.. وفى الوقت نفسه سمحت لهم باستعمال أسلحتهم إذا اقتضت الضرورة.

خرج موكب مبارك إلى طريق يحمل نفس اسم المطار.. طريق بولى.. وعند ميدان صغير.. يقع على بعد 500 متر (أو ثلاث دقائق) من المطار وقع الهجوم.. وقد رأيت بنفسى مكان الحادث عندما زرت إثيوبيا فيما بعد.. وسمعت الناس يطلقون على ذلك الميدان اسم «دوران مبارك».

قال مبارك فيما بعد: «سمعت طأطأة».. لكنه.. لم يبالِ.. «فهذه البلاد فيها كثير من المشاكل».. على أنه فى تلك اللحظة جاءت سيارة تويوتا (طراز لاندكروز) من الطريق العكسى واندفعت بسرعة قافزة فوق الجزيرة الوسطى للطريق لتعترض سيارة مبارك بعد أن تركت سيارة الشرطة الإثيوبية تمر.

نزل من السيارة «تويوتا» بعض الشبان يصعب الجزم بعددهم وإن كانت أدق التقديرات تشير إلى أن عدد المشتركين فى العملية هم 15 شخصا.. كان المهاجمون منهم على بعد 15 مترا فقط من سيارة مبارك.. وفى ثوانٍ دخلت مسرح العملية سيارة أخرى.. فولفو فضية اللون (ميتالك).. وسيارة تويوتا ملاكى.. لكن.. شهود العيان لم يلحظوا السيارتين.. إلا فيما بعد.

فى ظل هذا الاضطراب استطاع سائق سيارة مبارك أن يوقفها قبل أن تصطدم بسيارة الجناة.. وفى هذه اللحظة سمع الرئيس يقول له: «لف وارجع».

عاد السائق إلى الوراء عدة أمتار.. ثم بقوة وجرأة قفز فوق الجزيرة الوسطى وأخذ الطريق المعاكس إلى المطار.

وصل مبارك إلى الطائرة فى أمان لكنه أصر على عدم الإقلاع بها إلا بعد الاطمئنان على عمر سليمان وعمرو موسى وأسامة الباز.

وقال لى عمر سليمان فيما بعد: إنه سمع مبارك يقول لمن حوله فى الطائرة «مفيش إقلاع إلا بعد أن أطمئن على عمر سليمان وعمرو موسى».

وما أن اطمأن مبارك عليهما حتى طلب منهما الرجوع إلى المؤتمر «حتى لا تغيب مصر عن تسليمه».. بشرط أن يتأكدا من سلامة إجراءات التأمين والحماية لهما.

لم تتهم مصر إثيوبيا بضلوعها فى المؤامرة التى ثبت أن مدبرها هو نائب الرئيس السودانى.. وثبت أيضا أن الرئيس السودانى لم يكن يعلم عنها شيئا حسب ما نفى لمبارك فيما بعد.

وعاد عمر سليمان إلى أديس أبابا ليحقق فيما جرى.. وإثباتا لحسن النية تركت له الحكومة الإثيوبية مكتب وزير الداخلية ليدير منه التحقيقات.. ووضعت كل الإمكانيات الأمنية تحت تصرفه.. وتحت تصرف الطاقم المتخصص الذى جاء من المخابرات العامة ليساعده.

وظهرت الحقائق الأمنية التالية:

- إن الحدود السودانية الإثيوبية مفتوحة ويصعب السيطرة على حركة التنقل بينها.

- وجود معسكر تدريب للإرهابيين (من جنسيات مختلفة منهم مصريون) على بعد 20 كيلومترا فقط من الحدود السودانية الإثيوبية.

- تواجد قيادات وعناصر أمنية من المخابرات السودانية فى أديس أبابا خلال الأيام العشرة الأخيرة التى سبقت عقد القمة.. منهم اللواء الفاتح عروة المستشار الأمنى للرئيس عمر البشير.. ومحمد أحمد الدابى رئيس المخابرات العسكرية السودانية.

- وجود أسامة بن لادن فى السودان والمرجح أنه قام بتمويل العملية.

قبضت السلطات الإثيوبية على شخص سودانى كان يرسم خريطة لمنطقة الحادث قبل ساعات من وقوعه.

وبعد نحو الشهر تأكد عمر سليمان أن إثيوبيا لم تكن ضالعة فى العملية ووصفها فى تقرير رفعه إلى مبارك بأنها كانت «ضحية استغلال أرضها».. وأن السودان المتهم الوحيد فيها.. بلا منازع.

وهنا بدأت أصوات تطالب بالحرب على السودان.. لكن.. للإنصاف فإن مبارك رفض قائلا:

«إن الدور السودانى مهم فى تأمين حدودنا».

وساند عمر سليمان وجهة نظره مضيفا:

«الحرب ستكون عقابا جماعيا ضد عمل فردى خسيس».

إذن.. ليس هناك مبرر للانتقام من مليس زيناوى بتدبير محاولات لاغتياله.. يضاف إلى ذلك أن اللواء أحمد العادلى مدير مباحث أمن الدولة فى ذلك الوقت نجح فى تحديد شخصية الجناة.

والأهم أن أجهزة المخابرات أصبح من الصعب عليها أن تتخذ قرارا بقتل شخص ما ولو كان إرهابيا.. فعملية الاغتيال إذا ما صدر الأمر بتنفيذها لا يلغى أبدا.. إلغاء مثل هذا الأمر بعد صدوره يعنى أن اتخاذه كان خطأ من أساسه.. وهنا يجب عقاب من اتخذه أو اقترحه.

وعادة ما تستعين أجهزة المخابرات بمتخصصين فى عمليات الاغتيال حتى لا تربط الدولة أو مخابراتها نفسها بالجريمة.. والدليل على ذلك عملية اغتيال رفيق الحريرى.. فاتهام المخابرات السورية بتنفيذها لم يقم عليه دليل واحد.. وظل مخنوقا فى دائرة الشبهات والتكهنات.

يضاف إلى ذلك أن الأمر لو صدر باغتيال شخصية ما وتتسلم جهة التنفيذ المبلغ المتفق عليه فلا تتراجع مهما فشلت وتظل تسعى وتحاول أكثر من مرة حتى تنجح.. وإلا فقدت سمعتها.. وأساءت إلى عملها.. وخسرت زبائنها.. وهنا يمكن القول وبكل تأكيد.. أن أجهزة المخابرات تستعين بعصابات محترفة للقتل.. مثل المافيا.

لذلك.. لو كانت المخابرات المصرية قررت اغتيال مليس زيناوى فلماذا حاولت جهة التنفيذ قتله ثلاث مرات فقط؟. لماذا لم تحاول مرة رابعة وخامسة وعاشرة إلى أن تنجح.. إن النجاح ضرورة وإلا كانت الفضيحة مؤكدة.. وفى وقتها.

ولنا أن نتخيل حاكما مثل زيناوى له أعداء فى الخارج وأنصار فى الداخل يتعرض لثلاث محاولات اغتيال ولا نسمع عنها إلا من هيكل.. لقد كان من الطبيعى أن يستغل زيناوى مثل هذه المحاولات فى كسب شعبية سياسية داخلية.. أو تبرير بناء سد النهضة فى مواجهة الرفض المصرى.. ألم يستغل الإثيوبيون اجتماع محمد مرسى الشهير (الخاص بذلك السد) فى فضح مصر؟.. ألم يكن من الأوقع أن يستخدموا محاولات اغتيال زيناوى من قبل بنفس الطريقة؟.. ألم يكن من السهل عليهم تسريب تفاصيل محاولات الاغتيال إلى صحيفة محلية أو عالمية لفضح مصر؟. هل كان على زيناوى انتظار صدفة المصعد فى فندق إيطالى ليخص هيكل بمحاولات اغتياله؟

وحسب ما قرأت فى مذكرات مديرى وكالة المخابرات المركزية (الأمريكية) إن الاغتيال أصبح قرارا صعبا تتخذه أجهزة المخابرات.. ليس فقط ضد الحكام المنتخبين وإنما ضد الإرهابيين أيضا.. ولو حدث فإن الدولة التى تتخذه يصبح عليها التأكد أن تنفيذه لن يمسها.

ولا تتردد المخابرات الأمريكية فى ابتزاز أى جهاز مخابرات تكتشف تورطه فى عملية اغتيال.. ولذلك فإن هذه العملية تكون عادة بعيدة عن الأجهزة.

ولا بد أن يصدر قرار الاغتيال من رئيس الدولة شخصيا.. أو مجلس الأمن القومى.. ومن ثم فإن قرار اغتيال زيناوى ليس مسئولا عنه عمر سليمان.. بل مسئول عنه مبارك.. وربما باقى أعضاء مجلس الدفاع الوطنى.. مثل رئيس الحكومة ووزراء الدفاع والخارجية والداخلية.. خاصة أن عملية الاغتيال تتكلف ملايين الدولارات؟

وهنا نكرر.. أن التحقيق فيما قال هيكل ضرورة حتى لا يستخدم تبريرا من جانب الإثيوبيين فى مزيد من العداء ضد مصر ويمنحهم حجة إضافية للعبث بمصالحنا المائية.. التحقيق يحدد قوة هيكل فى الحصول على معلومات لم يعرفها غيره.. أو يدينه فى تهمة تمس الأمن القومى.. وتتسبب فى جوع مائى لمصر.

ولكن.. ما ينفى التهمة عن مصر.. أن زيناوى زار مصر مرتين فى عام 2005 و2010 وحضر مؤتمرين عقدا فيها.. فكيف له أن يأتى إلى دولة وهو يعرف أن مدير مخابراتها حاول اغتياله ثلاث مرات.. وفى نفس الوقت يعتمد فى حمايته الشخصية على أجهزتها الأمنية.. ويستخدم سياراتها وينام فى فنادقها.. ويأكل من طعامها؟. بل.. أكثر من ذلك يقابل الرجل الذى حاول اغتياله ويأخذه بالأحضان؟

فى مؤتمر دول حوض النيل الذى عقد عام 2010 فى شرم الشيخ التقى عمر سليمان أربعة مرات مع زيناوى فى الغرفة الخلفية لقاعة المؤتمرات بمنتجع الجولف فى شرم الشيخ.. وهى نفس الغرفة التى التقت فيها كوندليزا رايس الوزيرة الأسبق للخارجية الأمريكية بمسئولين مصريين وأجانب وقت حضورها لمؤتمرات فى شرم الشيخ.. وهى نفس الغرفة التى شهدت اجتماعات سرية بين عمر سليمان والفصائل الفلسطينية خلال مؤتمرات السلام التى عقدت هناك.. وهى نفس الغرفة التى التقى فيها الرئيس الأمريكى جورج بوش الابن بالعديد من أعضاء المنظمات غير الحكومية المصرية.

لكن.. لا يمنع أن زيناوى كان يكره عمر سليمان وأحمد أبو الغيط لأنهما جعلاه يفشل فى بناء السد الذى سمى فيما بعد «سد النهضة».. وظل هذا الفشل قائما حتى جاء محمد مرسى إلى الحكم.

فى نوفمبر 2008 سافر مبارك إلى الصين لحضور مؤتمر القمة الصينية الإفريقية.. ولكن.. تلك المناسبة كانت واجهة لما هو أهم.. إقناع الصينيين بعدم تمويل السد الإثيوبى.. وتحقق ذلك فعلا.

بجانب إيقاف التمويل تباحث عمر سليمان مع السودان على استغلال قاعدة عسكرية على أرضها تنطلق منها قوات مصرية للتدخل إذا ما أصرت إثيوبيا على بناء السد.

ودعم ذلك ما نشره مركز ستراتفور فى عام 2010: «إن مصر طلبت من السودان الموافقة على استغلال قاعدة سودانية صغيرة تنطلق منها ضد إثيوبيا ليكون الحل العسكرى هو الحل الأخير إذا ما فشلت الجهود السياسية والدبلوماسية.. السلمية».

وفى الوقت نفسه يمكن القول: إن مصر مولت عمليات مسلحة فى إثيوبيا.. وتعمدت أن تكون هذه العمليات فى أوقات تسبب حرجا للحكومة هناك.. مثل أوقات زيارات مسئولى البنك الدولى الذين جاءوا للتفاوض حول تمويل السد.. أو عند زيارات شركات استثمارية دولية كبرى.. والهدف ترك انطباع بعدم استقرار الأوضاع هناك.

كما دعمت المخابرات رئيس إريتريا وساندته بنفس القدر الذى دعمت وساندت فيه كل من يعادى إثيوبيا.

وموقف مصر من إثيوبيا يعود إلى سنوات حكم السادات.. حين تناسى قضية مياه النيل.. وانضم إلى ما عرف بنادى «السفارى».. لينشغل بالحرب على الشيوعية.. فدعم حركات التمرد فى الصومال الغربى وجيبوتى بالمال والسلاح ضد نظام «مانجستو هيلاماريام» فى إثيوبيا.. وهو نظام خلع الإمبراطور هيلا سلاسى.. وأتى بالسوفيت إلى البلاد.

وحسب ما سمعت من المهندس حسب الله الكفراوى: إنه شاهد على اجتماع رأسه السادات قال فيه: إن حرب أكتوبر هى آخر الحروب التى ستخوضها مصر.. ولكننا.. لو حاربنا فإننا سنحارب فقط من أجل مياه النيل.

لكن.. الجرح الذى ينزف فى صدور الإثيوبيين هو إعلان السادات عن ضرب بلادهم بالطائرات لو نفذت بلادهم تهديدات حاكمهم ومنعوا مياه النيل عن مصر..

وكان رد مانجستو الذى لم نعرفه إلا بعد سنوات طويلة أمام جماهير غفيرة فى ميدان الحرية (ميدان الصليب فيما بعد): «لو جاء السادات فإننا سنغرقه فى بحر من الدم لن ينجو منه وسنعيده إلى بلاده جثة هامدة».

وبعد السادات واصل مبارك لغة التهديد.. فعندما التقى بزيناوى سأل عمر سليمان وكان حاضرا اللقاء ماذا نفعل لو بنت إثيوبيا السد؟. أجاب عمر سليمان: «سنفجره يا فندم».. وبالفعل تراجعت إثيوبيا.. لكنها.. استغلت حالة الفراغ السياسى الذى عاشته مصر بعد ثورة يناير وعادت للمشروع.. واستغلت حالة البلاهة الحاكمة وقت رئاسة محمد مرسى وبدأت التنفيذ.

وحسب ما سمعت من عمر سليمان فإن مدير الموساد أبلغه باستعداد إسرائيل للمساعدة فى قضية النيل مع إثيوبيا بالضغط عليها.. ولكن.. عمر سليمان رفض تدخل الحكومة الإسرائيلية وإن طلب تدخل الشركات الإسرائيلية العاملة فى إثيوبيا قائلا: «يمكن لتلك الشركات الضغط على حكومة زيناوى بالتراجع عن الاستثمار فى إثيوبيا لو أصرت على بناء السد».. على أن مدير الموساد نفى قدرة حكومته على التدخل فى شئون الشركات الخاصة.. «لا سيطرة لنا عليها».. ولكن «لو أن مصر فتحت لتلك الشركات أسواقها وسمحت بمشروعات لها فمن المؤكد أنها ستفضل السوق المصرية الضخمة عن السوق الإثيوبية الفقيرة».. ولم تلق الفكرة قبولا من مصر.. فشعبها يرفض التطبيع مع إسرائيل.

وهنا نسأل هيكل من باب التخيل لو أن المخابرات أخذت قرارا باغتيال زيناوى فهل كانت ستفشل فى تنفيذه ثلاث مرات؟. هل كانت المخابرات ستتركه يعيش ليفضحها؟. ولماذا قصرت المخابرات المحاولات على ثلاث فقط وأوقفتها بعد ذلك؟. ما العمل الذى قام به زيناوى يجعل المخابرات توقف محاولات اغتياله؟. هل مد جسور المحبة مع مصر وتراجع عن بناء السد؟

والأهم.. أن فشل العملية ثلاث مرات يعنى عدم صلاحية مدير المخابرات.. وهنا لا بد أن يتدخل رئيس الدولة ويقيله.

بعد هزيمة يونيو تولى أمين هويدى الإشراف على المخابرات وبتلك الصفة كلف أحمد حمروش بمقابلة ناحوم جولدمان مسئول عن منظمة يهودية عالمية فى باريس وعندما عرف جمال عبد الناصر طلب منه أن يغادر مكتبه فورا.. وكلف أحمد كامل برئاسة الجهاز.

وبسبب عدم الدقة فى تقدير موقف انقلاب عمر البشير فى السودان نقل مدير المخابرات أمين نمر من منصبه ليصبح سفيرا لمصر فى الكويت.

بنفس المنطق كان يجب عقاب عمر سليمان لفشله فى قتل زيناوى.. لكن.. ما حدث هو العكس.. أصبح نائبا للرئيس.

ولو كان زيناوى يعانى من وجيعة مصرية فلماذا وافق على توقيع اتفاقية للتعاون البيطرى مع مصر لتوريد الماشية واللحوم الإثيوبية إليها؟

والسؤال الأهم: لماذا خص زيناوى هيكل بهذا السر الكبير؟. لماذا لم يلمح به للوفد الشعبى المصرى الذى زار أديس أبابا بعد ثورة يناير وكانت الظروف مواتية باتهام عمر سليمان الذى أصبح عضوا فى حزب «الكنبة»؟

المؤكد أن زيناوى لو كان ما نقل هيكل عنه صحيحا كان يعرف أن عمر سليمان لن يسكت.. وسوف يخرج ويرد.. وهو ما يعنى أن واحدا من الاثنين زيناوى أو هيكل لا يقول الحقيقة.. وربما الاثنان معا.. وربما هيكل وحده.

وبعد ثورة يناير أيضا جاء زيناوى إلى القاهرة والتقى بشخصيات مصرية رسمية وأهلية وصحفية كنت منهم فى فندق سوفتيل الجزيرة.. ولم يشر من بعيد أو قريب لما نسبه هيكل إليه فيما بعد.

إن هيكل يعانى من عقدة المخابرات دون أن نعرف ما الذى تسبب فيها؟. فهو يراها جهازا فاشلا فى الخارج مستشريا فى الداخل.. دون أن ينظر إلى نجاح واحد حققته.. كما أنه سبق أن تسبب فى القبض على عدد كبير من المسئولين الذين خدموا فى الجهاز يوم 15 مايو 1971.

لقد نجحت المخابرات فى القبض على إرهابيين كانوا يتمتعون بحقوق اللجوء السياسى فى إيران.. وعادت بهم إلى مصر وقدمتهم إلى المحاكمة.. وبعضهم أفرج عنه محمد مرسى فيما بعد.. ولم تفكر فى قتلهم.

ونجحت المخابرات فى إحداث قلاقل فى إيران نفسها بعد انتخاب أحمدى نجاد رئيسا لها.. وتذكر وثائق وكيليكس ذلك بالتفصيل.

ونجحت المخابرات فى الوصول إلى أرصدة الإسلاميين الممولين لموجة العنف التى اجتاحت مصر فى تسعينيات القرن الماضى.. ووقف عاطف عبيد وهو رئيس حكومة ليعلن دون وعى منه فى مجلس الشعب: «احنا عندنا أرصدة الناس دى فى بنوك سويسرا».. وبعدها أجبرت السلطات السويسرية ضابط المخابرات المصرية هناك على مغادرة أراضيها بعد افتضاح أمره.

ونجحت المخابرات فى اختراق شبكات الاتصالات الإسرائيلية عدة مرات.. لتقول: إننا نرد بالمثل.

ولم تنجح إسرائيل فى القبض على عميل مصرى واحد يعمل على أرضها.. وهم كثيرون.. والدليل على ذلك أن مبارك رفض الإفراج عن جواسيس إسرائيليين قبض عليهم فى مصر ليكونوا تحت الطلب للمقايضة بهم على عملاء مصريين فى إسرائيل ساعة القبض عليهم.

وعندما أفرجت مصر عن عميل ميدان التحرير الإسرائيلى الأمريكى مقابل مساجين مصريين متهمين فى قضايا تهريب ومخدرات شعر عمر سليمان بالحزن لإتمام الصفقة غير المسبوقة فى العمل المخابراتى.. فالجاسوس لا يستبدل إلا بجاسوس.

وبرغم الإمكانيات المادية المحدودة فإن المخابرات المصرية وصلت إلى المرتبة الخامسة فى قائمة مخابرات العالم.. وطبقا لما قال عمر سليمان: «لو كانت مواردنا أكبر لكنا رقم ثلاثة».

ولو كان عمر سليمان قاتلا فاشلا كما يروج هيكل دون أدلة ثبوت رغم أنه فحص كما قال التهمة فلماذا منحته فرنسا عام 2008 وسام الشرف وهو أرفع وسام فرنسى

ليكون الرجل الذى توفاه الله أول مصرى يحصل عليه لدوره فى إحلال السلم والأمن العالميين؟. كيف تقدم إليه فرنسا ذلك الوسام ويداه ملطختان بالدماء؟. هل كان جاك شيراك جاهلا بما فعل عندما قدم إليه الوسام قائلا: «إنه رجل سلام وحق وعدل»؟

لقد كنت أول من أجرى حوارا مع عمر سليمان بعد إعلان ترشحه للرئاسة.. بل كنت أول من دخل مقره الانتخابى المطل على قصر البارون أمبان فى مصر الجديدة.. فى ذلك الوقت كانت حملة الإخوان قد اشتدت ضده ناسبه إليه كل ما يقال وما لا يقال.. فقلت له:

أنت تعرف الكثير عن ذلك المعارض المزور.. وتعرف أكثر عن المرشح الرئاسى الذى تحرش جنسيا بزميل له فى معسكر صيفى وهما فى الجامعة.. تعرف الكثير مما يفضح الجماعة التى تشوه صورتك.. فلماذا لا تكشف ما تعرف؟

قال وأشهد الله على ذلك:

إن ما عرفته فى عملى لا تسمح لى أخلاقى باستخدامه لشخصى.. ما عرفته من معلومات نحتفظ بها لاستخدامها لصالح مصر وليس لصالحى أو لصالح مبارك.

9

حديث المستقبل بين متعة القصور وصمت القبور

بينى وبين هيكل كثير من التشابهات.. وكثير من الاختلافات.

ولد هيكل فى حى الحسين.. وانتقل إلى شارع «الجيش».. فى اتجاه حى العباسية.. حيث ولدت.

فلكيا.. يبدأ برج الميزان بيوم ميلاد هيكل.. يوم 21 سبتمبر.. وهو نفس البرج الذى ولدت فيه.. ولكن.. يوم 15 أكتوبر.

بدأ هيكل مشواره مع الصحافة المصرية فى روز اليوسف.. وهى نفس المجلة التى ولدت على صفحاتها.. وعشت فيها نحو ثلاثين عاما من عمرى الصحفى.. ولكن.. هيكل لم يستمر فيها طويلا.. ولا يحتفظ أرشيفها إلا بمقالين كتبهما مديحا فى الملك فاروق.. الأول فى العدد 818 بعنوان «إنه الفاروق».. والثانى فى العدد 830 بعنوان «فى يوم عيدك يا مولاى».

كانت مناسبة المقال.. زيارة الملك لمناطق مصابة بالكوليرا فى جنوب الصعيد.. وصادف يوم الزيارة يوم ميلاده.. فكتب هيكل:

«الملك فى الصعيد.. الملك يزور مناطق المرض بنفسه ليشرف على ما يجرى وليواسى شعبه.. هذا هو النبأ.. النبأ العظيم الذى لم يكن يدهش له أحد ولم يعجب له أحد.. ولكن الناس جميعا أضاءت عيونهم بنور الأمل والثقة وتقابلت أنظارهم فتبسموا ابتسامة حب وحنان.. إنه الفاروق.. إنه الفاروق دائما.. فاروق الأمس.. فاروق اليوم.. وفاروق الغد».

وفى فقرة أخرى يضيف هيكل:

«ذهب الملك إلى شعبه الذى هتف له من أعماق قلبه.. يعيش فاروق منقذ الصعيد.. يعيش فاروق حبيب الفلاح.. يعيش فاروق نصير الفقراء.. زيارتك شفتنا يا مولانا.. إحنا فى حلم يا مولانا.. هذه ليلة القدر.. هذه الزيارة بعثت فينا الحياة.. نريد أن نقبل يدك.. رفعت رأسنا وشرفت مقدارنا.. وقال الملك: بل أنا منكم.. وهتفوا له: فاروق.. فاروق.. فاروق.. أجل إنه الفاروق».

وكانت مناسبة المقال الثانى الذكرى الثامنة لجلوس الملك على العرش.. وكتب هيكل:

«ثمانى سنوات وأنت تحمل مسئولية هذا الوطن وهذا الشعب.. كنت فيها نعم الملك الدستورى فى ظروف لعلها أدق ما مر فى تاريخ حياتها.. أوليس الفاروق الذى قال ذات مرة: إننى أحب قيادة السفينة فى العاصفة».

وينهى هيكل المقال قائلا:

«يا مولاى.. هذه ثمانى سنوات وأنت وهذا الشعب تتقاسمان السراء والضراء فى ظروف الحياة بأزهارها وأشواكها.. وستبقيان معا إلى الأبد لأن رباطا من الحب يوثق بينكما.. رباط من الحب الخالد».

ولا يخطئ من يقرأ المقالين سيطرة الأسلوب الأدبى على ما كتب.. بما لا يوحى بميلاد محلل أو محرر سياسى كما عرفنا فيما بعد.. هيكل صائغ بارع.. يستخدم التشبيهات إذا ما عجز عن الوصول إلى معلومات.. أما مرحلة المستندات فلم يدخلها إلا عندما أصبح قريبا من السلطة الناصرية.. وجزءا منها.

أراد هيكل أن يجد لنفسه أسلوبا مميزا فى الكتابة.. وكان ذلك هاجسى أيضا.. بل.. إننى دخلت روز اليوسف ومعى «كشكول» يضم قصصا قصيرة.. لكن.. صلاح حافظ فاجأنى قائلا: «إننا بعد هزيمة يونيو لم نعد بحاجة إلى أدباء.. أصبحنا فى حاجة إلى صحفيين.. لقد تحول الروائيون مثل يوسف إدريس وفتحى غانم ويوسف السباعى وغيرهم إلى محللين».

لكن.. روز اليوسف لا تعترف بصحفى لا يمتلك أسلوبه الخاص مهما كانت أهمية مادته.. هذه عقدة المكان الذى يكاد لا يوجد اسم لامع فى الصحافة المصرية لم يمر عليه.

والمؤكد أن سر هذه العقدة محمد التابعى الذى أسس هو وفاطمة اليوسف «روز اليوسف».. وكان أسلوبه السهل الجذاب انقلابا حاداً فى الكتابة الصحفية.

وبينما بقيت فى روز اليوسف نحو ثلاثين عاما لم يستمر هيكل فيها سوى عدة شهور.. فطموحه كان يستعجله بحثا عن مكان آخر يمنحه تميزا معنويا وماديا.

ولكن.. الجيل القديم فى روز اليوسف نقل إلينا نميمة شخصية أدت إلى صدام بين هيكل وإحسان عبد القدوس الذى قال فيما بعد: «إن هيكل يستولى على الرأس الكبير فى أى مكان.. استولى على عقل والدتى.. ثم عقل محمد التابعى.. ثم عقل على أمين.. ثم عقل جمال عبد الناصر».

ومنذ أن غادر هيكل روز اليوسف لم يدخلها إلا بعد خمسين سنة بدعوة منى سجلت إقبالا مذهلا كاد من شدة الزحام أن يحطم الواجهة الزجاجية لمدخل المبنى.. ويومها لم يتحدث هيكل عن ذكريات المكان.. ودخل مباشرة فى قضايا الزمان.

ولم أجد نجما صحفيا واحدا ممن لمعوا على صفحات روز اليوسف يميل إلى هيكل.. ويعتقد البعض أن شخصية هيكل أوحت لكتاب عرفوه عن قرب بأعمال روائية مثل فتحى غانم (الرجل الذى فقد ظله) وإحسان عبد القدوس (وغابت الشمس ولم يظهر القمر).

وحسب ما سمعت من هيكل فإن فتحى غانم قال له ذات يوم: «أهلا بالرجل الذى فقد ظله».. فرد عليه هيكل: «وأهلا بالرجل الذى فقد عقله».

وقد وجد هيكل نفسه فى آخر ساعة.. ثم أخبار اليوم.. وأخيرا استقر فى «الأهرام».. ليقفز بها إلى مصاف الصحف الكبرى فى العالم.. وعندما أخرجه السادات منها لم يعمل فى صحيفة أخرى.

وكانت الأهرام أيضا.. آخر صحيفة حكومية أعمل فيها.. لكننى خرجت منها لتأسيس صحيفتين مستقلتين هما صوت الأمة والفجر.. كانتا بمثابة قاعدة انطلاق لصحافة خاصة فرضت نفسها على الصحافة والسياسة فيما بعد.. أما هيكل فقد تفرغ لتأليف الكتب ونشر مقالات فى صحف متنوعة خارج مصر.

وما يلفت النظر أن هيكل لم يكن مالكا لمؤسسة صحفية واحدة.. لكنه.. بعد تأميم الصحافة أصبح مسيطرا على غالبية المؤسسات الصحفية.

وبينما لمع نجم هيكل من اقترانه بالسلطة عرفت طريقى إلى الضوء بالجنوح ناحية المعارضة.

وبينما يفضل هيكل الاحتفاظ بما يتوافر لديه من معلومات حتى يأتى يوم يضعها فى كتاب أجدنى متسرعا فى تقديمها للقارئ طازجة.. وساخنة.. وفى وقتها.

وبينما تركز انتقادات هيكل على أمور عامة مثل الفساد والتوريث وضعف الحكم لا أتردد فى أن أكشف عن وقائع بعينها.. بأسماء أصحابها.. وفى الحالة العامة لا يشعر أحد بأنه المقصود.. وفى الحالة الخاصة تكون المواجهة مباشرة وواضحة وحادة بين من نكتب عنه بكل ما يملك من نفوذ ومال وقدرة على توظيف الحروب القذرة وبين الحقيقة.

وأتذكر أن هيكل نفسه قال لى: إن الآراء لا تؤثر بنفس القدر الذى تؤثر به المعلومات.. زكريا عزمى وهو ضلع قوى فى نظام فاسد تحدث بنفسه عن الفساد.. لكنه.. لم يكشف عن واقعة واحدة محددة.

وكان الثمن الذى دفعته فى مواجهة ديناصورات الفساد باهظا.. قضايا لا تتوقف.. تشهير لا ينتهى.. ومؤمرات قذرة دبرت للنيل من سمعتى.. وفى نفس الوقت كان هيكل يستقبل فى بيوته رجال الأعمال الذين كشفت صفقاتهم المريبة وثرواتهم الحرام.

ولو كان ما تقدم ملاحظات سريعة لم أشأ الدخول فى تفاصيلها لأننى طرف مباشر فيها فإننى أترك الصورة الدقيقة والكاملة ليرسمها مخرج وكاتب سينمائى ومؤرخ مخضرم هو أحمد فؤاد درويش.

لقد تابع درويش ما نشرت من مقالات عن هيكل فى «الفجر» وتفضل بالتعليق عليها عبر رسالة من 10 صفحات.. وصلتنى عبر البريد الإلكترونى.. كتبها بعنوان «تحولات هيكل من التهافت إلى تهافت التهافت».. أتصور أنها ستكون رؤية خارجية لما بينى وبين هيكل من متشابهات واختلافات.. ولنقرأ ما قال:

إذا جال بخاطرك أن محمد حسنين هيكل وعادل حمودة كل منهما فى جيله، وإذا اتفقت أو اختلفت مع كتاباتهما وإذا بهرت «بخبطات صحفية» لكل منهما أو أعجبت

بالكم المعرفى لأى منهما، وإذا كان هيكل أو حمودة هو الصحفى اللامع النافذ لصانع القرار والسياسى الماهر والمفكر الأعمق، فالسؤال: ألم يجل بخاطرك أيضا فيما يوظف كل منهما فطرته وموهبته؟. ما هو الوجدان المسيطر على عواطفه؟. إلى ماذا يهفو قلبه؟

كثفت فى ذهنى معانى المعلومات كمخرج سينمائى وكاتب روائى فاهتديت إلى أن وجدانى هيكل وحمودة قد تشكل كل منهما فى العشرين من عمره.

أصبح هيكل يتطلع ليعيش «عيشة» الباشوات وهفا قلبه إلى الشاطئ الشرقى للولايات المتحدة الأمريكية حيث يرتفع فى نيويورك تمثال الحرية.. وعشق هيكل الأسطورة الأمريكية بالعاطفة أولا (فى سن العشرين) ثم ارتمى فى أحضانها بالمصالح ثانيا بعد أن أرشده مصطفى أمين إلى روشتة كيف تحب أمريكا (كان محمد التابعى قد علم هيكل قواعد الحرفية الصحفية وأضاف إليه مصطفى أمين وعلى أمين الكثير منها).. وبصرف النظر عن السطحية الشديدة فى فكر مدرسة «أخبار اليوم» التى ترى أن الخبر الأهم هو أن رجلا عض كلبًا وليس أن الكلب عض رجلًا، فلقد انقلب هيكل على أساتذته الثلاثة بطريقة سجلتها الروايات والمقالات، فى حين أحب حمودة «عيشة» الطبقة الوسطى المصرية ومال قلبه (فى سن العشرين ولا يزال) إلى أفكار العدل الاجتماعى والسياسى فى مصر والعالم الثالث تجسدت فى سلطة أبوية ثورية ووطنية وتمثلت فى إطلالة جمال عبد الناصر على جيل حمودة وزعامته لأمة عربية امتدت من المحيط الأطلنطى إلى الخليج العربى.

وهكذا.. ومنذ سنوات الأربعينيات وحتى اليوم لم يتغير وجدان هيكل من شاب من متوسطى التعليم علم نفسه بنفسه وأدرك أن مدرسة الرجل الذى عض الكلب لا قيمة لها أمام الفكر الوطنى والليبرالى والاشتراكى فى الأربعينيات واكتشف أنه يملك موهبة التعبير الأقرب إلى الأدب وليس الأدبى فلماذا لا يقترب من الباشا الفلانى ورئيس الوزراء العلانى أو حتى مولاى جلالة الملك المفدى ليوظف أفكارهم بأسلوبه الأقرب إلى القصة القصيرة وللالتفاف حول المنطق الفطرى الذى يتمتع به أى قارئ.. لإقناع هذا القارئ نفسه بعكس الحقيقة أو بحقيقة تمسك العصا من النصف أو قد يكون

هدف القدرة على التعبير عند هيكل الوصول بالقارئ أو المشاهد فيما بعد ألا يفهم شيئا حتى ينصرف عن الموضوع مهما كانت أهميته، وقد أدرك الباشوات وحكام تالون لهم (يرى عادل حمودة أنهم ملك وسبع رؤساء والبقية تأتى) قدرته على التعبير فأسندوا إليه الدور الأثير إلى نفسه.. دور «باشكاتب الحاكم» فالتعبير يمرر السم فى التفكير.

ولما كنت قريبا جدا من محمد سيد أحمد (الأستاذ الحقيقى لهيكل فى استيعاب تطورات الفكر السياسى بمنهاج ديالكتيكى) منذ عام 1969 فلقد أبلغنى أن عبد الناصر كان يطلب من هيكل صياغة كلمات جميلة ولكن واضحة.. ونجح هيكل فى ذلك عندما صاغ خطاب عبد الناصر إلى جون كيندى عام 1961 فى عبارات مثل «لقد أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق».

يكتب هيكل ويتحدث بأبيات من الشعر العربى والإنجليزى فى أمور كثيرة إلا أن المتابع عن كثب يلتقط نقطة الضعف التى يعانى منها منذ شبابه.. عندما يتحدث عن أمريكا تختلف نبرة صوته من الثقة إلى الاستكانة ويردد كلمة إمبراطورية عدة مرات ويؤكد أنها باقية على رأس كوكب الأرض 50 عاما قادمة على الأقل.. يدافع عن أمريكا أكثر من دفاعه عن عبد الناصر أو يدافع عن عبد الناصر إذا وجد أن الدفاع عنه يكسبه نقاطًا جديدة فى الحلبة.. ويدافع عن أمريكا أكثر من دفاعه عن مستقبل مصر فى جميع الحالات.

ولا أنسى أن مفكرا عظيما مثل ميشيل كامل (الأستاذ الحقيقى للطفى الخولى والسبب الرئيسى وراء كل ما حققته مجلة الطليعة من فكر عميق) كان يؤكد لى: «إن أمريكا تسكن عقل هيكل من أيام أخبار اليوم مثلما يسكن الحاكم عقله (فى كل العصور)».

وعن لطفى الخولى يقول ميشيل كامل: «لطفى الخولى مقاول أنفار اليسار المصرى يوردهم لهيكل للتحفظ عليهم داخل الأهرام وقد يكون بعلم جمال عبد الناصر».

«أما عادل حمودة فلقد ظل وفيا لأبناء الطبقة الوسطى فى مصر ولم ينس قوى الشعب العامل من فلاحين وعمال وجنود وطلبة وظل خصما عنيدا يرقب أى فساد فى الرأسمالية الوطنية (حتى 1975) وما تبعها من رأسمالية غير وطنية.. رأسمالية

السماسرة (الكومبرادور) فى زمن التراجع عن التقدم والتنوير (السادات) وزمن الانحطاط (مبارك) وزمن اللازمن والانهيار الكامل (الإخوان).

كانت مصر الزمان والمكان (جمال حمدان) ومصر الوطن والمواطن حاضرة دائما فى قلب وعقل حمودة.. وما تجربته فى روز اليوسف (قبل وبعد صلاح حافظ) إلى إبعاده إلى الأهرام إلى تأسيس جرائد عرفت به إلا شاهدا على عناده حتى لا يبيع نفسه وإصراره ألا يفقدها.

ويتوقف درويش ليسأل: حمودة يختلف مع هيكل.. الآن ما شأنى؟. ولِمَ أكتب عنهما؟

وأجاب: لأننى أدرك الحالتين.. حالة هيكل وحالة حمودة.

لقد ابتعدت تماما عن الاقتراب من هيكل.. والتعرف عليه (رغم أن الاقتراب منه كان حدثا وجائزة).. ففى عام 1965 وبعد النجاح المدوى لفيلمى «وجوه من القدس» عرض الدكتور لويس عوض والدكتور عبد الملك عودة تقديمى إليه وتعريفه بى فابتعدت.

وفى سنوات السبعينات تفضل كمال الملاخ بنفس العرض فابتعدت بعد حزنى على دوره فى دعم الثورة المضادة (مايو 1971) لنصرة السادات.

وفى سنوات الثمانينات كرر محمد سيد أحمد، أستاذى وصديقى، رغبته فى تعريف هيكل بى لأشرح له لماذا صادر السادات فيلمى «كرنفال» ومنع عرضه فى مصر وهو الفيلم الذى جمع مادته العلمية الدكتور على الدين هلال عام 1972 ووضع منهاجه الفكرى محمد سيد أحمد وميشيل كامل عام 1972 وقمت بإنتاجه وكتابته وإخراجه عام 1975 وتدور وقائعه حول قضايا العنف والتوسع والعنصرية فى الشرق الأوسط وجنوب إفريقيا وجنوب فيتنام وقتها.. شكرت سيد أحمد وابتعدت عن هيكل.

وفى عام 1990 اقترح يوسف إدريس دعوة هيكل لحضور العرض الخاص لفيلمى السياسى الروائى «حلاوة الروح» الذى أخرجته وأنتجته عن قصة العسكرى الأسود

وبعدها كنت أتابع مقالات «صباح السبت» بـ«الأهرام» قبل قصف قلمه أيام إبراهيم نافع.. كلما قابلت حمودة بالصدفة نتحدث أو لا نتحدث ولكنى كنت على ثقة بأنه أخلص أبناء جيلى لمصر ولعبد الناصر وأنه الأجدر بكتابة كتاب مثل: «لمصر لا لعبد الناصر».. كنت متوحدا مع حمودة وغضبى من هيكل قديم.. غضب امتد 43 سنة وكان عمرى 24 عاما فقط.

ويستطرد درويش:

عن علامات استفهام على هامش آراء وأفكار ومواقف هيكل كتب عادل حمودة فى 9 يناير 2014.. ولما كنت متابعا دقيقا لمواقف هيكل المتحولة بتغير الحاكم فى مصر والثابتة أبداً مع الاستراتيجية الأمريكية وتكتيكاتها فى الشرق الأوسط وكأنها البوصلة حتى إذا احتاج الأمر من هيكل إلى تحولات جزئية طبقا للبوصلة، وأود أن أوضح أن توصيفى لحالة هيكل لا يحمل أى اتهام مبطن من جانبى بأى عمالة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.. وفى سياق المصالح فالغرض مرض.. وفى سياق العاطفة فإذا وقعت فى هوى أمريكا وأنت مصرى فلن تطيب إلا بالوقوع فى هوى مصر.. فهل يتخلص هيكل من وجدانه الأمريكى ليعود إلى وجدانه المصرى والذى كان عليه قبل بلوغه سن العشرين.. هذا هو المستحيل لكاتب يعى ما يفعل وما يقول حتى بلوغه التسعين من عمره.

ويستعرض الكاتب ما سبق أن ذكرت فى المقالين اللذين نشرتهما عن هيكل.. حسن نيتى فى الدفاع عنه.. إلقاء الصداقة إلى عرض الطريق عند أول اختلاف معه.. الغيرة من الإشادة بنجاح غيره خاصة فى وجوده.. علاقته بالعائلة الحاكمة فى قطر مقابل دولارات عقد الجزيرة.. ذهابه إلى محمد مرسى فى قصر الاتحادية رغم اعترافه بأنه مسطح التفكير.. مصالح البيزنس بين أبناء هيكل وأبناء مبارك.. التشكيك فى ترشح السيسى للرئاسة.. ومساندة السادات للانقضاض على تجربة عبد الناصر التى يشيد هيكل بها ويندم على ما جرى لها.

ويصف درويش ملف هيكل الشائك بالملف العفن «رائحته نتنة من أكثر من أربعة عقود» ويضيف: «ولا أدرى لماذا سيطرت كلمة «تهافت» للإمام الغزالى على ذهنى

ورد فيلسوف العقل أبا الوليد بن رشد عليه بكلمة «تهافت التهافت» بعد قراءتى لمقال عادل حمودة فأسقطت هذه الكلمات على شخص هيكل».

«كيف تحالف هيكل مع السادات مجندا خبرته وملكاته لخدمة تمكين السادات عضو الحرس الحديدى الفاروقى وصديق المخابرات الألمانية فى مصر وصاحب الحلم الأمريكى من ضرب وإبعاد وتشويه صورة رجال لا يقلون وطنية وكفاءة عن جمال عبد الناصر. كيف يتفاخر هيكل بأنه «المهندس «الحقيقى للثورة المضادة يوم 14 مايو 1971؟. لماذا نهش هيكل ورثة عبد الناصر وخطط لاعتقالهم وحبسهم؟. وبخلاف بوصلة واشنطن التى تحركه ويتحرك بها.. ما هى المصلحة الشخصية المباشرة (باستبعاد مصلحة الوطن طبعا)؟

ويضيف درويش: يمكننى أن أرى بخيالى أن هيكل هو الذى زين لعبد الناصر أسوأ قراراته وهو تعيين السادات نائب رئيس الجمهورية.. وكنت يومها (ديسمبر 1969) فى بعثة بالأكاديمية المصرية بروما حيث استمعت إلى محطة إذاعة هناك وهى تعلن أن تل أبيب ترى أن هذا القرار هو إعلان للعالم أن مصر تفتقد إلى القيادات.

ويستطرد: إذا لم يكن ما سبق تهافتًا فماذا يكون؟. التهافت فى الفلسفة هو انهيار البناء فى أى قضية فلسفية بحيث تصبح قضية فارغة.. والمحك عندى فى تهافت هيكل أنه كان يدرك ما ستؤول إليه مصر الدولة والشعب من تراجع ثم انحطاط ثم انهيار لو عاون السادات فى التخلى عن سياسات عبد الناصر.. طرد السوفيت من مصر والمنطقة.. حلول مصر محل إسرائيل والسعودية لتصبح «الخادمة» الأولى للمصالح الأمريكية.. والتصالح مع تنظيم الإخوان لوضع الإسلام فى خانة عداء دائم ضد الشيوعية السوفيتية وترشيح الوجود الأمريكى.. ورغم إدراكه لما سبق لم يتأخر هيكل عن دوره فوصلنا إلى ما نحن فيه من انهيار.. هذا هو تهافت هيكل.

ويكمل: من التهافت إلى تهافت التهافت لم يحد هيكل عن طريقه خلال السنوات من 1974 إلى 2002.. مثل دور المعارض لنظامى السادات ومبارك.. فالأول استخدمه ورماه.. والثانى أبعده عن جسم الدولة.

وبعد أحداث 11 سبتمبر 2011 فى نيويورك واتضاح الرؤية لدى الإدارة الأمريكية عام 2002.بأن الإرهابيين يجب إعادتهم إلى موطنهم بالعالمين العربى والإسلامى ولا مانع لدى واشنطن أن يتولوا الحكم فى السعودية ومصر وتونس وليبيا واليمن حتى يبتعدوا عن أوروبا والولايات المتحدة وكندا وكفانا ما حدث فى برجى التجارة، وإذا كانت جماعة الإخوان المسلمين قد أنجبت صبيانا وبنات (تنظيمات) فلا مانع من تمكينهم بدلا من نظام مبارك فى مصر... فى هذا التوقيت بدأ هيكل يردد «أن السلطة شاخت فى مواقعها»... وفى هذا التوقيت ألقى محاضرته فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة حيث روج حواريوه وقتها أنه أول من تحدث عن توريث الحكم فى مصر.. ثم كانت محاضراته عام 2005 التى اتضح فيها مدى الضوء الأخضر الأمريكى لإزاحة مبارك وابنه والبديل جاهز فى الشارع.. تنظيم الإخوان دون أن يذكره هيكل بالطبع.. وهنا أدرك نظام مبارك أهمية تأجيل التوريث وتحويل انتخابات رئاسة الجمهورية من استفتاء على مبارك إلى منافسة وهمية أمامه (أيمن نور ونعمان جمعة) ولكن تكتيك نظام مبارك أربك ما كان يسعى إليه هيكل طبقا للبوصلة الأمريكية.

والمدهش أن إيقاع هيكل فى الكتابة وفى برنامج تجربة حياة على قناة الجزيرة القطرية وفى اتصالاته الشخصية متوافق وبهارمونية كاملة مع جماعات الإسلام السياسى ومع «البوب» محمد البرادعى المقرب لهيكل ومع المهندس مصطفى حجازى الذى وصفه فى صالون عبد الله السناوى بأنه مفكر.. وهكذا أصبح هيكل صديقا وناصحا وهاديا لقيادات تنظيم الإخوان الإرهابى.. وهو التنظيم الذى لم يذكره بكلمة واحدة فى الصالون الذى أضر بالسناوى أكثر مما نفعه.. هكذا.. كان علينا أن نصبر على الإخوان حتى يكمل مرسى ثلاث سنوات أخرى كنتيجة يأخذنا هيكل إليها.

ونحن نوافق حمودة على «مسئولية هيكل عن الكوارث السياسية التى لحقت بمصر طوال الأربعين سنة الماضية».. وإذا ما سألت هيكل سيرد: «أنا لا شأن لى.. أنا مجرد جورنالجى».

وختاما فإن مصر ينتظرها مستقبل مشرق وهى لا ولن تنتحر أبدا كما يصور لنا هيكل.. ولا تحتاج مصر إلى معجزات بقدر ما تحتاج إلى تفعيل دور الظهير الشعبى

(الناس).. تحتاج مصر إلى خلفاء عبد الناصر لترسخ أقدامهم ولا تحتاج ذوى البوصلة والوجدان الأمريكى الذين لن تصبح لهم أقدام.. ولا يفوتنى فى عيد الحب أن أدعو لهيكل بالصحة والعافية وأن يحيا بالقصور بشرط أن يصمت صمت القبور.

انتهى.

لكن.. هيكل لم يصمت.. بل.. أكثر من ذلك بدأ سلسلة أحاديث تلفزيونية جديدة لوضع تصوره للمستقبل.. المستقبل يرسمه رجل يقول دون توقف إن تاريخه وراءه.. رجل ولد فى زمن سعد زغلول.. فى زمن الترام والشعر والاحتلال.. وتسبب فى كثير مما جرى لنا إلى الآن.. هو الذى يتكلم عن المستقبل.. بكل ما فيه من تكنولوجيا مذهلة.. وتقارب بين مناطقه البعيدة إلى حد الاندماج.. ونسى قوانين الخيمة واعتمد قوانين الفضاء.. هل لنا أن نبشر أنفسنا بمستقبل متفجر نماء وثراء.. تقدما وازدهارا؟

إن مشكلة هيكل هى رغبته فى الخلود.. لا يريد أن يعترف بأن كل من مروا بالدنيا من ملوك وكهنة وحكام وجنرالات وصعاليك ومجانين اختفوا بنفخة واحدة من الزمن وكأنهم مجرد ذرات تراب.

إن الخلود لله وحده.

خريف هيكل

لم أعبر عن اختلافى مع هيكل وهو محاصر فى نظام يكرهه .. ولا يجد منفذا للتعبير فى صحيفة .. أو نافذة تلفزيونية .. ولكن .. مؤخرا تغير الوضع تماما .. أصبح مؤثرا على صحيفة يومية بشراكة أحد أبنائه فيها .. و أصبح مؤثرا على دار نشر كبرى تتحكم فى غالبية مثقفى مصر .. لو اختلف هيكل مع واحد منهم لن تنشر له ما يكتب.

وبتعدد الصحف المستقلة نجح هيكل فى مد جسور الود والمجاملة مع ملاكها ومحرريها فأصبحت فى خدمته، تحتفل بما يقوله على شاشات التلفزيون، وتتبارى فى نشر حوارات معه، وتمنع ما يكتب ضده من النشر، وهو أمر غريب أن يكون كاتبا فى ثقله وشهرته سببا فى تقليص حرية الصحافة وتقييدها.

لقد انقلبت الآية .. فى وقت سابق كان من الصعب أن يجد هيكل صحيفة تدافع عنه .. أما الآن .. فمن الصعب أن نجد صحيفة تختلف معه. أصبح هيكل قويا .. مسنودا .. محميا .. يدور فى حلقة ذكره دراويش ومريدون يسبحون بمآثره .. ويتلمسون البركة بالقرب منه .. ويلقون بتهمة الكفر علي كل من يعارضه.

لكل هذا يأتى هذا الكتاب عن "هيكل وخريفه".

عن الأسطورة التى شاخت فى موقعها.

عادل حموده

أسطورة شاخت فى موقعها

منشورات البندقية